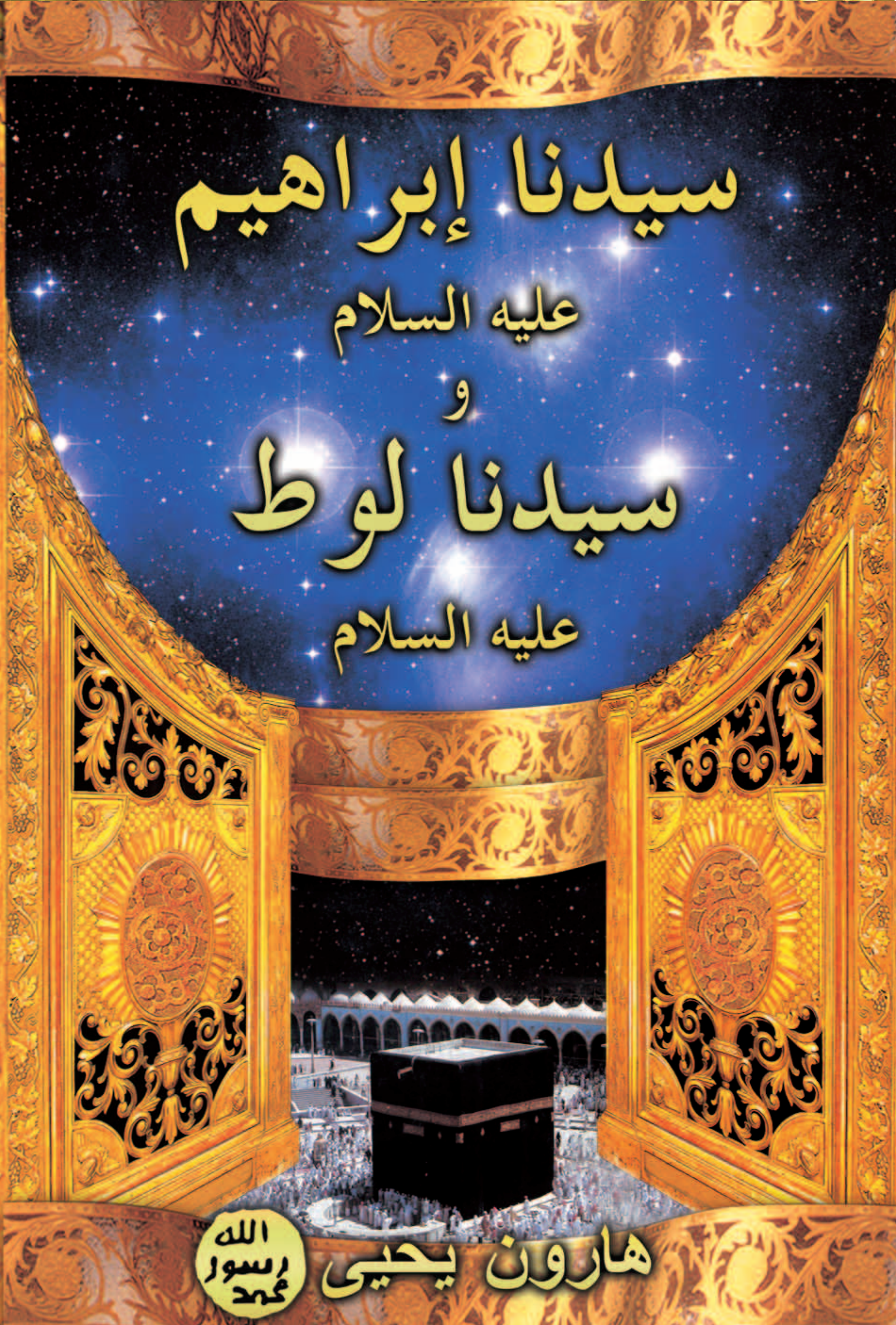
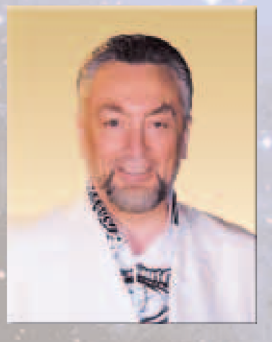

سيدنا إبراهيم
عليه السلام
و
سيدنا لوط
عليه السلام
هارون يحيى
الله
رسول
محمد

يثني القرآن ويذكر الخصائص والمميزات الجميلة لكل نبي ورسول. وعلى المؤمنين الذين اتبعوا طريق الهدى وسلوك سبيل ربهم أن يدققوا جيدا فيما ورد من نصوص عن هؤلاء الأنبياء الأصفياء المكرمين من ذكر لخصالهم الحميدة وأخلاقهم العالية، ويتخذوا من أسلوب حياتهم واعتصامهم بربهم وعمق إيمانهم وتوكلهم مشاعل يهتدون بها في الإقتداء. وقد كان لكل رسول ونبي طريقته الخاصة في دعوة قومه إلى الإيمان بالله وتبليغهم أوامره ونواهيه نظرا لاختلاف خصال وطبيعة الأقوام والمجتمعات التي ظهروا فيها، وتباين الظروف وردود الأفعال التي واجهتهم. ولنا أمثلة ونماذج صالحة لما لاقوه من مصاعب وعراقيل ومحن كبيرة وما أظهروه من تصرفات وإجراءات، هم والذين اتبعوهم من المؤمنين.

إن الهدف من هذا الكتاب، الوقوف على حياة وشمائل وأساليب سيدنا إبراهيم (ع) الذي قال فيه تعالى﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ (الممتحنة :**4**)، والتعرف إلى سيدنا لوط (ع) الذي عاصره وجاوره، مع عرض لمميزاتهما وخصالهما السامية باعتبارهما النموذج والمثل الأعلى للاقتداء بهما. وما ورد بشأنهما من آيات في القرآن تتضمن الكثير من الحكم والعبر. وقد حاولنا في هذا الكتاب عرض ما يمكن الأخذ بها ولأجل إدخالها ودمجها في أساليب معيشتنا وطرز حياتنا على وجه الخصوص.

حول الكاتب



ولد عدنان أوقطار عام ١٩٥٦، وهو يستعمل الاسم المستعار هارون يحيى. ومنذ الثمانيات من القرن الماضي كتب عدداً كبيراً من المؤلفات في مواضيع مختلفة، إيمانية وعلمية وسياسية، إلا جانب ذلك يوجد للكاتب مؤلفات في غاية الأهمية تكشف زيف أتباع نظرية التطور، وتفند ادعاءاتهم، وتفضح الصلات الخفية، بين الداروينية والأيديولوجيات الدّموية.

وهدف المؤلف الرئيسي من وراء أعماله هو إيصال نور القرآن الكريم إلى شتى بقاع العالم، ودفع الناس بذلك إلى التفكير والتفكّر في قضايا إيمانية أساسية مثل وجود الله تعالى ووحدانيته، واليوم الآخر، وكذلك كشف الأسس المتهاونة لنظم الجاحدين وسلوكياتهم المنحرفة. وإلى حدّ الآن ترجم للكاتب نحو ٢٥٠ مؤلفاً إلى ٥٧ لغة مختلفة، وهي تحضى باهتمام بالغ من قبل شريحة واسعة من القرّاء. وبإذن الله تعالى سوف تكون كليات هارون يحيى خلال القرن الواحد والعشرين، وسيلة للبلوغ بالإنسان في شتى أنحاء العالم إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي جاء التعريف بها في القرآن الكريم.


بسم الله الرحمن الرحيم
الله
رسول
محمد



وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يساهمون في نشر هذه الكتب ويحثون الناس على قراءتها لتكون وسيلة لهدايتهم هم في الحقيقة يقدمون خدمة للدين لا تقدّر بثمن.

وعلى هذا الأساس، فإنّ العمل على نشر الكتب التي ثبت بالتجرية أنها تشوش الأذهان وتُدخل البلبلة على الأفكار وتزيد من الشّكوك والتردّد ولا تملك تأثيرًا قويّا وحاسمًا في طرد الشبهات من القلوب، يُعتبر مَضيعةً للجهد والوقت. ومن الواضح أن هذه المؤلفات لم تكن لتترك كل هذا التأثير لو كانت تركز على بيان القوة الأدبية للكاتب أكثر من تركيزها على الهدف السامي المتمثل في هداية الناس. ومن لديه أدنى شك في ذلك فيمكنه أن يتحقّق من أن الغاية القصوى هي دحض الإلحاد ونشر أخلاق القرآن من خلال تأثير هذا الجهد وإخلاصه ونجاحه.

يتعين إدراك حقيقة مهمة، وهي أن الظلم والفوضى السائدين اليوم في أنحاء الأرض وما يتعرض له المسلمون من أذى سَببه تحكّم الفكر الإلحادي في شؤون العالم. والطريق الذي يضمن الخلاص من هذا كلّه هو إلحاق الهزيمة بالفكر الإلحادي وبيان حقائق الإيمان و إجلاء الأخلاق القرآنية بحيث يُصبح النّاس قادرين على التمسك بها. وبالنظر إلى حالة العالم وما يُراد له من مزيد جرّه إلى الفساد والشّرور والدمار فإنه من الضروري المُسارعة قدر المستطاع إلى القيام بما هو ضروري، وإلا فقد يُقضى الأمر ولاتَ حين مناص. وخلال القرن الواحد والعشرين، وبإذن الله تعالى سوف تكونُ كليّات هارون يحيى –من خلال نهوضها بهذه المهمّة– الوسيلة للوصول بالنّاس إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي أوضحها لنا القرآن الكريم.



حول المؤلف

يتكون الاسم المستعار للكاتب من "هارون" و "يحيى" في ذكرى موقرة للنبيين اللذين جادلا ضد الكفر والإلحاد، بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف رمزًا لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. ويشير هذا الخاتم النبوي إلى أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأنّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وقد اتخذ الكاتب لنفسه القرآن الكريم والسنة النّبوية دليلاً ومرشدًا، وفي جميع المؤلفات أخذ العهد على نفسه بنسف جميع الأسس التي تقوم عليها النظم الإلحادية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المناهضة للدّين. ويعتبر هذا الخاتم الذي مَهر به كتبه بمثابة إعلان عن أهدافه هذه.

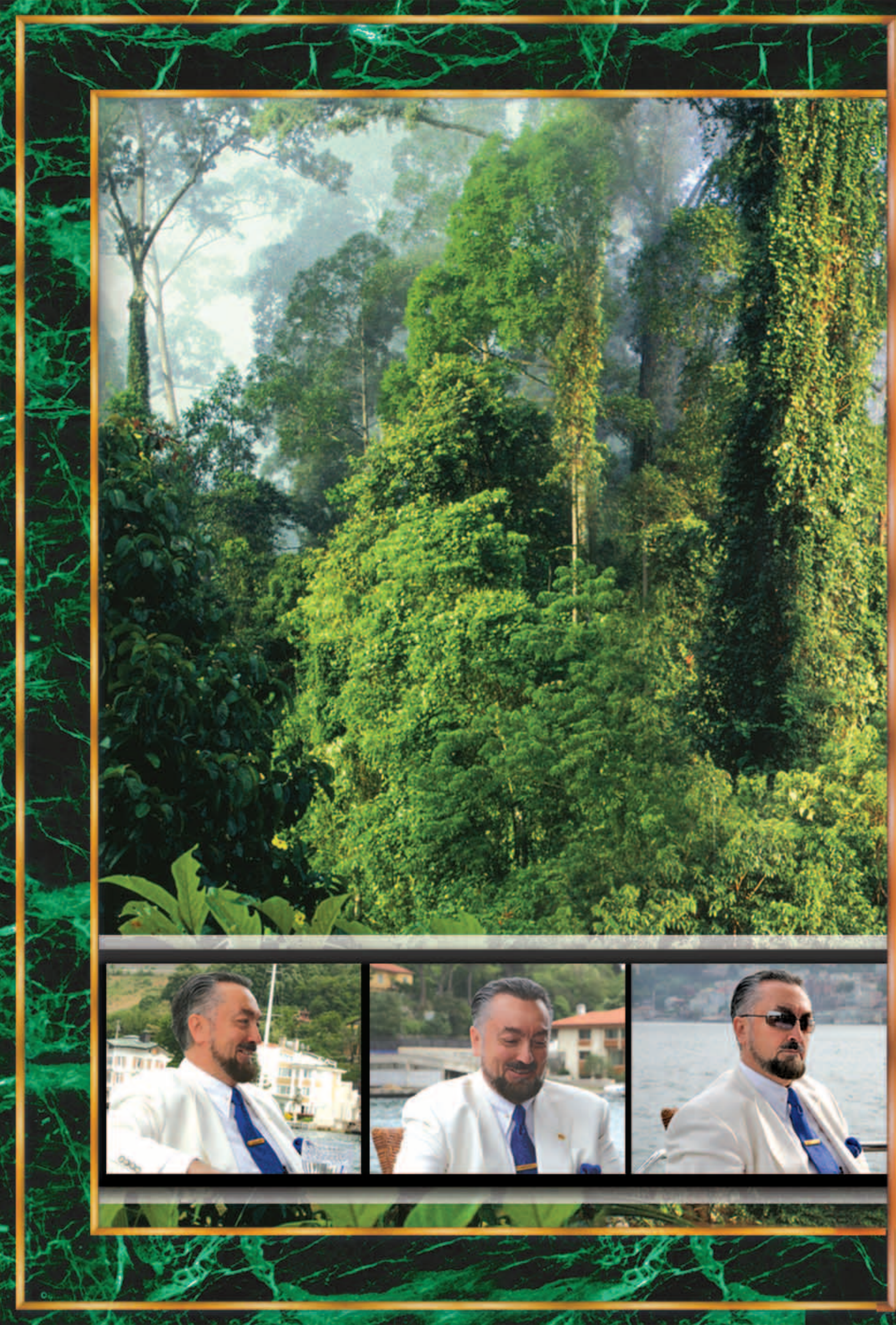
تدور جميع كتب المؤلف حول هدف رئيسي هو تًبليع نور القرآن ورسالته لجميع الناس، وحثهم على الإيمان بوجود الله ووحدانيته واليوم الآخر، وعرض تهافت النظم الإلحادية وفضحها على الملإ.

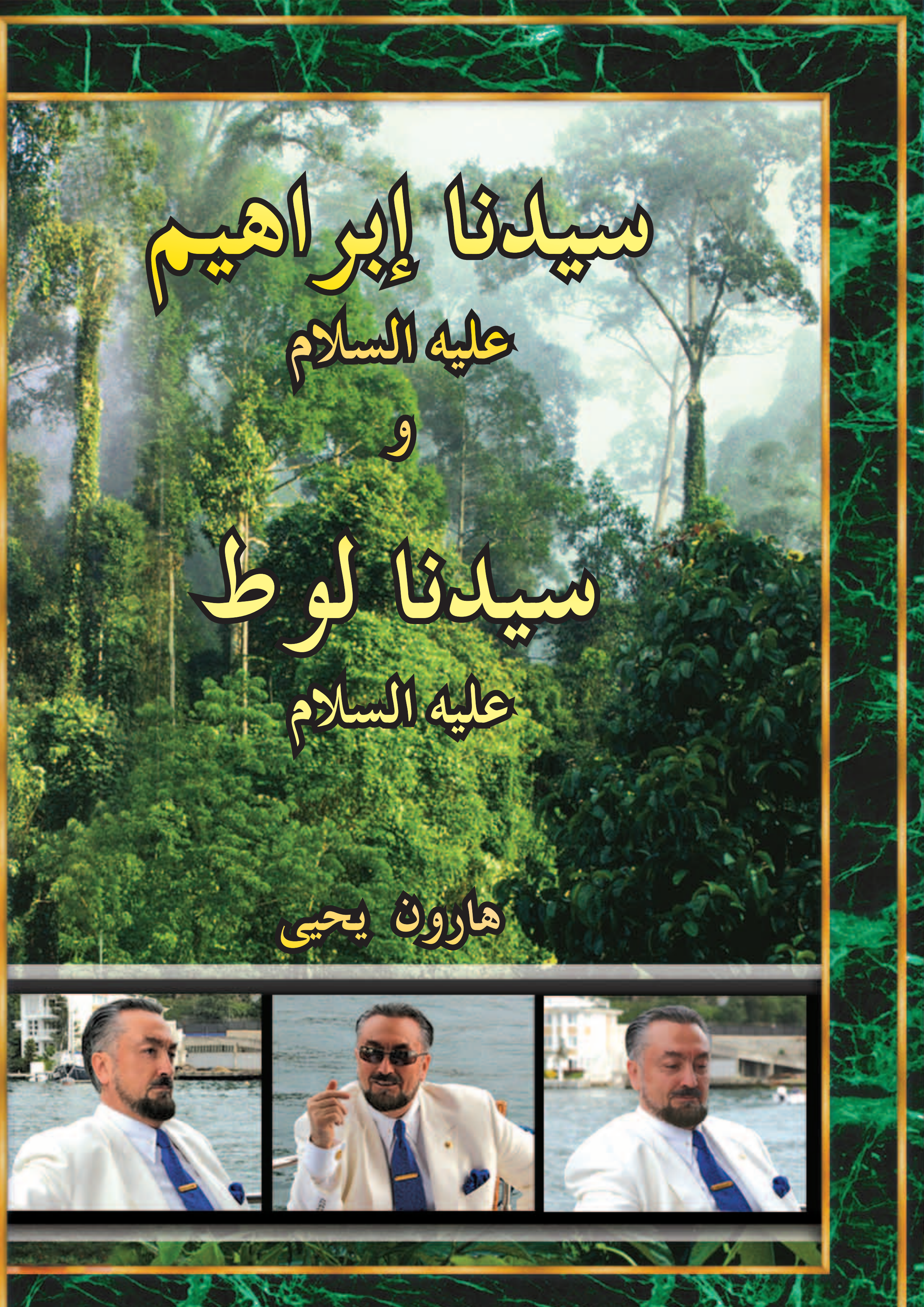
تحضى كتب هارون يحيى بقبول واهتمام كبيرين في شتى أنحاء العالم؛ من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا، ومن بولونيا إلى البوسنة، ومن إسبانيا إلى البرازيل، ومن ماليزيا إلى إيطاليا، ومن فرنسا إلى بلغاريا وروسيا.

ترجمت كُتب المؤلّف إلى العديد من اللّغات الأجنبية، ومن بين تلك اللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والأوردية والعربية والألبانية والروسية والبوسنية والإويغورية والاندونيسية والمالاوية والبنغالية والصربية والبلغارية والصينية والسواحلية (لغة مستعملة في تنزانيا) ولغة الهوسه (لغة منتشرة في إفريقيا)، ولغة الدّيولهي (لغة مستخدمة في موريس) والدانماركية والمجرية وغيرها من اللغات. و هناك إقبال كبير على قراءة هذه الكتب بهذه اللغات.

لقد أثبتت هذه المؤلفات جدارتها، ووجدت تقدير كبيرًا في كافة أنحاء العالم. وقد كانت سببًا في هداية كثير من الناس إلى طريق الإيمان وساهمت من جانب آخر في تقوية إيمان كثير من المؤمنين. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها يلاحظ بوضوح الحكمة البالغة التي تكمن فيها والسهولة الموجودة بين ثنايا سطورها والصدق الذي يميز أسلوبها والعمق في تناول القضايا العلمية. وما يميّز هذه المؤلفات أيضا سُرعة تأثيرها وضمان نتائجها وعدم القدرة على نقض ما فيها ودحضه. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها بعمق لن يكون بإمكانه بعد ذلك الدّفاع عن الفلسفات المادية والآراء الإلحادية والأفكار المُنحرفة الأخرى.

وإذا حدث وأن نافح منافح عن تلك النظريات بعد مطالعة هذه المؤلفات فلن يكون ذلك سوى عن عناد عاطفي لأنّ السّند العلميّ قد تمّ دحضه وإبطاله. ولا شك أن هذه الخصائص نابعة من قوة حكمةً القرآن وحُججه الدّامغة. والكاتب لا يسعى من وراء عمله هذا إلى نيل المديح والثناء إنما هدفه وغايته هداية الناس والسير بهم في طريق الإيمان، كما أنّ ليس همّه تحصيل أيّ ربح أو مكسب مادّي.




سيدنا إبراهيم
عليه السلام
و
سيدنا لوط
عليه السلام
هارون يحيى

المحتويات

إلى القراء الكرام

إن المواضيع الإيمانية الموجودة في جميع كتب المؤلف مشروحة وموضحة في ضوء الآيات القرآنية. وهذه الكتب تدعو الناس جميعًا إلى فهم هذه الآيات والعيش وفقا لتعاليمها. لقد تم شرح جميع المواضيع المتعلقة بآيات الله بحيث لا تبقى هناك أي شبهة أو تردد في ذهن القارئ. إن الأسلوب السلس والسهل والرصين المنبعث من القلب هو الذي يسَّر فهم هذه الكتب من قِبل الجميع صغارا وكبارا، ومن كل فئات المجتمع، بسهولة ودون أي صعوبة، وهو الذي جعل هذه الكتب كتبًا لا تستطيع أن تتركها قبل إتمام قراءتها. وحتى الذين اتخذوا موقفا معارضا للدين يتأثرون بالحقائق المذكورة في هذه الكتب، ولا يستطيعون دحض صحة محتوياتها.

وكما يستطيع القراء قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف على انفراد، فهم يستطيعون قراءتها بشكل جماعي، أو مناقشتها فيما بينهم والتسامر حولها. إن قراءة هذه الكتب بشكل جماعي ونقل كل فرد رأيه وخبرته إلى الآخرين أمر مفيد جدا.

علاوة على هذا، فإن المساهمة في تعريف هذه الكتب — التي لم تؤلَّف إلا لوجه الله تعالى ولمرضاته — ونشرها بين الناس تُعَد خدمة إيمانية كبيرة، لأن الأدلة والبراهين التي يوردها المؤلف في هذه الكتب قوية جدا ومقنعة، لذا كان على كل من يريد خدمة هذا الدين تشويق الآخرين لقراءتها والاستفادة منها.

إننا نأمل أن يتسع وقت القارئ للاطلاع على استعراض الكتب الأخرى، الذي نقدمه في نهاية هذا الكتاب، ليكون على علم بوجود منابع ثرَّة ومصادر غنية من الكتب في المواضيع الإيمانية والسياسية، التي تعد قراءتها مفيدة وممتعة للغاية.

لا ترى في هذه الكتب ما تراه في بعض الكتب الأخرى من رؤى شخصية للمؤلف، ولا ترى شروحا وإيضاحات مستندة إلى مصادر مشبوهة، ولا أي نقص أو قصور في أسلوب الأدب والتوقير الواجب اتخاذه تجاه المفاهيم والمواضيع المقدَّسة، ولا ما يجُر القارئ إلى الحيرة والتردد أو إلى اليأس والقنوط.



المدخل

إن جميع الأنبياء والمرسلين على مر التاريخ، دعوا البشرية إلى معرفة الله تعالى والإيمان به وتنزيهه وتوحيده وقبول عبوديتهم له دون شريك. وقاموا بتبليغ رسالة ودين الله، وكانوا نماذج وأمثلة للإقتداء بهم في طرز معاشهم وأخلاقهم وتصرفاتهم تجاه حوادث الدنيا ومستلزمات الحياة، وردود أفعالهم تجاه ما يجري على الأرض. وكذلك بشخصياتهم الفذة وشيمهم الكريمة. والأنبياء كما كانوا أمثلة صالحة للأقوام الذين تقاسموا العيش معهم، فأنهم – وكما جاء في القرآن من ذكر ميزاتهم وخصائصهم الفريدة – أيضا قدوة لجميع أهل الدين والإيمان وعلى مر الدهور والأزمان. وفي هذا جاء قوله تعالى

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢١)

ويقدر القرآن مميزات كل نبي وبكثير من التقدير والاعتزاز. لذا فإن على المؤمنين إدراك ذلك والانتباه إلى النواحي المضيئة والمنيرة من أوصاف الأنبياء، ويستخلصوا الدروس والعبر من تفاصيل حياتهم وسيرهم للإقتداء بها وجعلها دليلا في الحياة. ويلاحظ



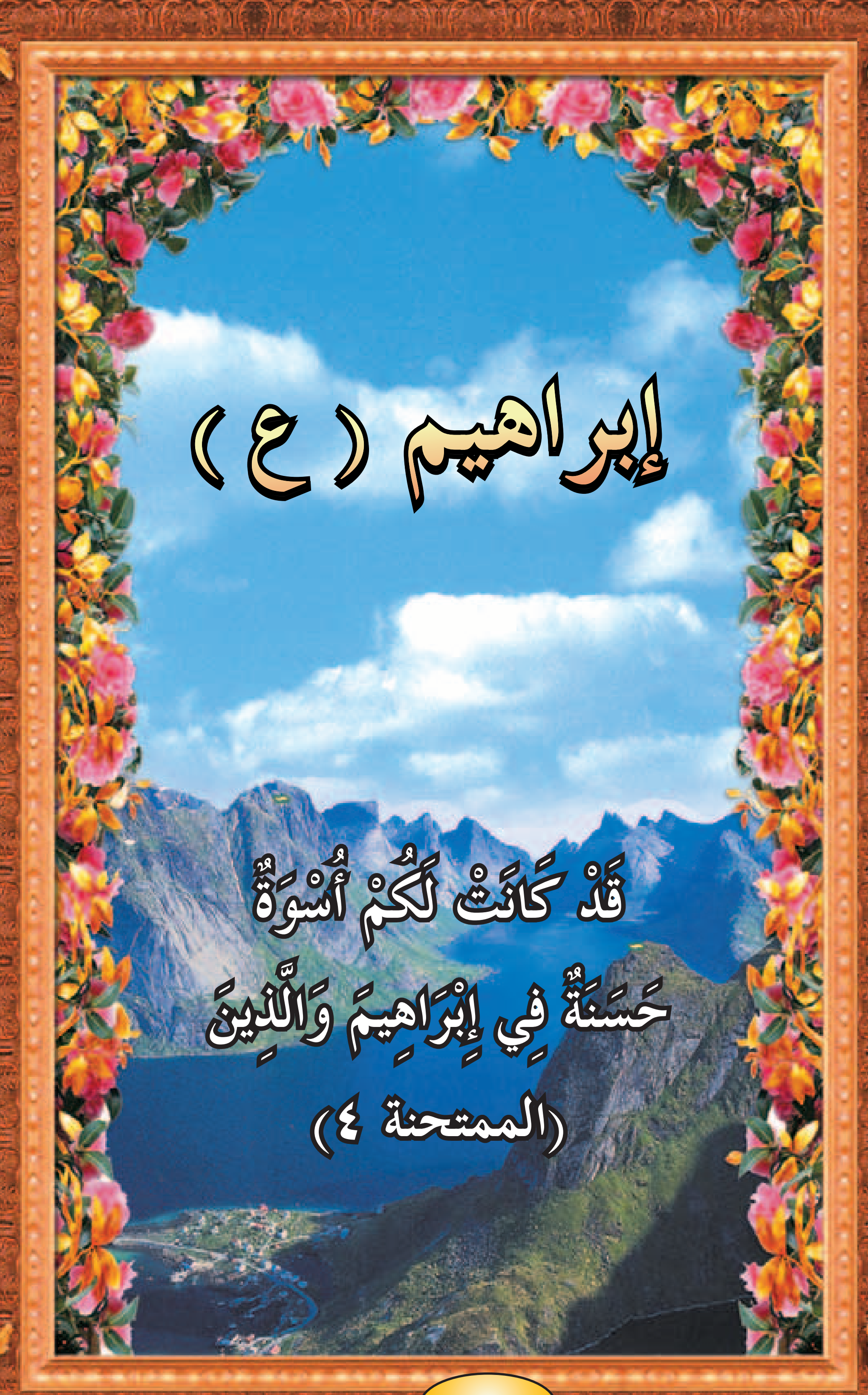
أن لكل نبي أسلوبه الخاص في دعوة قومه إلى الهداية ومعرفة الخالق سبحانه.

إن لصفات وخصائص الأقوام الذين عاش الأنبياء بينهم، تأثيرا مباشرا وواضحا في طريقة قيامهم بتبليغ الرسالة الربانية. كما وإن تأثير ردود أفعال أقوامهم وإجراءاتهم على الأنبياء ومن اتبعوهم من المؤمنين والمصاعب والعوائق التي وضعوها أمامهم، والتصرف الذي صدر تجاهها من الأنبياء علامات إرشادية وأضواء ومعالم على الطريق كما هي تجارب فذة لنا لأخذ الدروس والعبر منها.

إن الهدف والقصد من هذا الكتاب، تقديم حياة سيدنا إبراهيم (ع)، ونبي الله لوط (ع) الذي عاصره، وكما جاء في الآية:-

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤)

من مديح وثناء، وإبراز الخصائص العالية في حياتهما لتكون عبرة وقدوة حسنة للمؤمنين. ومما لاشك فيه أن كل خلق أو شيمة لسيدنا إبراهيم (ع) وسيدنا لوط(ع) التي ورد ذكرها في القرآن، عبر وحكم لا عد لها. وهذا ما سنحاول الدخول في تفاصيلها واستخلاص ما تتضمنها هذه الحكم من أمور وحقائق تنير لنا طريقنا ونقتبس منها ما يفيدنا للمضي على هداها في طريق الحياة.


إبراهيم (ع)
قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ
(الممتحنة ٤)



خصائص قوم سيدنا إبراهيم (ع)

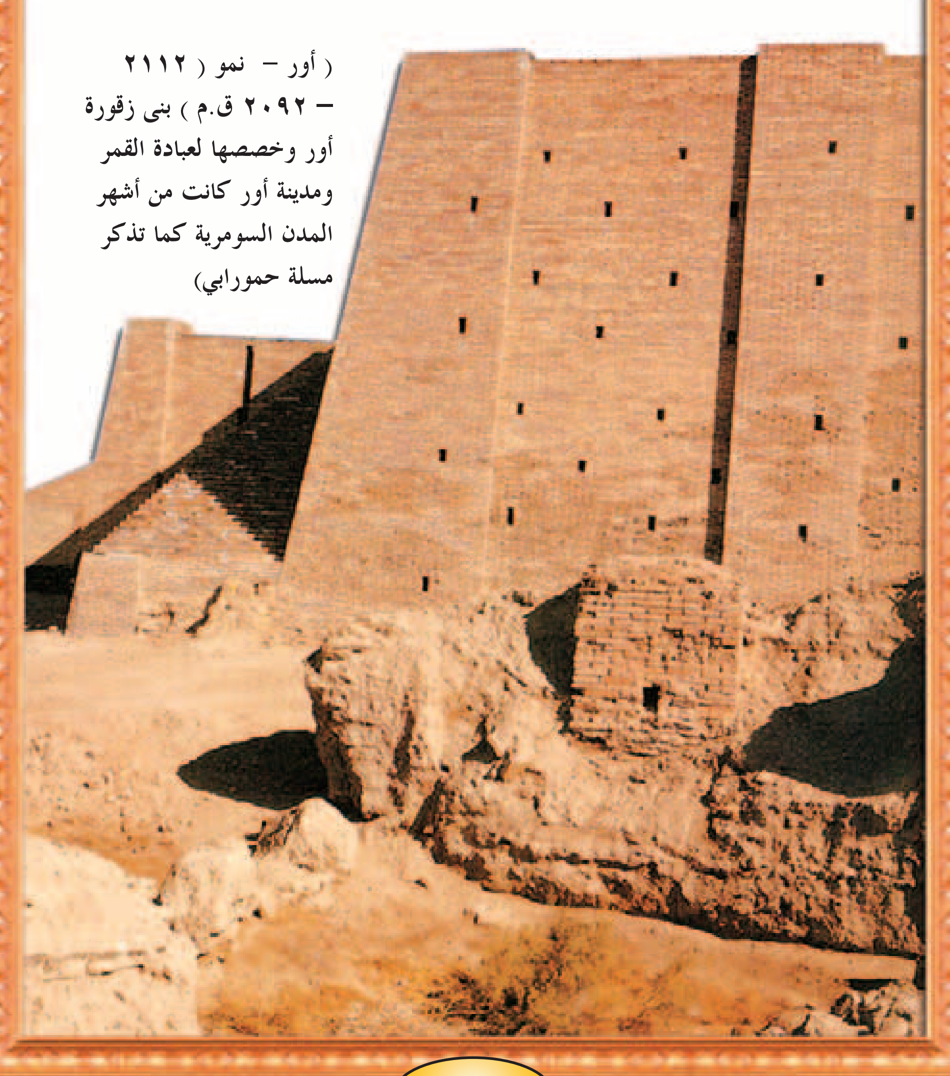
يذكر القرآن الكريم أن أول نبي هو سيدنا آدم (ع)، والذي جاء ذكره من بعده هو سيدنا نوح (ع). أما سيدنا إبراهيم (ع) فيذكره القرآن باعتباره من سلالة سيدنا نوح (ع) وعاش في فترة زمنية بعده

﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ **(الصافات:٨٣)**

والأنبياء من صلب سيدنا إبراهيم (ع) هم الأنبياء الكرام، اسحق وإسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى والمسيح (عليهم السلام أجمعين).

لقد عاش سيدنا إبراهيم (ع) – كما يذكر ذلك لنا القرآن الكريم – في منطقة الشرق الأوسط وفي إقليم ما كان يعرف بما بين النهرين (ميزوبوتاميا – وما يعرف بالعراق الآن) وهذا ما تؤكده أيضا المصادر التاريخية. وفي تلك العهود كانت الأقوام والمجتمعات في هذه المنطقة من عبدة الأوثان والأصنام التي كانوا يصنعونها بأيديهم،

أو يعبدون الأجرام السماوية أو الشمس أو القمر. وقد ظهرت معالم وآثار مندثرة كثيرة لمباني وهياكل عظيمة تسمى " الزقورات" كانت مخصصة لعبادة الشمس والقمر، خرجت إلى الوجود من تحت الأتربة والأنقاض على إثر التنقيبات في الشرق الأوسط. وكما ظهرت أيضا تماثيل وأصنام من الحجر أو الصلصال المفخور نتيجة هذه الحفريات.



(أور – نمو (٢١١٢ – ٢٠٩٢ ق.م) بنى زقورة أور وخصصها لعبادة القمر ومدينة أور كانت من أشهر المدن السومرية كما تذكر مسلة حمورابي)



هذه الحقائق التاريخية الثابتة تؤكد وتدل على أن الأقوام والمجتمعات التي عاش فيها سيدنا إبراهيم (ع) كانت من عبدة الأوثان، وإن المنطقة بعمومها كانت ديارا للمشركين.

لقد اختار الله سيدنا إبراهيم (ع) وشرفه بالنبوة وكلفه بحمل أمانة تبليغ الرسالة. وقام هذا الإنسان الصالح بتبليغ الرسالة على أكمل وجه وقدم لقومه أمثلة للأخلاق الحسنة وحسن التصرف ولين الجانب رغم ما أمتاز قومه من غلظة وفظاظة وقسوة وظلم وجبروت. وكما ذكر ربنا سبحانه في القرآن فقد كان قوم إبراهيم يصنعون أصناما وأوثانا وتماثيل من الحجر والخشب بأيديهم، ويتخذونها بعد ذلك آلهة لهم يعبدونها من دون الله. وكانوا يهابون ويخشون هذه الهياكل الصماء التي نحتوها هم من الحجر أو صنعوها من الخشب والطين بأيديهم، ويقدمون لها مظاهر التقديس والتعظيم طمعا في كسب رضاهم كما كانوا يعتقدون، ولوقايتهم من إصابتهم بالسوء والشر وينتظرون منها العون والمدد. والعجيب أنهم كانوا يصرون على مواقفهم الباطلة هذه، ويقلدون بدون بصيرة ما وجدوا عليها آباءهم ودون تفكير أو دراية، بل وينقلون هذه العقائد المنحرفة إلى الأجيال من بعدهم كميراث.

وقد أوحى الله سبحانه إلى سيدنا إبراهيم (ع) أنه خالق الكون وما فيها، ومبدع الأرض وما عليها والسماوات وما بينهما، وأن الناس على ضلال وظلمات وجهالة وانحراف. أما قومه فقد أرادوا منه أم يفكر مثلهم ويعيش كما كان يعيش أجدادهم من قبل. ولكنه أدار ظهره لهم والتفت بوجهه عن آلهتهم وكفر بأوثانهم وسفه آراءهم السقيمة، وآمن بالله الذي لا إله غيره.

وقد كشف الله أمام بصره وبصيرته آياته الباهرات في السماوات والأرض ليزيد من يقينه ويقوي فيه الإيمان:

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام:٧٥)



تظهر الحفريات في منطقة ما بين النهرين، العديد من الآثار واللوحات تظهر عبادة هذه الأقوام للأصنام أو الأجرام السماوية. وهذه الصورة تظهر ملك آشور (توكولتي – نينورتا–١٢٤٣– ١٢٠٧ ق.م) راكعا أمام إله النار (نوسكو) الذي ظهر على شكل عرش فارغ منه).

وكما قلنا، عاش سيدنا إبراهيم (ع) بين قومه الذين كانوا على الشرك وعبادة الأوثان، وكان آباؤه وأجداده أيضا على هذا الدين. وقد نشأ بينهم وأخذ من ثقافتهم وتعلم آراءهم. غير أنه أظهر من الأخلاق الحسنة والشيم العالية والسلوك القويم في حياته ما جعله يختلف عنهم ويعزف عن مسارهم. وأخيرا قطع ما بينه وبينهم من وشائج بإعلانه إيمانه بالله وحده دون شريك له. ولم يكتف بالإعلان عن إيمانه هذا، بل وصرح بكفره بأصنام قومه، وقام بدعوتهم إلى ترك عبادتها والتخلي عن دين آبائهم وسلوك طريق الواحد الأحد.

ولكن قومه لم يؤمنوا بالحقائق التي ذكرها لهم ودعاهم إليها، وكانت حجتهم أنهم وجدوا آباءهم وأجدادهم على هذا الدين الذي هم عليه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠)

من الأمور التي كانت تمنع قومه من ترك دينهم ودين آبائهم، هو الإصرار على السير في الطريق الذي وجدوا أكثر الناس ملتزمين به وتوارثوها من آبائهم وأجدادهم، رغم فساد العقيدة والانحراف الظاهر فيه. ويعتبرون من غير الصواب مناقشة أو محاكمة أي رأي جديد مناقض لآراء الأكثرية أو يريد تغيير ما هم عليه. هذا الموقف أو التصرف يحذرنا منه القرآن الكريم:

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام:١١٦)

أما سيدنا إبراهيم (ع) – مثله كمثل كافة الصالحين من المؤمنين– فقد كان بعيدا كل البعد عن مواقف المشركين والمنحرفين وآرائهم الزائفة. وقد التزم جانب الحق والصواب رغما عن أهله وعشيرته ووقف أمامهم بصلابة شديدة، لم تثنه المصاعب والضغوط الكثيرة التي تعرض لها من قومه.


وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ
بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ
عَهْدِي الظَّالِمِينَ
(البقرة ١٢٤)

الإنعام بالنبوة على سيدنا إبراهيم (ع)

إن المجتمعات والأقوام الذي أداموا وحافظوا على حضاراتهم ومدنياتهم لابد وأنهم تبلغوا برسالات السماء التي تدعو إلى معرفة الله وتوحيده وعبادته، والاعتراف بعظمته وعلو شأنه وقدرته وجبروته، والإيمان باليوم الآخر والحساب، وما يطلبه الرب من عباده من التزامات وواجبات ومهام. والقرآن أخبرنا عن هذه الحقيقة في الآية:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل:٣٦)

لقد اختار الله تعالى رسله وأنبياءه واجتباهم لما يتصفون به من خصائص ومميزات من دونهم من البشر. فهم فعلا مميزون عن محيطهم والناس من حولهم بقوة شخصياتهم وسمّو أخلاقهم آدابهم وتصرفاتهم التي تصلح بمجموعها أن تكون أمثلة للإقتداء. وكذلك فهم مختلفون عن أقوامهم المنحرفين عن جادة الحق والصواب، وميزهم نزول الوحي عليهم دون سائر الناس، ويقول فيهم القرآن الكريم:

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (النساء:١٦٣)

إن نزول وحي الله على الرسل والأنبياء وقيامهم بإبلاغ ما أوحي إليهم إلى الناس لطف ومنة من الله سبحانه. إذ بفضله توجه الناس إلى الهداية والإيمان وعرفوا معاني الأخلاق الحميدة وتعلموا العبادات وتفاصيل دين الله.

قال رسولنا الأكرم (ص):

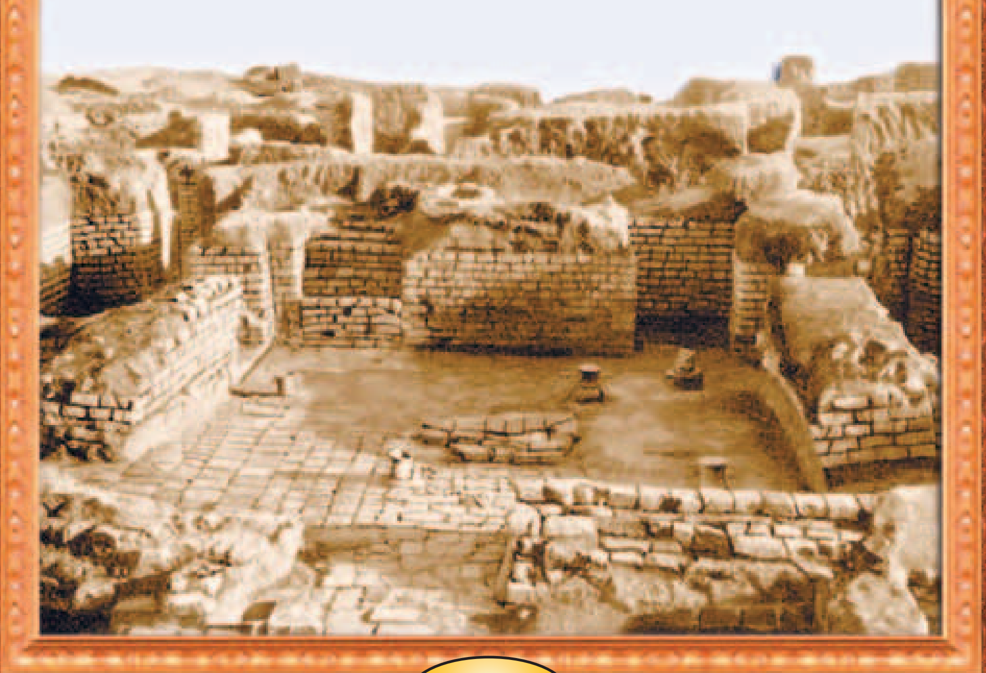
(إن لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليّ أبي وخليل ربي.) : ثم قرأ (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين أمنوا والله وليّ المؤمنين.)

ويخبرنا الله في القرآن عن تكليفه الرسل والأنبياء بإبلاغ الناس عن الصالحات من الأعمال:

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٣)

لقد عاش الأنبياء حياة مثالية وقاموا بتبليغ رسالات الله وأوامره ونواهيه بكل أمانة وكمال صورة. متوخين نيل رضا الله ورحمته والفوز بنعيم جناته.

إن النبوة مقام شريف رفيع المكانة يستحقها من عباده من كان تقيا ومختارا من عند الله تعالى. وكانت النبوة من نصيب سيدنا إبراهيم (ع) بعد اجتيازه امتحانا عسيرا وتجربة محددة. ويحدثنا القرآن عن هذا الاختبار في قوله تعالى:



بقايا لأبنية سكنية ظهرت إثر الحفريات خارج أسوار مدينة(أور) الأثرية —٢٠٠٠ ق.م– ويقول المؤرخون أن إبراهيم (ع) عاش في مثل هذه الدور السكنية الظاهرة هنا.



﴿ وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٢٤)

وكما هو موضح في الآية، فإن سيدنا إبراهيم (ع) قد اجتاز كل

هذه الاختبارات بنجاح وأثبت كونه عبدا مطيعا لربه وأمينا على الالتزام بأوامره ونواهيه. ولعل هذه من صميم واجبات كل مؤمن أيضا، إذ عليه الاستجابة بشكل كامل وبصورة مطلقة لله تعالى وأوامره. ولنا من سيدنا إبراهيم (ع) القدوة الحسنة في الإطاعة والتسليم الكامل لربه وبجميع مقدراته وأوامره دون أي تردد أو تماهل.

إن سيدنا إبراهيم (ع) من عباد الله الصالحين والمختار لحمل رسالته إلى الناس كافة منذ سنين شبابه الأولى (سورة الأنبياء ٦٠) لما امتاز به من أوصاف ومميزات خاصة على قومه المشركين وكلفه لتبليغ دين الحق إليهم والى الناس أجمعين. وتخبرنا الآية الكريمة عن تكليفه بالوحي والنبوة:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْله فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٥٤)

وتوضح الآية أيضا منحه " الكتاب والحكمة" لمن سيخلفه من صلبه من بعده.

وتخبرنا آيات أخرى عن نزول " الصحف" عليه:



﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (الأعلى:١٧-١٩)

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى ﴾ (النجم:٣٧-٣٩)

فقبل نزول التوراة على سيدنا موسى (ع)، أنزلت " الصحف" على سيدنا إبراهيم (ع) وفيها أسس وأحكام وقواعد دين " الحنيفية". وقد ورد عن سيدنا رسول الله (ص) في هذا الخصوص:

" عن أبي ذر (رض) قال دخلت على رسول الله (ص) وهو في المسجد، فأغتنمت خلوته فقال لي " يا أبا ذر إن للمسجد تحية" قلت وما تحيته؟ قال " ركعتان تركعهما". قلت يا رسول الله هل أنزل عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟. قال " يا أبا ذر، (قد أفلح من تزكى)... حتى بلغ (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى.). قلت يا رسول الله وما كانت صحف إبراهيم وموسى؟. قال " كانت عبرا كلها،: عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح! عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك! عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها! عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب. عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل!".) [١]



دين سيدنا إبراهيم (ع)

لقد اختلف الناس ودخلوا في جدال حول دين سيدنا إبراهيم (ع) فاليهود يدعون أنهم وحدهم أصحابه والسائرون على دينه والملتزمون بطريقه. والنصارى مع قبولهم رأي اليهود، إلا أنهم يعتبرونه تابعا لسيدنا المسيح (ع) الذي جاء بعده، ويختلفون في هذا مع اليهود.

=وخلاصة القول أن اليهود يعتبرون سيدنا إبراهيم " يهوديا" والنصارى " مسيحيا". والقرآن يقول كلمته في من يدعون بدون علم:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٠)

وفي آيات أخرى تسفيه لآراء اليهود والنصارى وجدالهم حول دين سيدنا إبراهيم:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(٦٥)هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:٦٥-٦٦)

إذن، فالقرآن هو الذي يقول لنا ويخبرنا عن القول الفصل الصحيح لأنه كتاب الله الوحيد الذي لم يدخله تزييف أو تحريف أو تبديل. وإذا ما أتبع الناس سبيلا أو حكما غير القرآن، فسوف يقعون في الأخطاء وينحرفون عن الصواب. والناس عادة لا يتورعون أو يتوانون عن إعطاء رأيهم أو التعبير عن أفكارهم عما ورد وبكثير من التوضيح والتفصيل بين آيات القرآن الكريم. أما المؤمنون فإنهم متمسكون بكلام الله وما ورد فيه، وما جاء في السنة النبوية فيما يخص موضوع سيدنا إبراهيم (ع) مثل غيره من المواضيع الأخرى، ويعتبرون الدخول في مناقشات وجدال فيما يخص الأنبياء (ع) من اختلافات لا طائل من ورائها لأنها ضرب من التخمين والدوران حول الشبهات، وهذا ما لا يرضى عنه الله. ومما لاشك فيه أننا نتعرف على الحقيقة المطلقة عن سيدنا إبراهيم (ع) من آيات الذكر الحكيم التي هي دلائل رحمة للناس، وإرشاد المؤمنين إلى الحق المبين.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران:٦٧)

والقرآن يقرر بشكل قاطع ودون شك أو تردد أو احتمال حقيقة دين إبراهيم (ع)، وهو (الحنيفية) التي تعني " التسليم لأوامر الله وحده والتمسك بدينه المبين دون غيره، والإخلاص له دون قيد أو شرط". وتأتي صفة " الحنيفية" لأن سيدنا إبراهيم (ع) قد وجد ربه واهتدى إليه آمن به دون شريك له.

في آية من القرآن يأمر الله نبيه محمد (ص) باتباع دين أبيه إبراهيم:-

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٣)

كما يريد الله من الناس أن يكونوا حنفاء لله وحده، لأن الوحدانية هي الفطرة الإنسانية المقبولة والملائمة للناس:-

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠)

وترد " الحنيفية" كتعريف بدين إبراهيم (ع)، وهي في حقيقتها تتطابق تماما مع الإسلام. وفي حقيقة الأمر، فإن جميع الأديان الحق هي الدعوة إلى معرفة الله والإيمان به وعبادته وإظهار الطاعة له وحده، ثم العمل لنيل رضاه وكسب نعيمه، هذا إذا لم يكن الانحراف قد دخله أو شابته الشوائب في أوقات وأزمنة لاحقة. هذا الدين الحنيف التزم به من بعد إبراهيم (ع) أبناؤه وأحفاده ومن جاء من أصلابهم، وحاولوا الاحتفاظ به. وهنا نجلب الانتباه إلى قول يوسف (ع) وهو في ظلمات السجون مع من معه، الذي يذكر أنه من صلب جده إبراهيم (ع) ولا يزال على دينه:

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ (يوسف:٣٨)

لقد احتفظ هؤلاء " الأحناف" بعقائدهم في التوحيد ونبذ الشرك بالله أينما كانوا وفي أي عصر عاشوا فيه، مقتربين كثيرا من عقيدة الإسلام. ومن المعروف أن الأنبياء جميعهم اشتركوا في تأدية الأمانة وإنجاز الواجب الأول والأهم لهم وهو نشر فكرة وعقيدة التوحيد ومحاربة الشرك والدعوة إلى نبذ الأخلاق الفاسدة، والتحلي بالفضائل والمكارم. وقد جاء تأكيد هذه الأسس والمبادئ في دعوة الرسول (ص) إلى الابتعاد عن كل مظهر من مظاهر الشرك

بالله في قوله ص: عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله (ص) أي الذنب أعظم؟ قال " أن تجعل لله ندا وهو خلقك." ٢

وفي آية يذكر القرآن أن دين الإسلام دين يسر مثل دين سيدنا إبراهيم:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨)

وكما يفهم من الآية فإن لفظة " المسلمون" أطلقت على أتباع سيدنا إبراهيم (ع) ومن هم على عقيدته في التوحيد ونبذ الشرك ومحاربته. وكما هو

" صورة لختم أسطواني مفخور من العصر التاسع أو الثامن قبل الميلاد، تظهر مراسيم عبادة " آلهة!" آشور. والآشوريون كانوا أقوى دول منطقة ما بين النهرين خلال الأعوام ١٩٠٠- ٦١٢ قبل الميلاد. وكانت لهم عقائد وثنية منحرفة وآلهة عديدون أكبرهم - آشور-).



معروف في اللغة فإن كلمة " المسلمون، الإسلام" مشتقة من مصدر " السلام" أي الدخول إلى الأمان والتسليم لله وحده. وهذا صلب ما يبتغيه ويهدف إليه الدين الإسلامي وهو التسليم لله رب العالمين كليا والشعور بالأمان والسكينة والاطمئنان الإيماني. ولعل في سيرة الأنبياء الكرام خير قدوة ودليل لنا في تسليم أنفسنا وأمورنا جميعها لرب العالمين، هؤلاء الرسل الكرام الذين أسلموا لله تعالى واستعاذوا به والتجئوا إليه وطلبوا منه وحده العون والمدد، مظهرين محبتهم له وسخروا حياتهم في سبيله. وهذا ما يدل عليه وصفهم في القرآن جميعهم بــ " المسلمين". وكما ورد في الآية، مخاطبا سيدنا نوح (ع):

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس:٧٢)

وفي السورة نفسها خاطب قوم موسى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾

(يونس: ٧٤)

وأيضا قوله تعالى على لسان سيدنا سليمان (ع) لقوم سبأ:

﴿ أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل: ٣١)

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨)

وفي سورة المائدة جاء الوحي الإلهي إلى الحواريين:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ
جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا
جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ
حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ
سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ
وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ
شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ
فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ
(الحج ٧٨)

وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة: ١١١)

هذه الآيات جميعها تظهر مجمل أخلاق المؤمنين الصالحين من التسليم لله تعالى، والتمسك بآداب الدين والإخلاص له، وشر فهم الله بإطلاق اسم " المسلمون" عليهم.

ولنا في دعاء سيدنا يوسف (ع) مثال جميل، الآية:

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (يوسف: ١٠)

وقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تذكر فضائل سيدنا إبراهيم (ع) وجميل خلقه وحسن تصرفاته وإيمانه العميق بربه وطاعته وقبول أوامره برحابة صدر واطمئنان. وهذه بعض منها:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٨)

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة: ١٣١)

إن على كل مسلم مؤمن أن يتخذ من أخلاق سيدنا إبراهيم (ع) وقوة إيمانه وتسليمه وتوكله على ربه،المثل الأعلى والقدوة الصالحة. وتأتي في مقدمة أخلاقه وشيمه العالية، الثبات والعزم والصبر والتمسك بالعقيدة – وأسلوبه (ع) في تبليغ رسالته، ومجمل تصرفاته في هذا الشأن.

لقد أكدت الآيات التي أوردناها إلى حقيقة كون سيدنا إبراهيم (ع) المثال والقدوة لجميع المؤمنين في كل زمان ومكان. مثله مثل بقية الأنبياء والمرسلين الذين آمنوا بالحنيفية واسلموا لله. وهذا يأخذنا إلى أساس ومصدر جميع الأديان التي تمتد إلى دين إبراهيم (ع). غير إن الأديان مثل المسيحية

واليهودية دخلتها العقائد الشاذة والآراء المنحرفة وزاغت عن مصدرها النقي بمرور الأزمان والأحداث، وابتعدت عما جاء في التنزيل الأول والوحي الإلهي الذي كان ولا يزال يستهدف نشر التوحيد والقضاء على الشرك بالله الذي يعتبر رأس السيئات كلها، والتوجه إلى الهدف والغاية العظمى من الحياة ألا وهي معرفة الله تعالى وإدخال محبته إلى القلوب والترابط معه والتقرب إليه.

إن الشعور بالحب والتعلق والانتساب إلى سيدنا إبراهيم (ع) لدى اليهود والنصارى هو ما يوحدهم مع المسلمين في هذا الهدف المحدد. والأديان السماوية الثلاثة تشترك في الاعتقاد والإيمان بالله والعبودية له كما أراده سيدنا إبراهيم (ع) من الناس أن يفعلوه تماما. لذا يمكننا اعتباره ودينه الحنيفية الأساس المشترك لنا نحن المسلمين مع أهل الكتاب. (مع الأخذ بالاعتبار دائما ما قاموا به من تأويل وتفسير وتحريف في دين إبراهيم (ع)). وفي آية يدعو القرآن المسلمين وأهل الكتاب إلى هذه الكلمة السواء المشتركة:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤)

قيام سيدنا إبراهيم (ع) بتبليغ دينه

لقد كلف كل نبي بمهمة الدعوة وتبليغ الرسالة وأوامر الله إلى الناس. فالأنبياء جميعهم أرسلوا لإرشاد الناس إلى معرفة الله وتوحيده ونشر المكارم والفضائل والعيش بموجب ما يأمر به الله ويطلبه من عباده. فقد أرسل نوح (ع) إلى قومه،وصالح إلى قوم ثمود، وشعيب إلى قوم مدين، كما أرسل موسى وعيسى إلى بني إسرائيل. غير أن هؤلاء قلما وجدوا الاستجابة، وواجهوا الصد والمقاومة من قومهم، حيث ضيقوا عليهم وفتحوا معهم أبواب الصراع والصدام، واتهموهم وافتروا عليهم وكذبوهم وهددوهم ولجأوا إلى أساليب خبيثة معهم. حتى وصل بهم الحال إلى معاملة هؤلاء الأطهار الشرفاء المبعوثين من لدن الله بكل قسوة وعنف إما بطردهم ونفيهم أو التهديد بقتلهم. ويذكر القرآن في سورة الأنفال كيف رد الله كيد الكافرين وتآمرهم على سيدنا رسول الله (ص):

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠)

وكما سبق وذكرنا في القسم الأول من هذا الكتاب كيف إن قوم إبراهيم (ع) كانوا يعبدون أوثانا وأصناما صنعوها بأيديهم من الحجارة أو الخشب وظلوا لها ساجدين عابدين، ينتظرون منها العون والمدد، وتمسكوا بهذه العقيدة المنحرفة الفاسدة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. ولكن سيدنا إبراهيم (ع) كان من الإيمان العميق بربه والتوكل التام عليه وحده مما أمكنه من الوقوف وحده أمام طغيانهم وعنادهم.

لقد كانت (الأكثرية) في أمم وشعوب مختلفة، تعني السيطرة والتحكم. وهذه الظاهرة برزت على مر التاريخ. وقد كانت عقيدة وأفكار (الأكثرية)

هذه تجبر الجميع على الالتزام بها، باعتبارها الأساس السليم الصحيح. ولهذا فإن الوقوف أمام الأكثرية في المجتمعات الجاهلية أمر في غاية الصعوبة. ويبقى الكثير من الناس في هذه المجتمعات تحت تأثير وضغط الأكثرية رغم احتمال اختلافهم معهم فيما يحملونها من عقائد وأفكار صائبة وصحيحة، وينصاعون – رغما عنهم – لقبول عقائد وآراء الأكثرية المنحرفة. غير أن الأنبياء ومن اتبعوهم وآمنوا بهم من صالح المؤمنين ليسوا كهؤلاء.

لقد واجهوا بعزم وقوة وثبات الأكثرية الجائرة ووقفوا أمامهم وأظهروا من المقاومة والكفاح وبذل الجهود وتحمل المشاق والمصاعب والشجاعة والإصرار على نشر أوامر الله نواهيه والتمسك بدينه بإخلاص وتفان. كل هذا بسبب إيمانهم بربهم والخشية منه وحده، والاعتماد عليه والاطمئنان إلى نصره لهم.

لقد واجه سيدنا إبراهيم (ع) قومه المشركون لوحده.

كانت شعوب منطقة ما بين النهرين يعبدون الشمس أو القمر. وكان حاكم أكد الملك نارام–سين يعتقد بربوبية القمر وينتظر منه الدعم والإسناد له. وفي الصورة نارام–سين وهو يؤدي مراسيم عبادة دينه المنحرف، على نقش في مسلة حجرية تمثل ملحمة إحدى انتصاراته."

وقد أثنى عليه الله تعالى في الآية : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(النحل: ١٢٠)

حينما تحدى قومه وعلى رأسهم أباه أيضا. وكان ينصحه بترك عبادة الأوثان وأن الإله الحقيقي الذي يستحق العبادة والعبودية له هو الله تعالى رب السماوات والأرض وخالق الأكوان، وليس هذه الأصنام التي كان ينحتها بيديه من أشياء جامدة كالحجر والخشب... وبهذه الطريقة السهلة والأسلوب اللطيف والدعوة الهادئة والصبر، قام سيدنا إبراهيم (ع) بدعوة قومه كذلك لأتباع دينه وعبادة الله وحده وترك الوثنية والشرك والجهالة، وواجه العداء والبغضاء بالحب واللين وجادلهم بالتي هي أحسن معتمدا في كل ذلك على إيمانه العميق وتوكله الكامل على الله سبحانه. إلى جانب ما كان يمتاز بها من الشجاعة والقوة والثبات بفضل هذا الإيمان العميق. وهذه الآية تظهر الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٠-٨١)

تتجلى في أسلوب وطريقة الدعوة التي أتبعها سيدنا إبراهيم (ع) مع قومه لمحات جميلة تدل على عمق الإيمان. فقد كان يخاطبهم بكلام في منتهى الحكمة والمنطق السليم، حبذا لو استفاد المسلمون منه في أيامهم هذه في تبليغ دعوة الإسلام ورسالته إلى أمتهم.

في الفصول القادمة سوف نبحث بشيء من التفصيل ذكر بعض هذه المواقف التي تجلت فيها الحكمة والرؤية والمنطق العقلاني في تبليغ الدعوة.


(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ
يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ
(المائدة ٦٧)

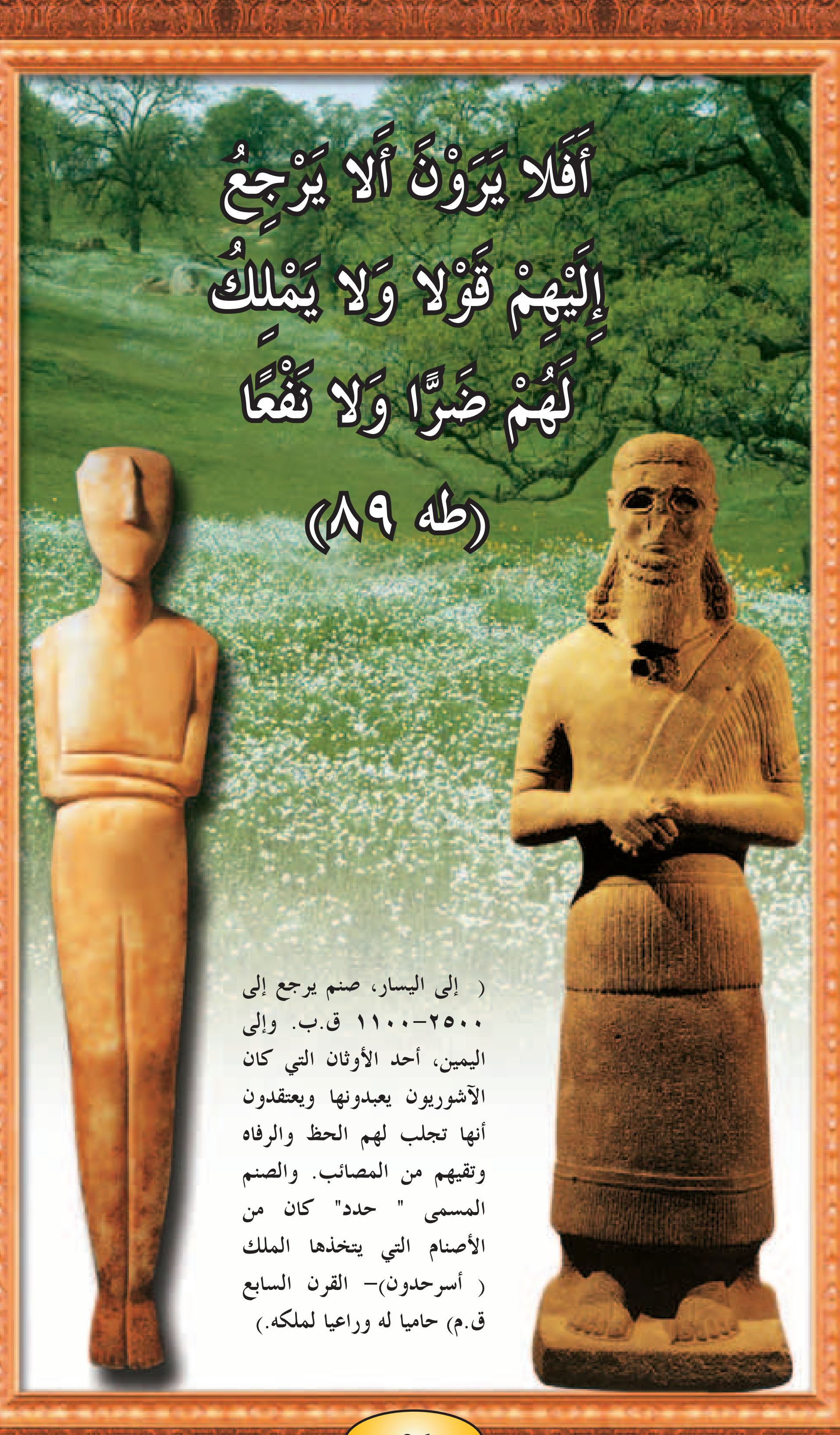
دعوة سيدنا إبراهيم لأبيه

إن دعوة الناس لمعرفة الله وتوحيده وعبادته من أولى مهام وواجبات المسلمين. وهذه، بحد ذاتها تعتبر عبادة تسمى بالتعبير الديني بـــ " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وأساس هذا العمل الصالح هو " الترهيب والتحذير" الذي يوضح لكافة الناس بأنهم مسؤولون ومحاسبون أمام الله الذي خلق كل شيء من العدم، وسوف يسألون يوم الحساب عما اقترفته أيديهم في حياتهم الدنيا، إلى جانب أمور أخرى من أوامر الله ونواهيه إليهم من الواجب تبليغها إليهم.

لا شك أن من يقوم بمهام تبليغ ودعوة الناس وتخويفهم وإنذارهم حسبما ورد في آيات القرآن، هم المسلمون المخلصون لدينهم والمتمسكون بقوة ثبات بإيمانهم، وتملأ الخشية من الله قلوبهم. والله سبحانه أعطى هؤلاء بصيرة ثاقبة تفرق بين الصالح والطالح، مع الحكمة والعقل السليم. إن أسلوب التبليغ والدعوة يجب أن يستند إلى التصرف بحكمة ومخاطبة العقول حسب إدراكها ومستويات نضوجها وفهمها، مع الأخذ بالاعتبار شخصية ومستوى المخاطب وحالته النفسية وأوضاعه العامة، واستعمال أسلوب لطيف وأقوال مناسبة وملائمة للمقام والمقال، واستدراك ردة الفعل من المقابل وإيجاد البدائل للتصرف. وهكذا يظهر أن الاهتمام الكبير الذي يجب أن يوجه إلى فرد واحد تقابله جهود مضنية ومهام ثقيلة سواء في توجيه الخطاب لهذا الفرد أو إلى المجموعات البشرية والكتل الكبيرة لا سيما إذا كان هؤلاء بعيدين عن إدراك معاني الدين، وتربوا ونشأوا على أولياء أمور " ما أنذر آباؤهم من قبل"، أو الذين انتشرت بينهم الخرافات والعقائد السقيمة والأخلاق المنحرفة والجاهلية الدينية. ولهذا نرى القرآن ينبه في الدعوة والتبليغ إلى اتباع أسلوب " الحكمة والموعظة الحسنة" وجاء في الآية :

﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا
نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

(البقرة ٢٤-٢٣)



أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا

(طه ٨٩)

(إلى اليسار، صنم يرجع إلى ٢٥٠٠-١١٠٠ ق.ب. وإلى اليمين، أحد الأوثان التي كان الآشوريون يعبدونها ويعتقدون أنها تجلب لهم الحظ والرفاه وتقيهم من المصائب. والصنم المسمى " حدد" كان من الأصنام التي يتخذها الملك (أسرحدون)- القرن السابع ق.م) حاميا له وراعيا لملكه.)

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(النحل:١٢٥)

إن جميع المسلمين مكلفون بدعوة الناس إلى معرفة الله بحق وصدق، وتوحيده بدون شريك، والتزام الأخلاق الفاضلة التي جاءت في القرآن الكريم. وقد عرف القرآن أيضا أساليب هذا التبليغ، وأن يكون أولا إلى الأهل والأقربين كبداية وهم أولى الناس بالدعوة إلى الإيمان والاعتقاد بالله تعالى وبالحشر والحساب في اليوم الآخر، وكما ورد في الآية:

﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٣-٢١٤)

وخير مثال لهذا التصرف ما قام به سيدنا إبراهيم (ع) من دعوة أبيه أولا، فقد حاول إفهامه أن العبودية يجب أن تكون لله وحده وليس للأوثان الصماء التي عملتها أيدي الناس، واتبع أسلوبا حكيما وطريقة جميلة. ويذكر لنا القرآن دعوته لأبيه" آزر" في الآيات :

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (مريم:٤٢-٤٣)

وندرك في أسلوب تبليغ سيدنا إبراهيم (ع) لأبيه دروسا مهمة. منها أن الشخص المراد مخاطبته ودعوته إلى الإيمان يجب أن يعامل بكل لين ولطف، واتباع أسلوب سهل وواضح معه، ثم الصبر على ردود أفعاله مهما كان ذلك الإنسان يتمتع بالقوة أو لسلطة أو الغرور.

يلاحظ التشابه الكبير بين أسلوب دعوة سيدنا إبراهيم (ع) وما قام به سيدنا موسى (ع) من دعوة فرعون إلى الإيمان. وقد خاطب الله تعالى موسى (ع) بـــ " فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤) (طه) . وهذا ما قام

به فعلا إذ وجه خطابه بكل رفق ولطف.

ذكر لنا القرآن حادثة دعوة سيدنا إبراهيم (ع) لأبيه وما دار بينهما من حوار في الآيات:

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيًّا يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (مريم: ٤٤-٤٨)

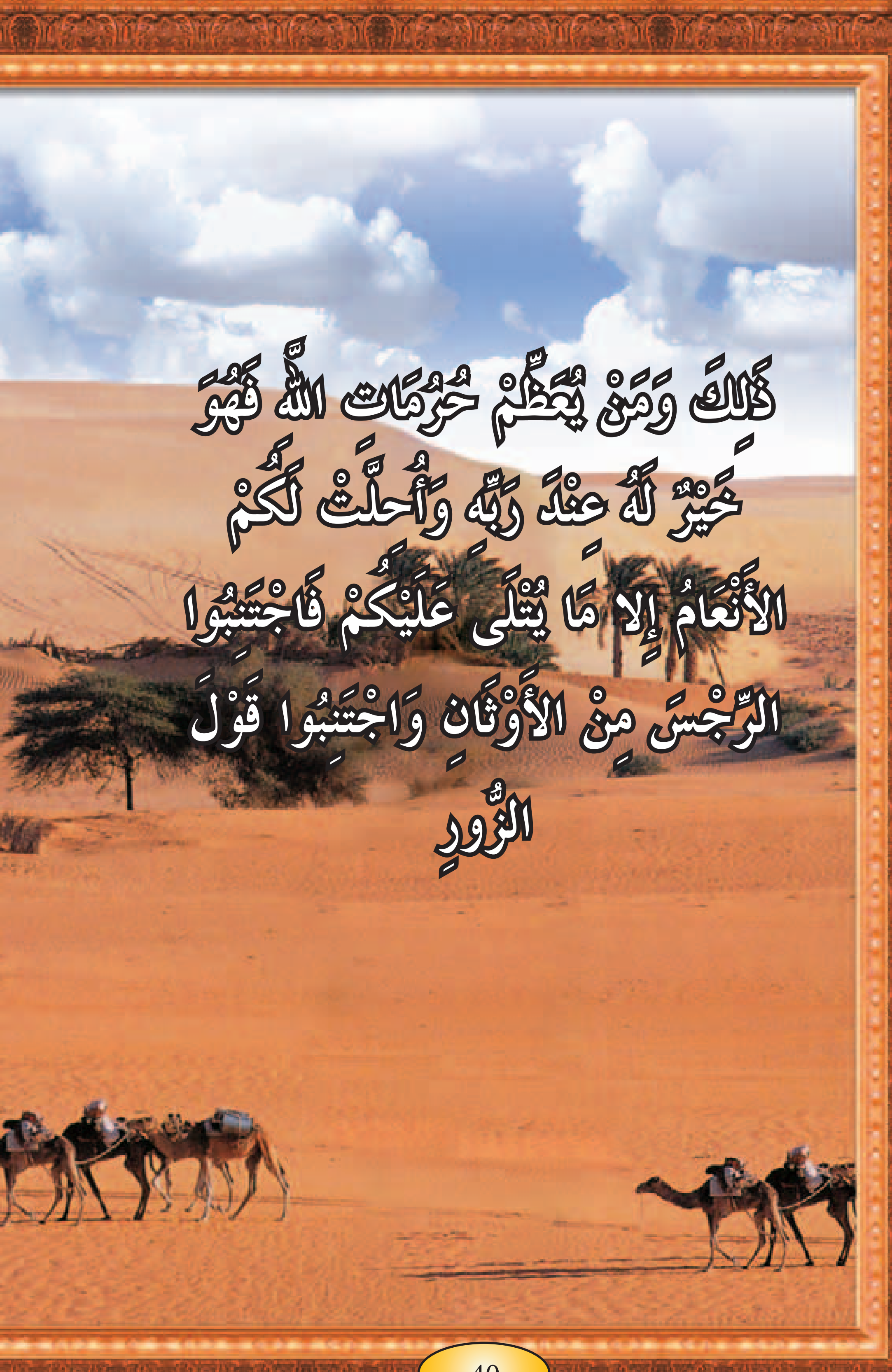
في هذه الآيات وما دار بين سيدنا إبراهيم (ع) وأبيه، حكم عديدة، تظهر أولا مدى حكمته وشدة ترابطه مع الله وتوكله عليه. فقد دعا أبيه إلى عبادة الله وحده، رغم وجود خطورة التعرض إلى الموت، وفقده حب والده وأهله وكافة الامتيازات والمنافع التي يتوقعها منه. كما واجه التهديد بطرده وإبعاده بكل جلد وصبر وتوكل. فقد كان واثقا من أن ربه سيرشده إلى الطريق القويم، ويعينه ويرشده إلى الصواب دائما. وهذا ما كان يبعث في نفسه الهدوء والصبر والاطمئنان. ولنا خير الأمثلة وأحسنها من تصرفاته ولجوئه إلى ربه أمام الجور والظلم الذي أصابه من حرمانه من حقوقه، وانصياعه إلى أوامر ربه والدعاء والتضرع إليه وثقته من استجابة ربه له، وفي حسن التوكل وإظهار الثبات والإخلاص الكامل لربه. إضافة إلى ما أظهره تجاه أبيه من ردود أفعال غير متشنجة أو متوترة، وإنما تلقى كل ما لقيه منه وأصابه بصدر رحب وصبر وتحمل. وظل يخاطبه بكلمة " أبي" رغم كل ما حصل منه تجاهه.

لقد توجه إلى أبيه بكل احترام وحسن نية وخاطبه بأسلوب لين كله شفقة ورحمة داعيا إياه إلى الإيمان. ولكنه عندما شاهد صد والده وإصراره على الكفر، فارقه ملتجئا إلى ربه. وفي مثل هذا التصرف بيان واضح لكل المؤمنين

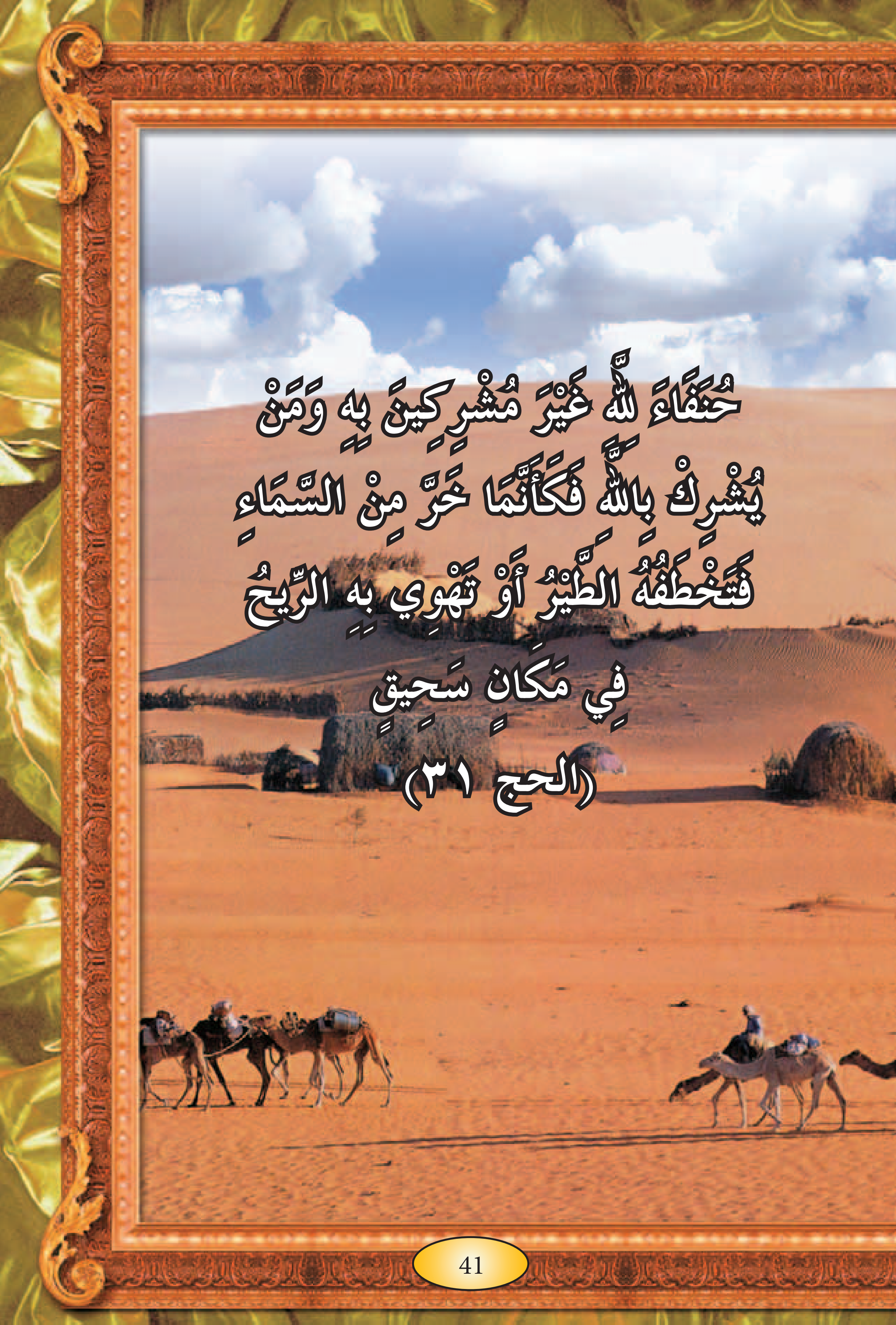
أن الغاية هي نيل رضا الله وكسب محبته، تنفيذا للقاعدة الدينية التي تقول " الحب في الله والبغض في الله" في التعامل مع الناس. ويوضح القرآن هذا المطلب الإلهي من المؤمنين في قوله:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة:١١٣-١١٤)

يلاحظ في العلاقة بين سيدنا إبراهيم (ع) وأبيه آزر شدة تمسك أبيه بعقيدة الشرك وإصراره عليها حتى وصل به الحال إلى قيامه بتهديد ابنه بالموت، رغم أنه أنشأه ورباه لسنين عديدة باعتباره قطعة من لحمه ودمه، ورغم ما كان يقابله سيدنا إبراهيم (ع) من احترام وتقدير. هذه المعاملة القاسية من أبيه كانت بسبب قيامه بإنكار آلهته وتسفيه دينه ودعوته له إلى نبذ الشرك، والإيمان بالله الواحد الأحد. وهنا تظهر صفات الظلم والقسوة والترهيب التي وصلت إلى درجة تهديده بالرجم. وهي من صفات الكفار وشيم



ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ
خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ
الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا
الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ


حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ
يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ
فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ
فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
(الحج ٣١)

سيدنا إبراهيم (ع) ينصح أحد المشركين

ورد في القرآن ذكرا لما واجهه سيدنا إبراهيم (ع) من وقائع وأحداث في أثناء قيامه بواجب الدعوة إلى الإيمان وتبليغ الرسالة الإلهية. ومن ضمن هؤلاء الحكام والطغاة والجبابرة. وتورد المصادر التاريخية أحد هؤلاء المنكرين والمسمى بـ " نمرود" الذي دخل معه سيدنا إبراهيم (ع) في نقاش وجدال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨)

هذا الإنسان الذي طغى وتجبر معتمدا على وفرة ماله وقوة سلطانه، وصل به الأمر عند مناقشته مع سيدنا إبراهيم (ع) أن ادعى قدرته على الخلق ومنح الحياة، مفتريا على الله سبحانه " معاذ الله". إن أمواله الطائلة وسلطانه وقدرته المستندة إلى ملكه دفعته إلى الغرور والتصرف بالعنجهية وأوصلته إلى إدعاء الالوهية والكفر برب العالمين. ناسيا قدرة الله على جميع ما في الكون من مخلوقات.

" نمرود" هذا الإنسان الجاحد والمنكر لله تعالى دخل في نقاش وحوار مع نبي الله إبراهيم (ع) حينما دعاه إلى الإيمان بالله وحده وعبادته وخضوعه له، مدعيا قدرته على منح الحياة، وحينذاك كان رد سيدنا إبراهيم (ع) وجوابه المفحم المستند إلى قوة المنطق والحكمة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨)

إن الأنبياء الكرام كثيرا ما واجهوا مثل هذه المواقف بمثل هذه القوة والبصيرة والمنطق السليم. وكان لعمق إيمانهم بالله أثره في إيصال أقوالهم إلى القلوب، وتزييف مواقف خصومهم من أهل الأفكار والعقائد المنحرفة. أن


وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
(النحل ١٢)


﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا
تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ
الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ
(آل عمران ١٨٥)

الأفكار الضالة والآراء الفاسدة لأهل الكفر لا يمكنها أن تقف أو تصمد أمام وضوح الحق وقوته. لأن عقائدهم الباطلة تلك، تبقى عاجزة أمام دعوة المؤمنين للإيمان بالخالق المبدع، وإن استندت إلى ما لهم من قوة المال والجاه والسلطان والحكم. لهذا فهم الخاسرون دوما، ويعبر القرآن عن موقفهم هذا ووضعهم البائس بقوله عنهم " فبهت الذي كفر..." ولن يجدوا إلى الجواب سبيلا ولا إلى الخروج من مأزقهم وسيلة.

ومما يلفت الانتباه في جواب سيدنا إبراهيم (ع)، البساطة والوضوح والسلاسة الطبيعية الصادرة من دواخل النفس والقلب. فمثل هذا الأسلوب يكون تأثيره على قلوب وأذهان وأرواح المخاطبين مباشرا وقويا دائما. ذلك لأن وجود الخالق المبدع واضح لا لبس فيه مما يكسب منطق المؤمن وحجته القوة والتأثير المباشر. ورغم هذا المنطق القوي يبقى بعض الناس عبيدا للشيطان ويظلون في عنادهم وكبريائهم. إن هؤلاء الذين هم على بعد من الدين، يعتبرون ما هم عليه من مال وجمال أو سلطان من صنع أيديهم، وهذا ما يدفعهم إلى الغرور والبقاء تحت سيطرة أهواء النفس، ويعطون لأنفسهم ما لا يستحقونها من حقوق، ناسين عظمة الله تعالى. ويدفعهم الشيطان إلى الغرور أكثر فأكثر مظهرا لهم زينة أموالهم وزخرف سلطانهم، مانعا إياهم من قبول العبودية والخضوع لله تعالى.

يواجه المؤمن في أثناء قيامه بالدعوة والتبليغ، الكثير من الناس، والعديد من هؤلاء لا يدركون عظمة الله لشعور الكبر في داخل أنفسهم. وعند هذا الموقف يتبادر إلى الأذهان اللجوء إلى الأسلوب الذي اتبعه سيدنا إبراهيم (ع) في إظهار عجزهم، وبالمقابل إظهار قدرة الله وعظمته وسعة ملكه. وهكذا يدرك الكافر أن لا قيمة لأمواله أو سلطانه اللا متناهي. كما وينتبه إلى محدودية قدرته وإرادته، وأن كل شيء ينتهي بموته ويتلاشى سلطانه. وحينذاك يدرك بإحساسه ووجدانه أن الله تعالى هو الحق المطلق وصاحب القوة والقدرة وحده.

ويظهر الأسلوب الذي اتبعه سيدنا إبراهيم (ع) في أثناء نقاشه مع الطاغية الكافر، مدى أهمية الاستناد إلى الأمور العقلانية والتصرف الهادئ والرزين والمنطق الحكيم. على المؤمن المسلم عدم الدخول في مناقشات وجدال عقيم لا يأتي بنتيجة وليس من ورائه طائل، بل على العكس، عليه الوقوف أولا على الحالة الذهنية والنفسية للمخاطب وتحليل منطقه وأسلوبه في سبيل إزالة غشاوة



وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا
عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ
(المائدة ٩٢).



الأفكار الباطلة من ذهنه، وتقديم أدلة منطقية ومؤثرة عقليا تدعم موقفه وتؤدي إلى حصول قناعة بوجوب واجب الوجود تعالى. إن من يستطيع أن يقوم بهذا الواجب وبهذا الأسلوب الحكيم لا بد له من أن يتمتع بإيمان عميق وعلم ومعرفة واسعة بالقرآن وأحكامه، ويكون على درجة كبيرة من التقوى والخشية من الله تعالى، ذلك لأن الحكمة نعمة وفضل من الله تعالى، ومن يرد إدراكه عليه أن يطلبه من الله تعالى بالدعاء والتضرع لكي يهبه من فضله.

﴿ في الآية يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَا أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ٢٦٩)

يكشف القرآن لنا سرا من أسراره ويخبرنا عن سبب من أسباب بلوغ النجاح.

قيام سيدنا إبراهيم (ع) بتبليغ الدعوة إلى قومه

كيف يجب أن يقوم المؤمن بتبليغ ودعوة من انغمس في الكفر و سدر في الغفلة؟ وكيف يستطيع إدخاله إلى حظيرة الإيمان؟. يشير القرآن إلى وجوب التزام وسائل صحيحة وأساليب حكيمة مخطط لها مسبقا. لا يوجد هناك أسلوب واحد محدد. وإنما يختلف بحسب ظروف الشخص المقابل ومستواه وثقافته وما يحمله من آراء وأفكار وما هو عليه من أوضاع. ويضرب لنا القرآن أمثلة. منها أسلوب دعوة سيدنا نوح (ع)، فتارة " دعوتهم جهارا"، وأحيانا " أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا" وبذلك اتخذ وسائل مختلفة وأساليب عدة في دعوة الناس(ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا(٩) (نوح).

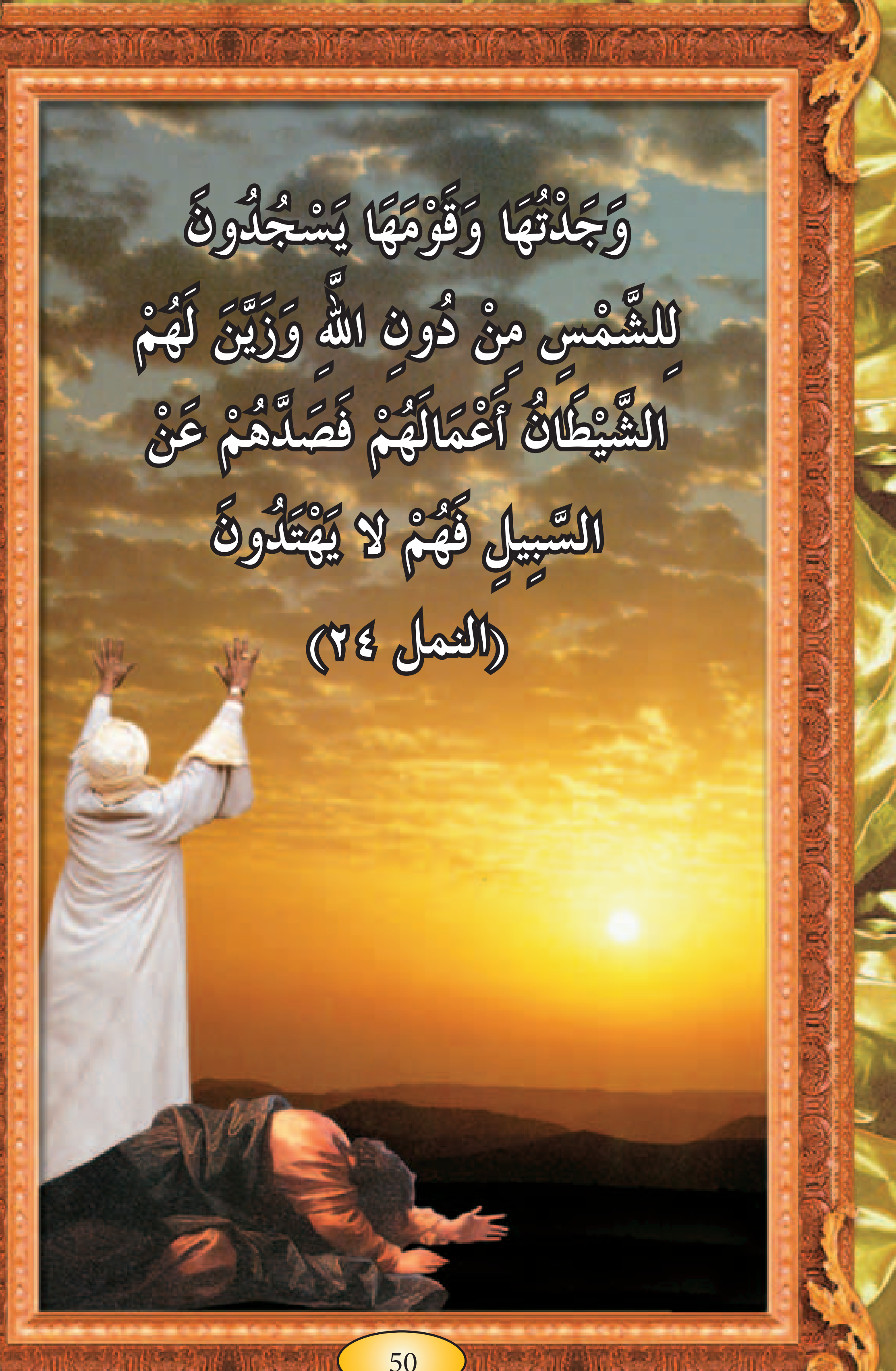
في دعوة سيدنا إبراهيم (ع) أمثلة أخرى. ولكن أكثرها تأثيرا إيقاظ ضمائر وأحاسيس الناس ومخاطبة أفكارهم وتحريكها باتجاه الإيمان بالله. وقد وجه إليهم أسئلة دفعتهم إلى التفكير وتحريك الأذهان، ثم إدراك ما هم عليه من انحراف وضلال. وقد أظهر لهم مدى تفاهة ما يعبدونه مما صنعتها أيديهم من حجارة أو خشب، وبذلك قوض عقائدهم الوثنية التي توارثوها عبر أجيال من قبلهم، وفتح بصائرهم على الإيمان بالواحد الأحد. ويذكر القرآن جانبا من تبليغ الدعوة:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:٧٦-٧٩)

إن ما ورد من وصف وذكر للنجوم والشمس والقمر ليس من معتقدات سيدنا إبراهيم (ع). وإنما يظهر لنا وكأنه أسلوب في كيفية مخاطبة قومه والتوجه إليهم (والله أعلم ...)، لأنه كان على علم ودراية في أمور ظهور النجوم والقمر ليلا في السماء واختفائها عند بزوغ الشمس نهارا، ثم زوال الشمس بدورها عند المغيب. ولكنه قام بإتباع هذا الأسلوب من الإفهام غير المباشر لأن قومه كانوا في لجة من الشرك وظلمة الأفكار، ومحرومون من تحكيم العقل والمنطق.

وكما سبق وأكدنا عليه في الجزء الأول من هذا الكتاب فقد كانت الأقوام الوثنية التي تعبد ما تصنعه من أصنام، تعتقد وتؤمن بقدسية الأجرام السماوية من النجوم والشمس والقمر، وتؤلهها وتعبدها من دون الله. وهذا ما دفع سيدنا إبراهيم (ع) إلى أن يخاطبهم بما يؤدي إلى تسفيه أفكارهم وتقويض عقائدهم من الأساس، وبذلك تزول القدسية والمهابة التي اكتسبتها




وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ
(النمل ٢٤)

هذه الأجرام السماوية. فلجأ إلى أسلوب طرح الأسئلة وثم الإجابة عليها وصولا إلى إفهام المشركين أن الموجد والخالق الحقيقي هو الله.

وفي قوله " إني لا أحب الآفلين ..." خطاب مهم موجه إلى قومه. وهكذا وصل إلى هدف تلقينهم بأن من يحمل صفة " الإله" لا يفنى ولا يختفي أو يموت. وكما هو معلوم فإن صفة (البقاء) و(القيام) هما من أوصاف الله تعالى.

ثم التفت إلى القمر الذي كان يبدو في الليالي بحجم أكبر من النجوم، وأثبت لهم عدم إمكانية اعتباره إلها لأفوله واختفائه، مستندا إلى أدلة عقلية ومنطقية. واتخذ نفس الأسلوب مع أكبر الموجودات المادية الظاهرة للإنسان ألا وهي الشمس، وسفه أحلامهم بشأنها أيضا. وأنزل بذلك ضربة قاضية بالفكر الوثني المستند إلى تعدد الآلهة والشرك في العبادة.

ثم قالها أخيرا... " وما أنا من المشركين..."، موجها وجهه إلى خالق كل شيء، مؤمنا برب الخلائق كلها ومعلنا صراحة وعلى مشهد من الملأ إيمانه بالله الواحد الأحد. ومن تسلسل الأحداث تظهر لنا حقيقة سيدنا إبراهيم (ع) أنه كان واقفا وعالما بالفكر الوثني. وهكذا لجأ في حواره وتبليغه برسالته التوحيدية إلى ضرب الأمثال والإتيان بمقارنات منطقية وآراء عقلية أثبت بموجبها فساد وبطلان منطقهم وأظهر الانحراف والاعوجاج في عقائدهم. وتبين لنا الآيات مدى القلق والهياج الحاصل لدى قومه، ودخولهم في معارك جدلية ونقاش مستمر معه.

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٠)

كان سيدنا إبراهيم (ع) موجها بإلهام من ربه حينما كان يناقش قومه ويبلغهم رسالته. وهذه الحقيقة تدرك من الأسلوب الذي اتبعه والأمثلة والمحاكمات المنطقية التي أوردها واعتمدها في خطابه إليهم. يقول تعالى في هذا

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (**الأنعام:٨٣**)

ومن هذه الآية يتبين لنا أن ربه ألهمه ما كان يقوله أو يعتمده من وسائل.

هذه الأساليب التي لجأ إليها سيدنا إبراهيم (ع) تعتبر أمثلة ونماذج أمام المسلمين أيضا للأخذ منها والإقتداء بها. إذ على المؤمنين أيضا أن يفندوا أفكار الملحدين وأدلتهم الفاسدة واحدا بعد الآخر. ويتخذوا من الوسائل والأدلة العلمية والمنطقية سبيلا لهم. ثم يبدءوا بدعوتهم إلى الإيمان بالله وقبول عبوديتهم له وحده. فإذا لم يستطيعوا أن يقوضوا الآراء المنحرفة أولا، فسوف يجدون من الصعوبة إقناع المخاطب بقبول الإيمان بشكل صحيح وصريح وقبولهم بالإسلام دينا ومنهاجا. فتحطيم الأوثان بجميع أشكالها وتفنيد الآراء والفلسفات المنحرفة لدى المشركين والتخلي عن جملة من الاعتبارات المادية الصرفة، شرط مسبق لتقبل الإيمان الصحيح.

ويظهر جليا من قراءة حياة سيدنا إبراهيم (ع) وبالخاصة ما قام به من الدعوة وتبليغ رسالة السماء، إيمانه العميق بربه ومحبته الصادقة وتنفيذه المطلق لأوامره وبكل دقة وحساسية متناهية. وفي كيفية أداء رسالته وإيصالها إلى أبيه وإلى قومه، تظهر حقيقة كونه إنسانا مختارا من ربه ومتميزا عن سواه ومفضلا عنده. والآيات تكشف لنا ذلك:-

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ ﴾ (الشعراء: ٦٩-٧٦)

لقد لجأ سيدنا إبراهيم (ع) – وكما يظهر من الآيات – إلى ضرب الأمثال والاستشهاد بها واعتماد وسائل معينة لإثبات بطلان فكرة الوثنية وعبادة الأصنام واتخاذها آلهة.

غير إن الجواب الوحيد لقومه تجاه كل هذا المنطق والمحاكمة العقلانية كان ترداد " هكذا وجدنا آباءنا ". وكما سبق وذكرنا هذا القول وهذا المنطق

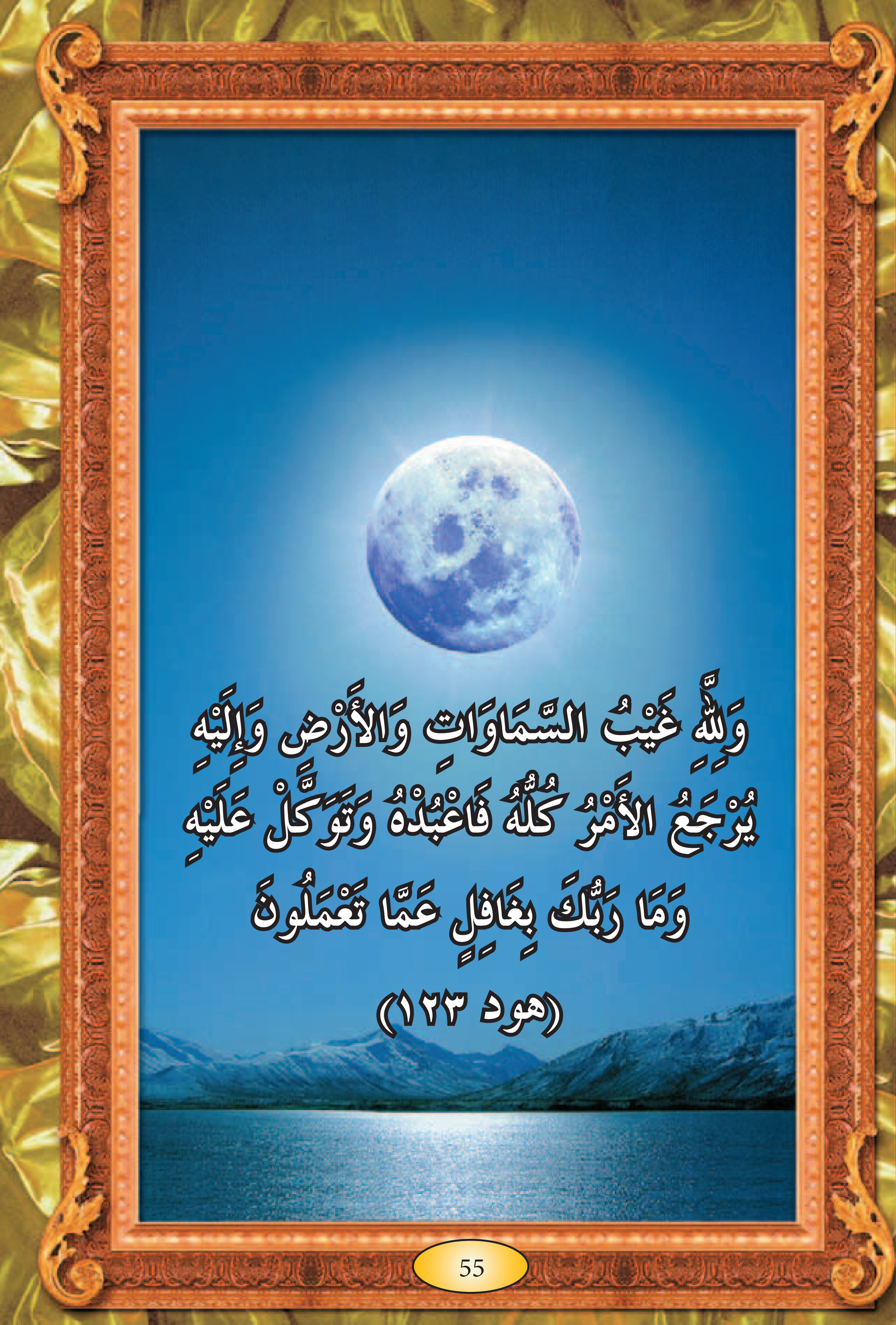


(في هذا النصب الحجري، يشاهد حمورابي وهو يقدم طاعته وعبوديته بموجب عقيدته الوثنية المنحرفة إلى إله الشمس في الديانة البابلية والمسمى " شمش").

كثيرا ما استخدم من قبل الأقوام والمجتمعات القديمة في العصور الجاهلية. وهي عبارة مألوفة ومطروقة كثيرا في محاولة لإعطاء الشرعية لمعتقداتهم الخاطئة. غير أنه لا مكان لمثل هذه الآراء ة والاعتبارات في الدين الحق. ومن سياق هذه الآيات ظهر لنا سيدنا إبراهيم (ع) وهو يدعو قومه إلى الإيمان ومعرفة خالق الكون والاعتراف بربوبيته وحده:-

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْديني وَالَّذي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقيني وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفيني وَالَّذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيين وَالَّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطِيئَتي يَوْمَ الدِّين ﴾ (الشعراء: ٧٧-٨٢)

وهكذا يتبين لنا أن قوم إبراهيم (ع) كانوا مصرين على عبادة الأوثان، وثابتون بعناد على دين آبائهم. وكان سيدنا إبراهيم (ع) يعدد لهم صفات الله العظمى وأسمائه الحسنى، ويؤكد لهم أنه الخالق المبدع والبارئ المصور لكل ما في الكون من أشياء، حية أم جامدة، وأن نعمه وأفضاله لا تعد ولا تحصى وسخر لنا كل جميل وحسن في الحياة، وإن تحت حكمه وقدرته وسلطانه كل ما في الوجود، وهو الذي وهب لنا الحياة وأتاح لنا العيش على هذه الأرض التي سخرها ومهدها لنا لننعم من خيراتها، وإن حصول أي شئ ووقوع أي حدث يكون بعلمه وإرادته، فهو الذي أراد وقدر لنا أن نمشي ونأكل ونتكلم، وجميع حركاتنا الإرادية واللاإرادية تتم بعلمه وإرادته. وكان يقول لهم – كما ذكر ذلك القرآن – أن الله هو الذي يشفي الإنسان إذا مرض ويتفضل عليه بالعافية والشفاء، وبدون إذن منه لا يقدر طبيب أو دواء على عمل أي شيء. كما وأنه سبحانه وهب الحياة للإنسان، فإذا جاء أجله فإنه يسلب منه حياته، وأن عنده العلم بالأعمار، وكم سيطول العمر بالإنسان، بالسنين والأشهر والأيام


وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ
وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
(هود ١٢٣)

بل بالساعات والدقائق والثواني، وهو الذي قدر كل هذا حتى قبل أن نخلق ونولد. ومكتوب في صحائف أقدار كل حيّ تفاصيل دقيقة عن جميع أمور حياته، وجميع حركاته وأفعاله وأقواله، ولا يقدر على اتخاذ أي قرار أو فعل أي عمل خارج ما قدره له الله وكتبها في كتاب قدره.

لقد خلق الله الإنسان ووهب له حياته في الدنيا من أجل امتحانه واختباره. وأرسل الرسل والأنبياء لإرشاده وتعريفه بالحق وطريق الهداية وأنزل آياته البينات لإخراجه من الظلمات إلى النور. وسوف يحاسبه يوم القيامة على جميع أعماله وتصرفاته. أما من آمن منهم واهتدى وخاف مقام ربه وخشيه بالغيب والتزم أوامره ونواهيه بدقة وكمال وجه، وسخر حياته لنيل رضاه، وعمل الصالحات ليكسب رحمته، فسوف يلقى من ربه جزاءه بالحسنى ويجزي بأحسن ما عمل، لأن ربه رفيق بعباده شفوق عليهم، ورحمته تسعهم وعفوه، يغفر سيئات الذي آمنوا به ويعفو عن خطاياهم يوم الحساب. وقد وعدهم بالنعيم المقيم في جناته الواسعة – خالدين فيها أبد الآبدين.

ولا بد لنا هنا من ذكر موضوع نعتقد أنه يكتسب أهمية. ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يهدي الناس الذين يدعوهم إلى الإيمان ويقوم بتبليغهم بحقائق الدين. فالإيمان قسمة وفضل من الله تعالى. وهكذا نرى أن قوم إبراهيم (ع) بقوا على الضلالة وأصروا على الكفر وعصوا أمر الله تعالى ولم يتبعوا صوت العقل ولا التفتوا إلى ما يمليه عليهم ضمائرهم رغم ما قام به سيدنا إبراهيم (ع)من بذل المحاولات وصرف الجهود المضنية في سبيل هدايتهم وإدخالهم إلى حضيرة الإيمان. ولم يكتفوا بالإصرار على الكفر وإنما وصل بهم الحال إلى تهديده بالنفي وبالرجم وبالقتل، بل وقرروا حرقه برميه في النار كما سوف نرى تفاصيل ذلك لاحقا. لذا، يجب ألاّ ننسى حقيقة ثابتة، وهي أن على

الإنسان المؤمن أن يقوم بدعوة من حوله من الناس إلى الهداية والالتزام بتعاليم الدين بكل إخلاص وجدية. ولكن إذا ما شاهد عدم الاستجابة منهم فلا بأس عليه، ويجب أن لا يحزن ويقنط.

يقول الله سبحانه في آية **﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾** (**الكهف:٢٩**) ويخاطب رسول الله (ص) **﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾** (**الشورى:٣**)

وقال أيضا

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (**يوسف:١٠٣-١٠٤**)

إن من أسباب إصرار قوم سيدنا إبراهيم (ع) على الكفر والوثنية رغم ظهور الحق أمامهم واضحا جليا، ورغم قناعتهم في دواخل أنفسهم سخف ما يعتقدون بها من أصنام وتفاهة آرائهم، هو حرصهم على الاحتفاظ بمكاسبهم والخوف على ضياع منافعهم. لأن النظام الوثني الذي كانوا عليه أتاح لهم فرص كثيرة للكسب والاكتناز والحصول على منافع مادية دنيوية. وأي تغيير أو انقلاب لهذا النظام الديني سيؤدي إلى الإضرار بهم وخسارتهم لامتيازاتهم. (تماما مثل كفار ومشركي مكة من التجار الذين خافوا على مكانتهم ومكاسبهم ووقفوا ضد رسالة سيدنا الرسول الأكرم (ص)). وهذه حقيقة بمثابة دستور واجه كل الأنبياء والرسل. وكما يذكر القرآن، فقد جابه جميع الأنبياء والرسل الكثير من المصاعب والعقبات، وأذى وتهديد بالإخراج وبل بالقتل. هؤلاء الأنبياء الكرام اتهموا بمختلف الافتراءات والأباطيل والصفات غير الحسنة، مثل الجنون أو قول الشعر أو السحر والشعوذة والافتراء على الله. وعكسوا

الحقائق تماما باتهامهم الأنبياء بالخروج عن طريق الحق والصواب رغم أنهم كانوا على الشر والضلال والانحراف، وقلبوا بذلك المفاهيم والثوابت.

ويجب أن لا ننسى أن هؤلاء بقوا تحت تأثير الجهالة وأسرى للاعقلانية. وفي سبيل الاحتفاظ بمكاسب ومنافع مادية زائلة، دفعوا بأنفسهم إلى الهلاك والخلود الأبدي في نار جهنم وعذابها المقيم. ويخبرنا الله تعالى نهاية ومصير الذين وقفوا أمام الأنبياء والرسل الكرام، هؤلاء المختارون من بين الناس كونهم أصفى وأنقى البشر، وعباد مخلصون لله، خاشعون له:-

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إلا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (آل عمران:١١٢)

سيدنا إبراهيم (ع) وما خططه بشأن الأوثان

كما ذكر في القرآن، فإن الله تعالى يمنح عباده المتقين قابلية التفريق بين الصواب والخطأ. وهذه نعمة مخصوصة للمؤمنين دون غيرهم، وفضل كبير من الله عليهم. وأبرز مثال على هذا، ما أنعم الله به على سيدنا إبراهيم (ع) والذي تجلى في ما قام به من أفعال وأقوال في دعوة قومه إلى الإيمان ونبذ الوثنية والشرك، ثم ما اتخذه من قرارات حكيمة وخطط متينة لمواجهة أهل الكفر وبيان مدى ضعف وسقامة معتقداتهم والأصنام التي يعبدونها. والملفت للنظر أنه قام بكل هذه الإجراءات لوحده أمام عموم قومه. وهذا لا يتأتى إلاّ بإعداد جيد وتنظيم دقيق وحساب محكم للخطوات التي ستتخذ. ومثال على ما قام به لدفع غائلة الكفار والمشركين، ادعاءه المرض لإبعادهم عنه:

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا

ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ (الصافات:٨٥-٩٠)

وبعد أن أبعدهم عنه ذهب إلى الأوثان وقام بتحطيمها ونثر شظاياها

﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ (الصافات: ٩١-٩٣)

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٥٨)

ومن صور حكمته وحسن تدبيره وسداد تفكيره، ترك أحد الأوثان سليما. وعندما جاء المشركون إلى معبدهم رأوا أصنامهم محطمة متناثرة عدا أكبرها فلا زال قائما، وبحثوا عمن فعل هذا بآلهتهم واتجهت أنظارهم إلى سيدنا إبراهيم (ع) لما عرف عنه من عداء للأصنام، ثم وجدوه وأمسكوا به:

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ ﴾ (الأنبياء: ٥٩-٦٢)

هذا الموقف يفسر لماذا ترك أكبر الأصنام سليما.

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾(الأنبياء: ٦٣)

وعلى أثر هذا الجواب المفحم، راجع المشركون أنفسهم وشعروا بعجز آلهتهم عن النطق والقيام بأي تصرف واصطدموا بالحقيقة من أنها ليس باستطاعتها حتى دفع الأذى عن نفسها. وبفضل هذه الخطة الحكيمة انكشفت الحقائق أمام أبصارهم.

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦٤)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ

(الحج ١٧)

غير إن تأثير هذه الصدمة سرعان ما انحسر أمام عناد المشركين، ورجعوا إلى ما وجدوا عليها آباؤهم وتمسكوا بها، وكذلك خشيتهم من خسارة المكاسب والمنافع التي كان يؤمنها لهم هذا النظام الوثني المتوارث:

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء :٦٨-٦٥)

من سير الأحداث هذه، تظهر لنا دقة التخطيط ومتانة التصميم الذي أعده سيدنا إبراهيم (ع) ابتداء من إدعاء (المرض) الذي أبعد قومه عنه تاركا المجال أمامه للتصرف بحرية، ثم تحطيمه الأصنام جميعها عدا أكبرها. وقد فعل هذا لعلمه وتقديره بردة فعل قومه. هذه جميعها إنما نتيجة رعاية الله له وإلهامه إليه بهذه الخطط المحكمة والآراء السديدة ولما كان يتمتع به سيدنا إبراهيم (ع) من رأي راجح وفكر نيرّ. وهكذا نرى آثار فضل الله عليه في جميع ما عمله وأوصله إلى النجاح الذي تحقق له.

وحينما ادعى أن كبير الأصنام قام بتحطيم الأصنام كلها، فكأنما وضع المشركين أمام محاكمة واستنطاق وتحقيق. وبذلك تحققت الخطوة الأولى من خطته التي اعتمد فيها التدرج والخطوات اللاحقة.

ولعل من الأسباب التي دفعته إلى تحطيم الأصنام، إظهار مدى سخف وتفاهة فكرة الشرك وعبادة الأحجار الصماء وعدم عقلانية هذا المعتقد الذي لا يتلاءم مع العقل والمنطق. وأراد أن يشعرهم بالخطأ الكبير من صنع هذه الأصنام ثم عبادتها وتقديسها والخضوع لها. وكذلك مدى الانحراف والابتعاد عن الطريق الصحيح، وعن سبيل الحق الإلهي وتقاطعه مع الوحي المنزل لإرشاد الناس وإخراجهم من الظلمات.

إن مجرد التفكير بأن هذه الأوثان لا تتحرك، ولا تأكل أو تشرب، ثم هي قادرة على إلحاق الأذى وتأمين المنافع، يدل على ضحالة في العقل



والتفكير. فكيف الحال إذا ما قام الناس بطلب العون والمدد منها عند وقوعهم في مصاعب وشدائد والتضرع إليها. بل وتجاوز الأمر عندهم عندما ادعوا وآمنوا أن هذه الأحجار الصماء هي التي خلقت الكائنات وما فيها وتتحكم في إدارتها وتنظيمها وتوزع الأرزاق والمعاش وتبعث الحياة وتجلب الموت، ولها القدرة على جلب الأمراض ثم الشفاء منها. إلى هذا الحد كانوا فقراء ومحرومون من العقل السليم والتفكير الرصين والرأي السديد. ويلخص لنا القرآن ضحالة وضعف موقف المشركين هؤلاء:

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾

(الأعراف: ١٩٢-١٩٣)

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلا تُنظِرُونِي﴾

(الأعراف: ١٩٥)

ومن الخطأ التصور إن هذا الإدراك الضعيف المنحرف محصور بزمن النبي إبراهيم (ع). لأن عبادة الأصنام مستمرة ولا زالت قائمة إلى أيامنا هذه، وربما تحت أسماء وشعارات أخرى. وما كان يؤمن به المشركون قريب الشبه بما يجول في أفكار أنصار " داروين" من المدعين بالتطور.



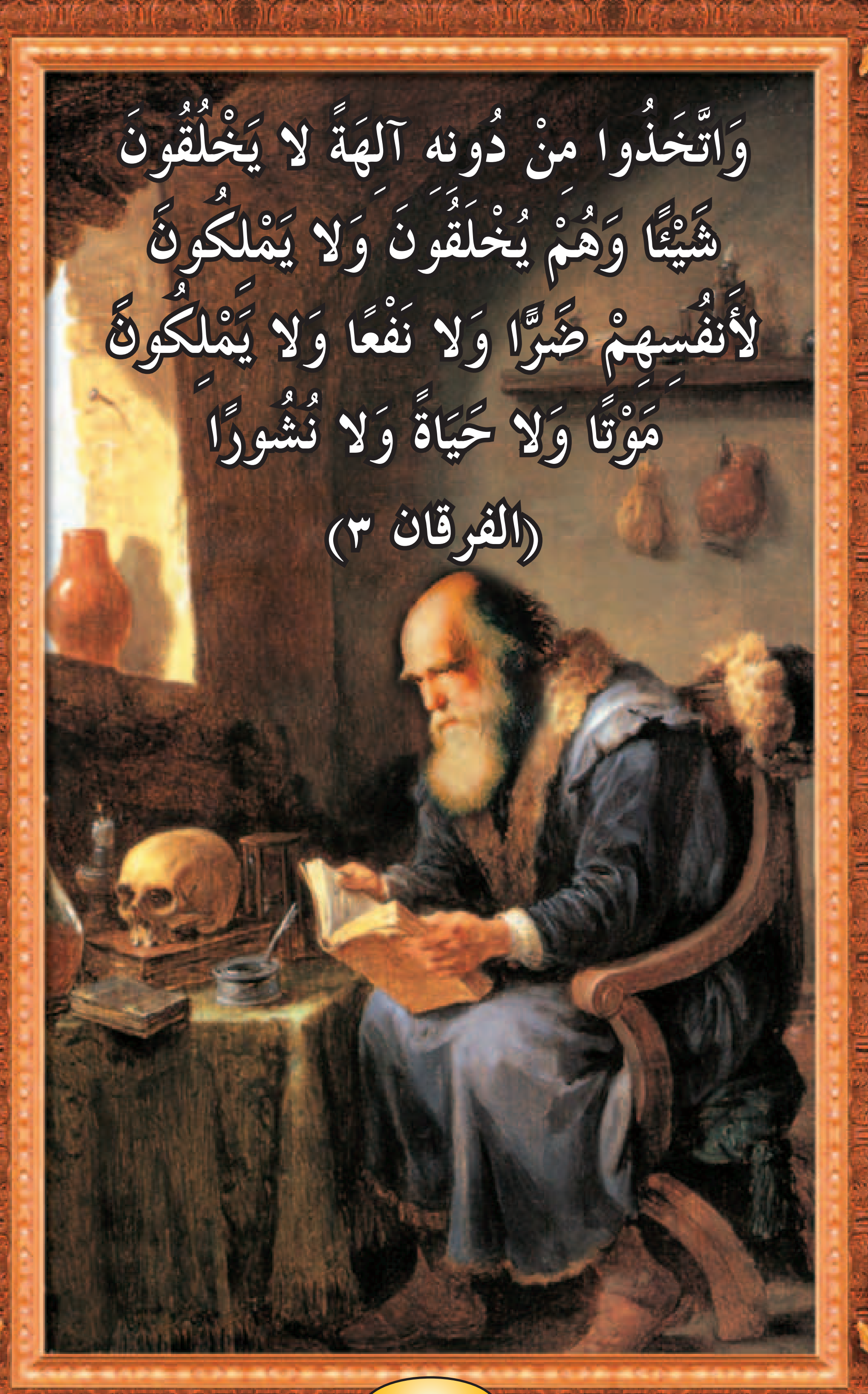
التشابه والتطابق بين عقيدة قوم سيدنا إبراهيم (ع) وبين آراء الداروينيين المعاصرين

كان المشركون من قوم سيدنا إبراهيم (ع) يعبدون أصناما يصنعونها بأيديهم من حجارة أو خشب أو صلصال مفخور. وكانوا يؤمنون أن هذه الأوثان لها القدرة على التحكم والسيطرة على ما يجري في الكون. وبحسب هذه العقيدة المنحرفة والفكرة الباطلة فإن هذه الجمادات التي لا حياة فيها كانت تمتلك اتخاذ القرار وتنفيذه وتطبيقه والتحكم في مصائر الأحياء ومجازاتهم أو مكافأتهم على أعمالهم.

والخلاصة أنهم كانوا يؤمنون أن المادة البحتة الجامدة التي منها تصنع الأصنام هذه لها القدرة والاستطاعة على الخلق والإبداع وتنظيم أمور الناس والكون. ولا شك أن هذا الرأي في منتهى الفجاعة والركاكة والسخف، إلى جانب كونه خطأ وإثما كبيرا حسبما ورد في القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٨)

أما في أيامنا هذه، فإن الذين يدافعون عن نظرية " داروين" في التطور يتبعون مسيرة المشركين من قوم سيدنا إبراهيم (ع) ويلتزمون بآرائهم. فهم


وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ
لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ
مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا
(الفرقان ٣)

يؤمنون أن عناصر مجردة من الأوكسجين والكاربون والهيدروجين والكالسيوم والمنغنيز والحديد وبمشاركة مياه مخلوطة من طين وعناصر ومواد أخرى تمتلك القدرة الفائقة والإرادة الحرة (وبمساعدة ومعاونة مرور أحقاب طويلة من الأزمان عليها وببعض المصادفات) على خلق وصنع جميع ما في الطبيعة من حسن الخلق وجمال التكوين وكمال التصوير وكل هذا التنوع في المخلوقات. فهذا الثالوث (المواد الجامدة والزمن والمصادفات) هو الذي اتخذ القرار ونفذ كل شيء. والأهم من كل هذه خلق المخلوقات والإنسان، بعقله وإدراكه وكيانه العجيب. إن هذا الفكر الفاسد والنظرة المنحرفة تعتبر المادة هي الإله والخالق. فالمادة الجامدة الخالية من عناصر الحياة لها القدرة والإرادة على اتخاذ القرار والتنفيذ، حسبما يدعون. وجميع ما في الكون من موجودات خلقت نفسها بنفسها وبالمصادفة العشوائية (نستعيذ بالله، وننزهه تعالى). في حين أن الإنسان إذا ما فكر وتعمق في هذه المخلوقات من أحياء وجماد، توصل إلى أن صاحب القدرة والإرادة المطلقة هو (الخالق)، صاحب الكمال المطلق في الإرادة والتدبير. إن كل شيء في هذا الكون الفسيح من مجرات وسدم وأجرام، وصولا إلى أرضنا التي تضم الأعاجيب من المخلوقات الجميلة، وقوانين حكيمة تنظم الحياة عليها بتوازن دقيق ابتداء من الإنسان وما يحتويه جسمه من أنظمة معقدة وإلى الطبيعة والبيئة من حولنا المتلائمة والمتناغمة معه لإدامة الحياة، هذه وغيرها كثير دلائل وإثباتات على وجود (الخالق) المبدع، الرؤوف الرحيم بخلائقه. وعن طريق الرسل والأنبياء من أمثال سيدنا إبراهيم (ع) وغيره، كشف ربنا الجليل هذه الحقائق للناس أجمعين ولكل من يملك عقلا سليما وفكرا رصينا، لتأمين هدايتهم إلى طريق الإيمان والحق المبين.

غير إن كثيرا من البشر وعلى مر التاريخ أصروا على الإنكار وبقوا على ضلالهم وتخبطوا في ظلماته ودياجيره. ويبين الله تعالى في كتابه المنزل والوحي الأخير هذه الحقيقة في قوله:

اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠٩-١١١)

مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

(الروم ٤٠)

إن الذين يدعون قدرة الذرات والجزيئات والمادة المجردة والعناصر والمعادن وبالاستعانة بالمصادفات، وكذلك الذين ينحنون ويسجدون أمام هذه الرموز المجردة، لا يختلفون أبدا عن عبدة الأوثان، بل هم استمرار لنفس الفكر السقيم، والذي اختلف فقط هي المسميات الجديدة والعبارات المسبوكة في تعريفها وتوصيفها.

إن الأفكار التي كانت تحملها الأقوام والشعوب التي عاشت في زمن


وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا
وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى
وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُود
(البقرة ١٢٥)

سيدنا إبراهيم (ع) كانت تتمحور في عبادة الأصنام وتعدد الآلة كدين شامل يعتقدون بموجبه أن لكل شيء أو فعالية إله يتمثل في صنم أو علامة طبيعية بارزة، وإن هذه المسميات تتحكم في الطبيعة التي أوجدتها، وتنظم أمورها وتسيّر شؤونها. والداروينيون أيضا على فكرة وعقيدة مماثلة ومقاربة، ويدّعون أن كآفة المخلوقات والموجودات في العالم من حيّ وجماد هي من إنتاج وخلق المادة الصماء (الذرات والجزيئات وقوى الطبيعة والخصائص الفيزياوية والكيمياوية للمادة). وهكذا يلتقي الداروينيون مع عبدة الأصنام حينما يقولون بـــ " تنظيم المادة نفسها بنفسها" أو " خلق الطبيعة للأنواع" اعتمادا على المادة الجامدة وإيداع قدرة وقوة خيالية فيها. فهم إذن يؤلهّون المادة ويعبدونها.

يمكننا مشاهدة هذه الحقائق عندما نتابع الإصدارات والنشريات التي تهتم بنظرية التطور، حيث تتحدث كثيرا عن أصنام الداروينين وعلى رأسها وفي مقدمتها " الطبيعة الأم" التي يؤمنون أن كل ما في الكون من تنظيم وتحكم يعود إلى الطبيعة الأم أو الطبيعة الخلاقة. فالموجودات الرائعة الجمال من جماد وأحياء من صنع الطبيعة، وكذلك الحياة والموت والحوادث والوقائع والكوارث الطبيعية الكبرى أيضا. فعندما يتحدثون عن منظر طبيعي جميل يقول عنه " هدية أمنا الطبيعة" ويسمون الكوارث الطبيعية بـــ " غضب أمنا الطبيعة" وغيرها من الآراء المنحرفة والأفكار المختلة. ولكنهم لا يعطون أي تفسير أو توضيح عمن أعطى الطبيعة هذه القدرة، وحتى عن ماهية الطبيعة هذه. وهذا برأينا فيه الكثير من الجهل والأفتراء والقبح. هؤلاء الناس يشركون بالله جهارا ويحاولون تغليف أفكارهم الخاطئة بغلاف من الحقائق العلمية.

يقول المفكر الأمريكي فيليب جونسون عن الداروينيين المعاصرين وبقية الماديين ومن يحملون فلسفات تعتمد المادية، بأنهم عبدة أوثان بشكل ما : " إن الإنكار في جميع العصور تشكل قيمة منحرفة لنا نحن البشر. أما المادية البحتة وإنكار وجود الخالق فهو القسم الظاهري والجزء الطافح من الإنكار...

والستراتيجية الأخرى للإنكار هي إحلال وجود آخر يكون تحت سيطرتنا وتحكمنا محل " الخالق" وهذه وثنية فاضحة. القبائل البدائية كانت تصنع أوثانها من الخشب أو الطين المفخور. أم أصحاب الرأي والفكر الحديث فقد وضعوا نظرياتهم محل الأوثان وعبدوها. فإذا ما ذكروا كلمة " الإله" فيقصدون الطبيعة ودساتيرها، أو المصادفة، ويظهرونها على هذه الصيغة. وجميع الذين يستخدمون هذه الستراتيجية يضعون المخلوق محل الخالق. وهذا منتهى الوثنية. [٣]

وفي حقيقة الأمر فإن وضع موجودات عاجزة ابتدعوها مكان الخالق المبدع الذي خلق الكائنات جميعها من العدم، إنما يشكل أساس الوثنية الخالصة التي بدأت منذ أزمان سحيقة ولازالت مستمرة. وقام سيدنا إبراهيم (ع) بالوقوف في وجه قومه الذين انحرفوا وسلكوا نفس الطريق المظلم. يقول القرآن في ذلك:



﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ (مريم: ٤٢)

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ(٥٢)قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾(الأنبياء: ٥٣-٥٤)

إن المادة لا تملك المعرفة. لذلك فإعطاء صفة العلم والمعرفة للأشياء المادية هي فكرة خاطئة وفهم سقيم. فليس للذرات أو الجزيئات ولا للماء المخلوط بمواد طينية، وكذلك ليس للمصادفة قدرة اتخاذ القرار أو قابلية التفكير والإدراك. بينما تتجلى الحقيقة الواضحة في وجود تنظيم وتحكم دقيق وإدارة مقتدرة حكيمة تسير هذا الكون الهائل. إن هذا التدبير الفائق والإدارة والإدراك العالي يعود كله إلى الخالق المقتدر، ربّ هذا الكون وخالقه من العدم.





ويبدو واضحا الكمال ومنتهى المعرفة بالأشياء والعقلانية في أعلى مستوياتها في المخلوقات التي نراها. ذلك أن الله خلق جميع الموجودات من جماد وأحياء من العدم وأودع فيها من جمال الخلق وكمال السحر ما يخلب لب الإنسان ويبهر إدراكه.

لقد دعى سيدنا إبراهيم (ع) الناس إلى ترك عبادة النجوم والشمس والقمر بعد أن سفه أقوالهم وادعاءاتهم وأثبت لهم عدم امتلاك هذه المخلوقات القدرة على الخلق أو جلب الضرر أو النفع. وبذلك فتح أمامهم طريق الإيمان بالله. وقد سلك في دعوته هذه طريقا سبق الكلام عنه، واعتبرناه قدوة ومثالا للإتباع والسير على هداه. في البداية لجأ إلى فكرة تحطيم العبودية للأوثان، وتسفيه العقائد التي كانوا يؤمنون بها ويعتمدونها. كل ذلك جرى بالهام من الله تعالى إليه. ويرى بعض الناس في أيامنا هذه، عدم جدوى الدخول في صراع مع الملحدين والماديين والداروينين، وبصورة خاصة ما يخص تفنيد نظرياتهم وآرائهم الفلسفية. وهم يعتقدون أن البحث والكلام عن بدائع صنع الله وعظمة خلائقه كافية للرد على الداروينين دون الدخول في جدال نظري بحت لإثبات الخطأ والفساد في نظريتهم. نحن نعتبر ذلك وجهة نظر غير صائبة. ذلك لأن الناس الذين يحملون أفكارا خاطئة منذ مدة طويلة يتطلب كشف ما يجول

(يقول الداروينيون أن جميع المخلوقات الجامدة والحية تكونت بفعل الخصائص الكيمياوية والفيزياوية للمادة وبمساعدة مرور أزمان طويلة تفاعلت خلالها الذرات والجزيئات بمساعدة قوى الطبيعة وبمعاونة عنصر المصادفة. بينما لا يمكن خلق كائن حيّ حتى لو اجتمعت معا كل الظروف التي يعتبرونها من مسببات الخلق والتكوين.
والداروينيون لو قاموا بوضع برميل " كما ظهر في الصورة الجانبية" يحتوي على جميع ما يطلبون من مواد وعناصر وأنزيمات وهورمونات وبروتينات، وتحت أية ظروف يريدونها، واستخدموا أية وسائل وإمكانات يدعون ضرورة وجودها وتوفرها، ثم انتظروا ما شاءوا من سنين حتى الملايين منها، فلن يخرج من هذا البرميل كائن حيّ في نهاية الأمر وبأي شكل من الأشكال. بل ولن يخرج حتى خلية واحدة...).

في أفكارهم من علامات استفهام وإظهارها للعيان واعتبار ذلك من جملة الإجراءات والوسائل الواجب اتخاذها واتباعها. وهذا يتطلب منا تفنيد أسس نظرية التطور في نفس الوقت الذي نقوم فيه بالدعوة وتبليغ الناس بمفاهيم الإيمان ومعرفة الله جل جلاله وبشكل صحيح. وهكذا يشعر الناس كم هي خاطئة ما كانوا يحملونها من أفكار مادية ظلوا مخدوعين بها لسنوات طويلة، ويقتربون أكثر من الاقتناع بوجود الواحد الأحد.

إن تفنيد نظرية التطور لداروين جملة وتفصيلا واثبات بطلان جميع فقرات وبنود هذه النظرية سوف يقوض ما ترسخ في أذهان وأفكار مؤيديها ويساعد على التخلص منها. وهكذا ستظهر جميع التناقضات والأمور غير الممكنة والبعيدة عن التصديق والتحقق. وقد استطاع سيدنا إبراهيم (ع) بفضل ذكائه وأفقه الواسع، وبالاعتماد على إيمانه العميق بربه، من إثبات استحالة اعتبار الأصنام المصنوعة من الحجر والخشب أو الأجرام السماوية والشمس والقمر، مقبولة ولائقة للعبادة. وقد جاء آراءه بأمثلة وأدلة دامغة. هذا النبي الكريم المؤيد من الله والمتمسك بفضائل الأخلاق والملتزم سبيل الحكمة والعقلانية خير قدوة للمؤمنين الذين يتمسكون بنهجه والساعين إلى ما كان يسعى إليه من تبليغ رسالة التوحيد.

ونقطة أخرى يتشابه فيها عبدة الأصنام من قوم إبراهيم (ع) مع الداروينين والماديين ويشتركون فيها معهم، ألا وهي ردود أفعالهم تجاه القائمين بأمور تبليغ رسالة الوحيد والإيمان. لقد اعترف المشركون بأنهم صنعوا أصنامهم وأنها لا تقدم لهم أية منافع ولا تصيبهم بأضرار. والآية الكريمة ﴿ **فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ **(الأنبياء: ٦٤)**.

تخبرنا بحقيقة اعترافهم. ولكن رغما عن كل شيء وقبول كونهم على عقيدة باطلة، تمسكوا بالكفر ورفضوا التخلي عنه. كذلك هو شأن الداروينين الذين شاهدوا انهيار نظريتهم وتقوضها أمام إثباتات العلم الحديث والقواعد

الثابتة، وأنها فقدت جميع مقوماتها وأسسها التي بنيت عليها. (للمزيد من التفاصيل أنظر – اعترافات التطوريين- الطبعة الثانية، هارون يحيى). إن الأدلة والإثباتات التي يحكيها وتتحدث فيها المخلوقات البديعة عن نفسها، تزيد من قوة ومتانة الإيمان بالله وتضيف خيبة أمل كبيرة للمنكرين والملحدين من أنصار نظرية التطور، وتثبت بطلان رأيهم. إن قوة وروعة التصاميم في المخلوقات الحية خاصة، وتعقيد الأنظمة والأجهزة فيها، والتفاصيل الخلقية التي تمتاز بالروعة والدقة والتي يتم اكتشافها من قبل رجال العلم يوما بعد يوم، تجعل نظريات التطور عرضة للتفتت ثم التلاشي الواحدة بعد الأخرى. ولكن أنصارها لا يريدون قبول هذه الحقائق وإن كانوا يذكرون بعضها بين الأسطر، مصرين على تكرار أقوالهم بصورة تلقائية ويغلقون أبصارهم عن رؤية الحقائق.

وهنا، يجب أن لا تغيب عن بال الذين آمنوا حقيقة مهمة وهي أنه. ليس المهم أن تلفظ حقيقة معينة بلسانك وتدعي الإيمان بها في الظاهر فقط. بل الوصول إلى الحقيقة والتصديق بها يكون من داخل القلب والضمير. إن أنصار نظرية التطور يؤمنون في دواخلهم بحكمة وعظمة الخلق، ولكن عدم الاعتراف بها لفظا وعيانا لا يغير من الحقيقة في شيء. كما وأنهم رغم اقتناع ضمائرهم يصرون على الإنكار. وهذا دليل على ما ورد في القرآن من حقيقة " أنه لن يؤمن منهم إلا قليل".

إن الواجب الملقاة على عاتق أهل الإيمان هو المضي وبإصرار وبصورة مستمرة على تزويد وتكرار الدلائل وذكر الحقائق المتعلقة بالخلق، وإيجاد أساليب وإجراءات جديدة، والتوسل بكافة الوسائل المنطقية والذكية في تبليغ رسالتهم ودعوتهم إلى معرفة الله تعالى والدخول في صراع فكري متين مع المنكرين وبعزم وثبات. إن الذين يتحملون عبء هذا الصراع يجب أن يكونوا من أهل الإيمان والتدين ومن المتوكلين على ربهم والمسلمين أمورهم إليه، لأن دخول الإيمان إلى قلوب المخاطبين لهم، مرده إلى الله وحده. فإذا ما أراد لهم

الهداية فإن ما يقوم به المؤمنون من أفعال وأقوال إنما تشكل سببا للهداية.

كان سيدنا إبراهيم (ع) مثال الإنسان الصابر المتوكل على ربه في سلوكه في الدعوة والتبليغ. فقد آمن أن الله مع المؤمن الصابر، وكل ما سيحصل فبعلمه وارادته وأن الخير في كل ما يحصل مهما بدت مظاهرها. وأمام تهديدات قومه بذل كل ما في وسعه ثم ترك استحصال النتائج إلى ربه وهو على ثقة واطمئنان قلب. وأمام هذا الإيمان والتوكل، كان الله معه دائما، والتوفيق و النجاح حليفه.

الصراع الفكري لسيدنا إبراهيم (ع)

كان قوم سيدنا إبراهيم (ع) على كفر وإلحاد كبير وذوي بأس شديد وإصرار عجيب على الضلالة. ودخلوا معه في مناقشات وجدال كثير، ولكنه كان صابرا وثابتا على إيمانه، يشكر ربه ويحمده على نصره له ويتوكل عليه. وقد لجأ إلى الإتيان بأدلة رائعة لتعزيز موقفه بما أعطاه الله من فكر نير وعقل ثاقب وحكمة بالغة، ووقف أمامهم عزيزا صامدا، مبديا من حسن التصرف والأخلاق الحميدة أفضلها،ومظهرا تجاههم كل الرحمة والشفقة. وبفضل ما توسل بها من دلائل دامغة استطاع تفنيد رأي المشركين وتسفيه مواقفهم جميعها. وأثبت لهم عقم عقائدهم التي لا تتلاءم مع أي عقل أو منطق سليم، ويخالف ما أوحى به الله تعالى من الحقائق.

غير إن قومه وعلى رأسهم أباه آزر استعملوا معه أشد الوسائل وأقسى الإجراءات، في حين أنه لم يلجأ إلا إلى الوسائل التي تعتمد الرأي والفكر والمنطق مما يعطي المثال الجيد للمؤمنين في هذا المجال. ولكن قومه قابلوه بأقسى الوسائل وأشدها بدءا من التهديد والوعيد والتخويف بالإبعاد والنفي وانتهاء بالوعيد بالرجم والقتل. فكان جوابه لهم يعتمد السماحة واللين واللطف. هذه الشيم والأوصاف الكريمة، أوصى بها القرآن جميع المؤمنين.

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:٣٤)

وأمام هذا الموقف الصعب الذي وقفه قومه معه، كان سيدنا إبراهيم (ع) مصرا على مبدئه وعقيدته، صابرا على أذاهم ومسلما أموره إلى ربه ومتوكلا

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ

(التوبة ٥١)



عليه ومستمرا في تبليغه لدعوته إلى الإيمان والتوحيد:-

واستمر طوال عمره في الجهاد والتبليغ بكل اندفاع وشوق وثبات، دون أن ينتظر لقاء ذلك سوى رضا ربه عنه وما وعده من النعيم الأبدي المقيم.

من الحقائق التي يجب أن لا تغيب عن البال، أن الإيمان يصبح أمرا يسيرا وسهلا في مجتمع كلهم مؤمنون بالله ويسعون لنيل رضاه. ولكن الإيمان والثبات عليه في مجتمع أكثريته كافرة وناكرة لربها يصبح من الأمور العظيمة التي تكتسب قدرا عظيما من الإجلال والتقدير (والله أعلم). وهذه الصفات العظيمة جعلت من سيدنا إبراهيم (ع) إنسانا عظيما ونبيا كريما.

نشاهد بعض المؤمنين في أيامنا هذه، يقعون في إحباط ويأس مما يدفعهم إلى التخلي عن أدوارهم في الدعوة والتبليغ لما يرونها في مجتمعاتهم من طغيان الفساد وفكرة الإنكار وتفشي الأخلاق غير القرآنية. وتخبوا عندهم الرغبة والشوق إلى ما من شأنه جلب رضا الله ومحبته لهم. والمطلوب من المؤمن المسلم أن يسير ثابتا في سبيل ربه وينظم عيشه حسبما يريده ربه له رغم كل ما يحيط به من معالم الظلم والكفر. وفي الآية الآتية يذكر الله كيف أن سيدنا إبراهيم (ع) عاش وحده متوجها إلى ربه وحده :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
(النحل: ١٢٠)

(النحل) وهذا يدفع بالمؤمنين لكي لا يتراخوا أو يسمحوا لليأس أن يدخل إلى نفوسهم أمام كيد الكافرين مهما كان شديدا عليهم.

محاولة رمي سيدنا إبراهيم (ع) في النار

بالنظر لما شاهده الكفار من قوم إبراهيم (ع) من تحطيم أصنامهم والإهانة التي تعرضوا له من جرائه، أخذتهم العزة بالأثم، وفكروا في إجراء مقابل بحقه، ولجأوا إلى خطة ظالمة تقضي يحرقه في النار:-

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَسْفَلِينَ ﴾(الصافات:٩٧-٩٨)

وفي آية أخرى نذكر مدى حرص قومه على إلحاق الأذى به وكيد المكائد له :-

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٢٤)

إن لجوء قومه إلى اتخاذ هذه الإجراءات القاسية والشديدة في أشكالها تدل على مدى إصرار الكفار – رغم ظهور دلائل الحق المبين أمامهم- وقسوتهم تجاه أنبياء الله والذين اتبعوهم من أهل الإيمان، وعدم تحملهم رؤية المؤمنين أو سماع ما يقولون. ويذكر القرآن حوادث وحقائق أخرى حول ظلم المنكرين لأهل الإيمان:-

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

(البروج: ٤-٨)

ولكن الله تعالى يبطل كيد المجرمين ويفسد عليهم كيدهم وخططهم اللئيمة.

تبدو للوهلة الأولى أن كثرة جموع المشركين وشدة بأسهم كانت ستؤدي بسيدنا إبراهيم (ع) إلى الحرق في النار. ولكن قدرة الله هي التي تدفع النار إلى اكتساب صفة (الحرق)، كما وأن الموت شأن يقرره الله تعالى وبيده حكمه. في تلك اللحظة الحرجة يأتي أمر الله إلى النار أن تكون " بردا وسلاما" ويرد كيد الكافرين إلى نحورهم.

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّوني في اللَّهِ وَقَدْ هَدَاني وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ به إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ





مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٠-٨١)

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٦٩-٧١)

وكما أنقذ الله أنبياءه وكان مددا وعونا لهم، كذلك كان مع سيدنا إبراهيم (ع) في هذه اللحظات الحرجة والعسيرة. مثله مثل ما حصل لسيدنا موسى (ع) وقومه حينما أدركه فرعون وجنوده، وفي اللحظات الأخيرة شق الله لهم البحر فعبروا، وأغرق عدوهم في لجج البحر. كل هذه الأمثلة معجزات من رب العالمين في نصره أنبياءه

ومن تبعهم في طريق الهداية. وفي سيرة سيدنا إبراهيم (ع) وصبره وثباته وتسليم أموره لربه وتوكله التام عليه، قدوة حسنة لكافة أهل الإيمان في كل عصر وزمان. ولقد كان إيمانه العميق يجعله يرى كل ما يجري إنما هو ضمن تقدير محكم وخطة ربانية. لذلك أيقن أن أمر الله لا محالة واقع، ونصره وتوفيقه لأهل الإيمان لا بد آت وهو معهم دائما، وهذا وعده لهم، ولن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا

﴿ الَّذينَ يَتَرَبَّصُونَ بكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ منَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ للْكَافرينَ نَصيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ منَ الْمُؤْمنينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقيَامَة وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للْكَافرينَ عَلَى الْمُؤْمنينَ سَبيلاً ﴾ (النساء: ١٤١).

كل هذه الحقائق تدفع المؤمنين إلى الإيمان الشديد بقضاء الله الذي لا مرد لتقديره، وعليهم التوكل عليه والتمسك به وطلب العون والمدد منه



أمام المصاعب والمحن.

هكذا نصل إلى قناعة، بأن كل المحن والمصاعب أمام المؤمنين إنما هي اختبار وامتحان وراءه كل الخير. وما عليهم إلا الثبات والعزيمة، والصبر والتجلد، والترابط والتوكل على الله وطلب العون منه وكسب رحمته ورضاه.

إن ما يتخذه الكفار من مؤامرات وما يكيدونه ويخططون له من سوء، يجب أن لا يدفع المؤمنين إلى الحزن والأسى والشعور بالضيق، بل على العكس يجب أن يكون عاملا لزيادة التعلق بالرب وتقوية الإيمان واليقين والشوق إليه. وفي هذا الخصوص يخاطب القرآن رسولنا محمد (ص) :-

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا باللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ

(١٢٨-١٢٧) (النحل)





* من قصة سيدنا إبراهيم (ع)، إشارات إلى أيامنا *

في قوله تعالى ﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴾ (**الأنبياء:٦٩**) يخبرنا تعالى أن النار لم تؤذ سيدنا إبراهيم (ع) مطلقا، وهكذا خاب فأل الكافرين واسقط في أيديهم ولم ينله أذى أو سوء. وفي هذه الآية إشارة وتلميح لنا ونحن وفي أيامنا هذه. (... الله أعلم ...).

ومن المعلوم لنا والثابت في أيامنا هذه، أنه يمكن صنع نسيج وقماش يتمتع بمزايا تكنولوجية عالية. تصنع منها ملابس وخيوط ومعدات تقاوم الحرارة ولا تتأثر بالنار أو المواد الحارقة الأخرى. وهذه المواد تقاوم اللهب وتشتعل ببطء شديد. وعند انقطاع مصادر النار تعود فتنطفئ وبسرعة. وهذه المزايا تكسب من يرتدي هذه الملابس مزيدا من الضمان والأمان وكسب الوقت الحرج، وكذلك تؤمن حرية التحرك والتصرف.

فالأنسجة والألياف والأقمشة المصنوعة من مواد كيمياوية (مثل الزجاج والآراميد والنوفوليد والكبريت والساران وأمثالها) لا تلتهب عند تماسها بالنار وتقاوم الحرارة العالية. وتخضع هذه المنتوجات الخاصة لاختبارات وتجارب عديدة للتأكد من خصائصها الفيزياوية والكيمياوية. وتصنع وتخاط منها الملابس بكل أشكالها من قمصان وسراويل وأغطية للرأس وأحذية، يختص باستعمالها الذين يعملون في المجالات الصناعية والظروف الصعبة مثل مصانع تكرير النفط والمواد الكيمياوية والحديد والصلب وتأسيسات الكهرباء والغاز وصناعة الألمنيوم، وأعمال اللحام، والصناعات الإنشائية وإطفاء الحرائق ومكافحة الانفجارات.[٤]

ويمكننا استخراج المعاني والتأويلات من الآيات المذكورة فيما سبق، تدل على نوع من التوقع والتنبؤ بما يحصل من الصناعات والاختراعات ومن ضمنها الأنسجة المقاومة للحرائق واللهيب والنار. (ولكن الله أعلم وعنده الخبر اليقين).

الحكم في دعوة سيدنا إبراهيم (ع)

دعوة الناس إلى معرفة الحق والصواب عن طريق طرح الأسئلة عليهم

قام سيدنا إبراهيم (ع) بإلقاء سؤال على عبدة الأوثان جلب به انتباههم إلى عجز آلهتهم وأوثانهم وبطلان عقيدتهم.

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء:٦٦)

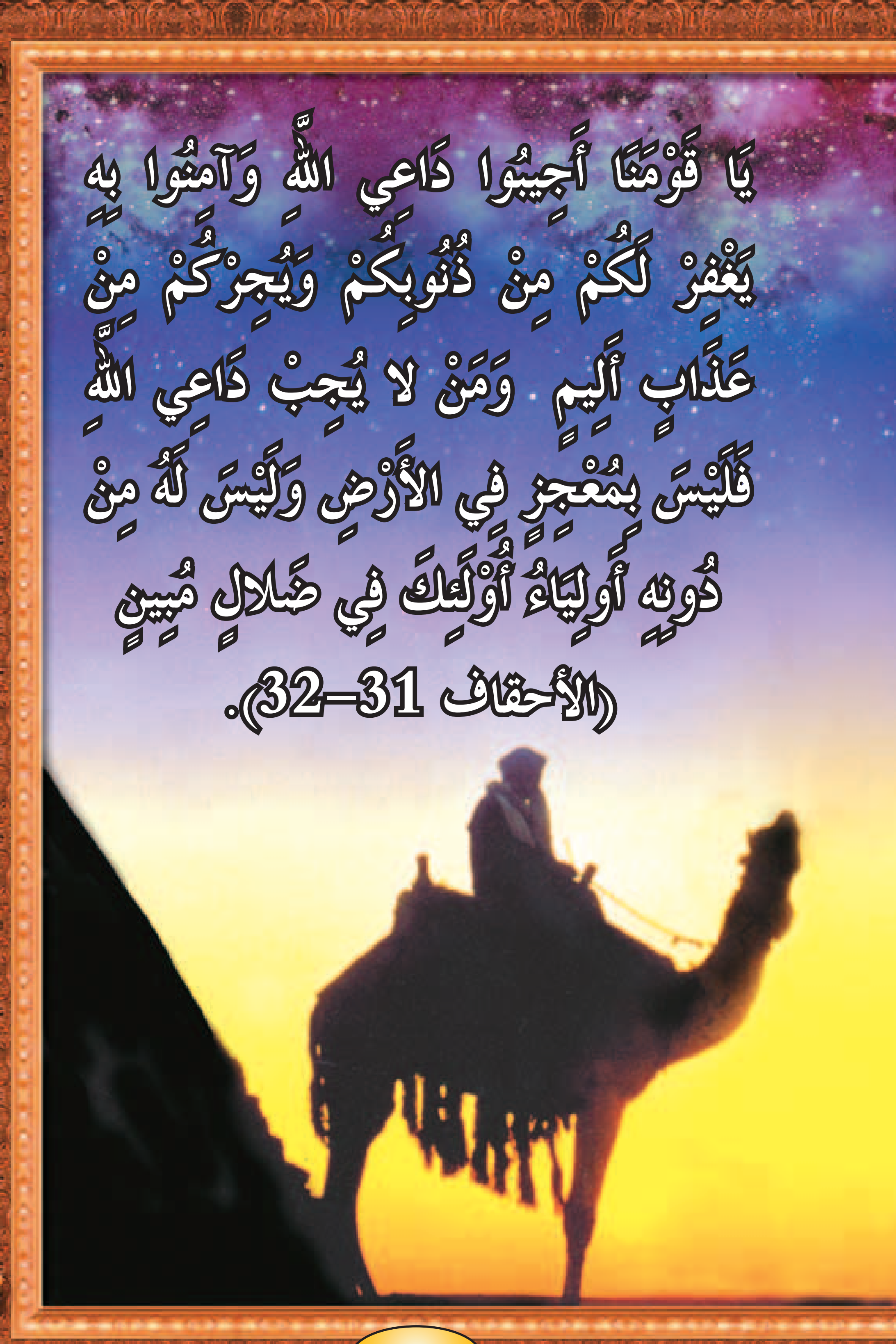
إن الوسيلة المتبعة والمعتمدة على طرح الأسئلة يجعل المخاطب يشعر بموقفه بنفس المنطق الذي يستعمله هو، وهذا إجراء مهم من وسائل التبليغ. فالملحدون والناكرون لوجود الله تصيبهم صدمة قوية عند إلقاء أسئلة عميقة وحكيمة عليهم. ذلك لأن وجوب وجود الخالق واضح أمام الأعين لقوة الدلائل عليه. كما واضح أيضا ركاكة منطق العيش بعيدا عن العقيدة والإيمان الصحيح بالخالق. أما الذين يحكمون ضمائرهم وعقولهم فهم يدركون قدرة الله تعالى ومقدرته العظمى على التحكم بالمخلوقات جميعا، بحكمته وعلمه بكل شيء. وينظمون حياتهم وطرز معيشتهم طبقا لأوامره، متوخين من ذلك نيل رضاه. أما الذين يقعون تحت سيطرة الشيطان والغافلون عن الحق، فيجب إيقاظهم من غفلتهم، وإحساسهم بأنفسهم ومشاهدة الحق الواضح. وخير سبيل لتحقيق ذلك طرح الأسئلة عليهم بما يؤمن إيصالهم إلى بداية طريق الهداية. وفي القرآن، العديد من الآيات التي تدعو الناس إلى التفكير وعن طريق طرح الأسئلة عليهم:-

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً

وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة:٦٨-٧٤)

عندما يقوم المؤمنون بدعوة النَاس إلى التمسكَ بالأخلاق القويمة وأحكام الدين، فإنهم يتخذون أساليب وإجراءات عديدة بحسب ما يتمتع به المخاطب من صفات وما يتخذه من ردود أفعال وتصرفات، ويجربون وسائل مختلفة لكل حالة. فإذا كان المخاطب يتمتع بعقل راجح وضمير حي ويتلقى آيات الله بعقل واع وقلب متفتح، فيكون قريبا جدا من الإيمان بالحق، ويكون تأثير الدعوة عليه إيجابيا والتبليغ سهلا وسلسا. أما إذا كان أفراد المجتمع يتصفون بما كان عليه قوم سيدنا إبراهيم (ع) من الظلم والتعسف والقسوة، فإن الوسيلة المتبعة عندها تعتمد على إيقاظهم من غفلتهم وصدمهم بقوة وعنف ليواجهوا الحقيقة الناصعة. وأمثال هؤلاء لا يعترفون بقبول الحق المبين، ولو اقتنعوا به في دواخل أنفسهم فإن كبرياءهم وغرورهم يمنعهم من التنازل عما هم متمسكون به، ويعاندون في البقاء على الباطل ويرفضون حتى إعطاء آذان صاغية إلى سماع الرأي الذي يخالف رأيهم. وأمام هؤلاء الملحدين فإن طرح الأسئلة وسيلة ناجحة وحكيمة لضعضعة مواقفهم وكسر عنادهم. وبذلك يقع في تناقض مع ما يحمله من أفكار ويكون شاهدا بنفسه على سخف وتفاهة ما يحمله من معتقدات وآراء. والحكمة الأخرى من وراء طرح الأسئلة هي قطع الطريق على المخاطب من التخلص من النقاش، لأن الإنسان – وكما يقول ذلك القرآن أيضا– مخلوق مفتوح أمام المناقشة وتبادل الرأي. لذا فهو يضطر إلى اللجوء إلى الدفاع عن رأيه في حالة فتح المناقشة معه وإسماعه رأيا مخالفا لما يحمله. وخير وسيلة لمنع اللجوء إلى الجدال العقيم هو طرح الأسئلة بطلب الإجابة عليها، مما يضطر المخاطب إلى مناقشة وتحليل أفكاره. إن الشيطان يوسوس للإنسان بالابتعاد عن سماع كل ما يدور من مواضيع حول الجنة والنار والحساب في اليوم الآخر، حتى يقطع طريق التفكير والتعمق فيه. وهنا تبدأ الأسئلة المطروحة بفتح الأذهان للتفكير والخوض في مواضيع لم يسبق الإطلاع عليها، مثل حقائق وجود الله تعالى والهدف من الحياة وماذا سوف يحصل بعد الموت، والحساب يوم القيامة وأمثالها.


قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلا وَنَهَارًا
فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا
وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ
جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا
(نوح ٥-٩).


يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ
يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ
(الأحقاف 31–32).

أهمية إظهار الشجاعة والوضوح والصراحة في الدعوة والتبليغ

إن سيدنا إبراهيم (ع) نبي كريم دعا الناس إلى الهداية ومعرفة الله تعالى، وهو مثل بقية أنبياء الله الكرام أرشد الناس إلى طريق الإيمان القويم، ودعاهم إلى التقرب من ربهم لنيل رضاه وكسب أفضاله ونعمه، والتحلي بالأخلاق القويمة وتنظيم حياتهم ومعيشتهم في حياتهم الدنيا في إطار التهيؤ لليوم الآخر. وكان من وسائل الدعوة التي انتهجها المرسلون أمثلة لما يجب على المؤمنين اتباعها من سبل ووسائل ناجحة في نشر دين الله وتبليغ رسالته إلى الناس كآفة.

كان الناس الذين قام الأنبياء بدعوتهم يتصفون بكثير من الظلم والقسوة والجبروت. ولكن ربنا الكريم – وكما جاء في الآية التي يوجه رسولنا الكريم فيها–

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الشورى:١٥)

اختار الأنبياء والمرسلين من بين الناس لما كانوا يتمتعون بها من إيمان عميق واستقامة وتقوى وأخلاق رفيعة لتبليغ رسالته والدعوة لإتباع دينه، يبتغون الأجر والثواب من الله وحده.

وكان يواجه سيدنا إبراهيم (ع) قومه الذين أصروا على الكفر والإنكار بعناد وتمسكوا بآرائهم ودافعوا عنها، ودخلوا في مناقشات وجدال مهما قدم لهم من أدلة واثباتات على ضعف عقيدتهم وبطلان مبدأ الشرك بالله:

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ

به إلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ٨٠-٨٣)

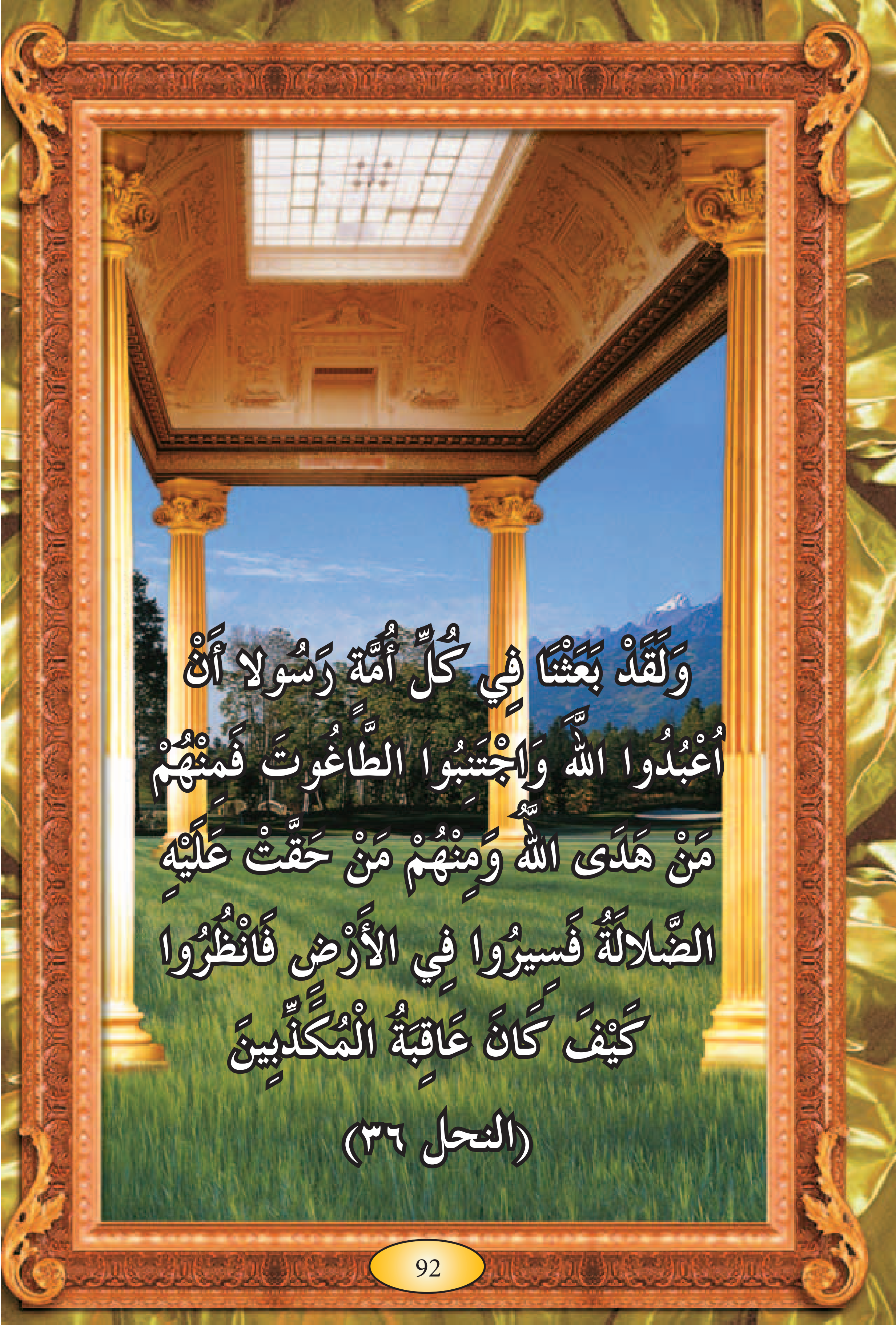
من خصائص التبليغ الذي قام به سيدنا إبراهيم (ع)، إخلاصه وصراحته. وعندما كان يتحدث إلى مخاطبيه عن وجود الله تعالى كان ينزل إلى أعماق ضمائرهم بأقوال صريحة وحجج دامغة، يحذرهم من الاعتماد على غيره أو الخوف من أي مخلوق أو إظهار العبودية لغير الله، مظهرا من الشجاعة والثبات على العقيدة القدر العظيم. وكان يكرر ويذكرهم بمدى ضحالة تفكيرهم في اتخاذهم الأصنام معبودا. وفي هذا المجال، يخبر القرآن المؤمنين ما يجب أن يقوموا به:-

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا ﴾ (النساء:٦٣)

إن الإيمان العميق الذي كان في قلب سيدنا إبراهيم (ع) دفعه إلى التوجه إلى قومه الذين وقفوا كلهم ضده وأمام رسالته، مخاطبا إياهم بأسلوب فيه الحكمة والمنطق السليم الصادر من إيمانه العميق واندفاعه وحماسه لتبليغ رسالته.ولما كان قومه عبارة عن حشد من الجهلاء لا يعيرونه انتباههم ولا يصغون إليه، فقد لجأ إلى أسلوب آخر، وأجاب على حججهم بآيات بينات.

وفي آية قرآنية يأمر الله تعالى المؤمنين:

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠)


وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ
اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ
(النحل ٣٦)

التفكير العميق والتحرك ضمن خطة

بحثنا في الفصل السابق لجوء سيدنا إبراهيم (ع) على العديد من الوسائل والأساليب في مخاطبة قومه عند التبليغ عن دعوته. ويتضح وجود تخطيط مسبق لما قد يتعرض له أو يجابهه منهم. ويخبرنا القرآن أن الأنبياء امتازوا بمزايا جسمانية وعقلية فائقة وهبها الله لهم وهيئهم لتحمل أعباء الرسالة وتبعاتها من فكر وقاد وحكمة رصينة وعلم غزير وإدراك وبصيرة ثاقبة. وتظهر هذه الخصائص بجلاء في شخص سيدنا إبراهيم (ع). وقد حمل فعلا الأمانة التي كلفها بها الله تعالى وعلى أجمل صورة وأكمل وجه مستخدما كل ما توفرت له من إمكانات في سبيل تبليغ الرسالة إلى قومه.

كان في مواجه سيدنا إبراهيم (ع) حشد من الناس، وصل بهم الحال من الضيق منه إلى تهديده بالنفي أو الرجم بل والقتل والإبادة. غير إنه أفسد عليهم كيدهم وتآمرهم بادعائه المرض فأبعدهم عنه:

﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ (الصافات:٨٥-٩٠)

إن قيام سيدنا إبراهيم (ع) بإبعاد المشركين عنه، يعتبر خطة ناجحة لأنه تخلص من أذاهم وشرهم. وعندما بقي وحيدا قام بتحطيم الأصنام، ولو لم يكن قد قام بهذا الإجراء لما خلا له الجو للتحرك والتصرف مع الأوثان. إن هذه الخطة الدقيقة تدل على مدى عمق الإيمان لديه وشدة تعلقه بربه واندفاعه وشوقه لتنقية أفكار المشركين من الشرك وعبادة الأوثان، وتبليغ رسالة ربه. وقد أظهر شجاعة نادرة بتحمله كافة المخاطر ومتجاوزا المصاعب والعقبات. لم يكن ينتظر أي أفضال أو منفعة من أحد، وقابل السيئة بالحسنة متوخيا بلوغ منزلة رفيعة عند ربه.

إن القرآن يذكر لنا مثالا آخر في تطبيق مبدأ " إظهار الخلل في شيء ما يهدف إنقاذه من يد الظالم"، وذلك في قصة سيدنا موسى (ع) مع الرجل الصالح خضر (ع) وكما ورد في الآية:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (الكهف: ٧١)

﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف: ٧٩)

كان العبد الصالح خضر (ع) قد أعطاه الله علما من لدنه. وقام بخرق السفينة ليعيبها لما يتوقع حصوله في المستقبل.ويرد في الآيات ثناء ومديح لسيدنا خضر، وذكر لفضائله وتقواه وتوكله على ربه، وأنه لا يأتي منه إلا الخير والبركة. فهو عندما خرق السفينة كان له من وراءه أهداف وغايات. لأنه كان يعلم أنه هناك ملك يأخذ كل سفينة غصبا، وبذلك حاول معاونة الفتية المساكين الذين لا يملكون غير هذه السفينة. ودفع عنهم ظلم الظالمين. ولجأ إلى عمل عيب ظاهر في السفينة ليبعد أطماع الملك وكان تخريبه بدرجة مقبولة يمكن إصلاحها مستقبلا بيسر وسهولة، واستخدامها ثانية بعد أن يكونوا قد أنقذوها من الغصب والاستيلاء.

وتوضح الآيات شخصية سيدنا خضر والتزامه بتنفيذ أوامر ربه دون تردد أو تماهل، وشعور الرحمة والشفقة تجاه المقهورين من الناس وقيامه بمساعدة المؤمنين ومعاونتهم، وصبره على الشدائد وقوة قراره وثباته عليه إلى جانب حكمته وعقله الراجح. (لمزيد من التفاصيل، راجعوا : علامات آخر الزمان في سورة الكهف، لهارون يحيى).

وقام سيدنا إبراهيم (ع) بخطة مماثلة بشأن الأصنام عندما حطمها جميعها تاركا صنما واحدا فقط. وعندما رأى المشركون ما حصل لآلهتهم حاولوا اتهام سيدنا إبراهيم (ع) ومعاقبة على ما قام به، وهنا ظهرت الخطة التي كان سيدنا إبراهيم (ع) قد أعدها مسبقا لمواجهة الموقف:

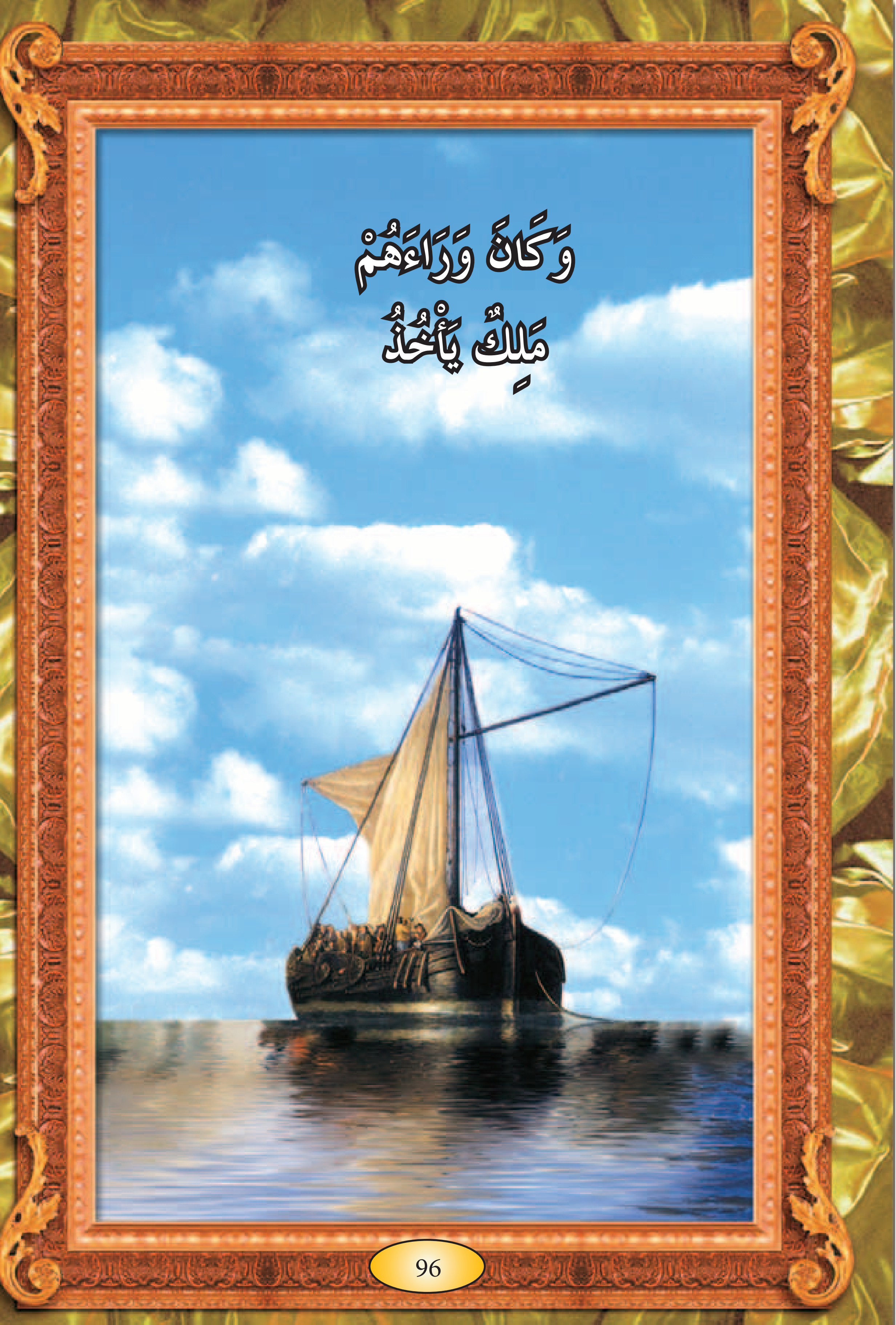
﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦٣)

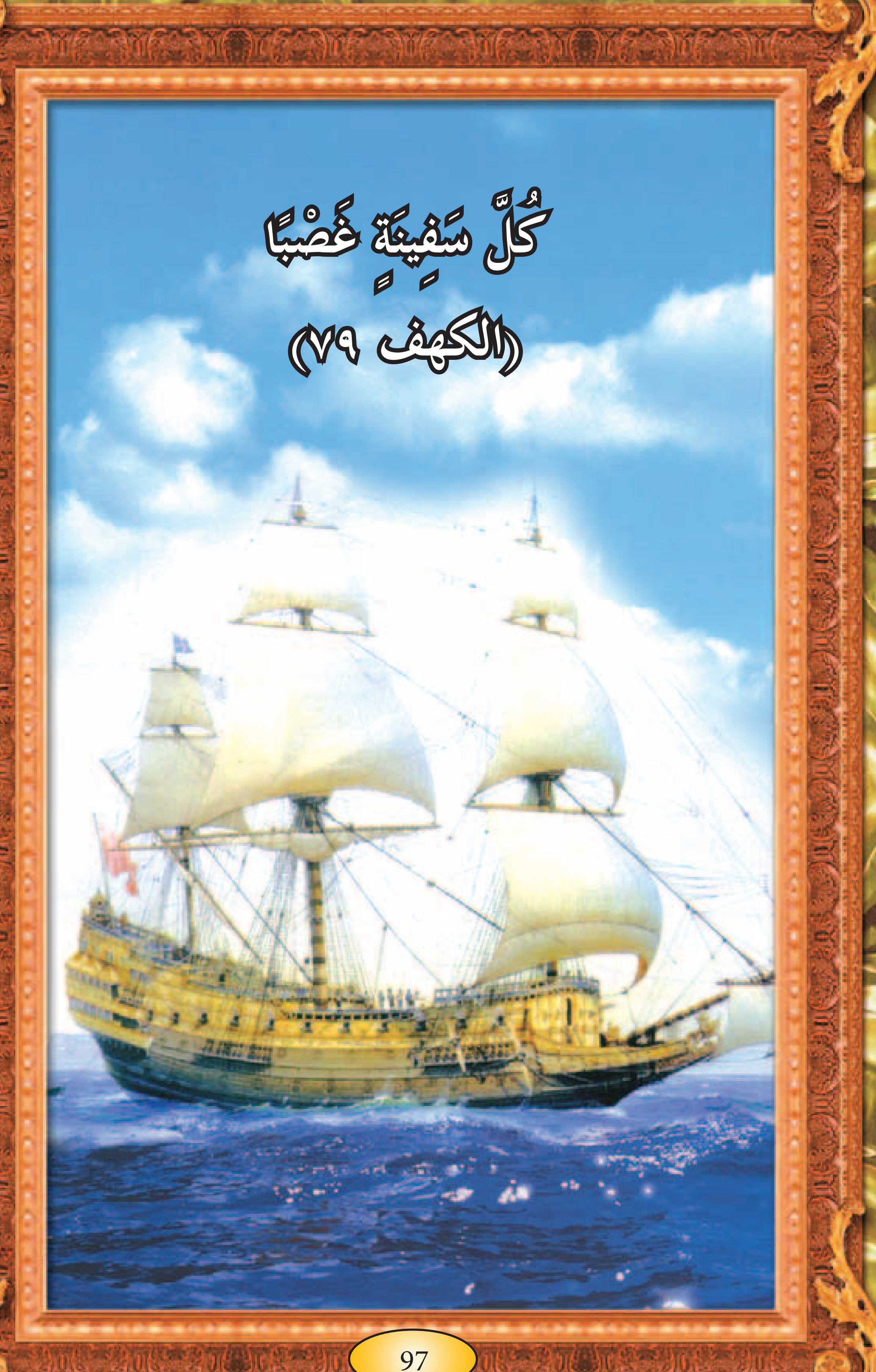
هذا الجواب المفحم من سيدنا إبراهيم (ع) وضع القوم في موقف محرج أمام حقيقة كونهم يعبدون أصناما جامدة من أحجار وأخشاب صماء يدّعون قدرتها على التحكم في تسيير أمور الكون. وفي وقت وقعت صاغرة وحقيرة ومتناثرة الأجزاء. ولم يحيروا جوابا. ذلك لأن الأصنام الجامدة لم تستطع عمل أي شيء لحماية نفسها ودفع الضرر والأذى عنها. هذه حقيقة واضحة أمامهم لا يقدرون ردها أو إنكارها، ولكنهم لا يقدرون على الاعتراف بها رغم اقتناع ضمائرهم ودواخل أنفسهم. وسبب هذا التعنت ذكره القرآن الكريم بـــ

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (النمل: ١٤).

ومما يلاحظ في دعوة سيدنا إبراهيم (ع) هو قيامه بتسفيه آراء وعقائد قومه بشكل تام قبل أن يقوم بتبليغهم برأي بديل. وهذا فضل كبير من الله عندما أعطاه الحكمة البالغة وحسن الخطاب والحجة المقنعة، والتي أظهرها جميعا في أساليب دعوته وقضى تماما على ما كان يتوسل به قومه من مبادئ وعقائد منحرفة بعد أن عرى حقيقتها وأظهر بطلانها. هذا الرسول الكريم الذي أرسله ربه نذيرا ومنقذا لقومه استطاع بفضل الله وعونه أن يظهر بطلان وخسران الشرك، وتقديم دين الحق المبين وعقيدة التوحيد وعبادة رب العالمين المقتدر على جميع خلائقه.

هذه الدعوة الإلهية وما اتبعها سيدنا إبراهيم (ع) من وسائل التبليغ التي ذكرناها، تعتبر قدوة صالحة لكل المؤمنين لأخذ الدروس منها والإقتداء بها في بيان ونشر الأخلاق القرآنية. وقد أظهر سيدنا إبراهيم (ع) مدى الحكمة في اتباع أسلوب تفنيد وتهوين رأي المشركين قبل البدء بتقديم الرأي البديل المستمد من الوحي الإلهي في الدعوة إلى عبادة الواحد الأحد الذي بيده ملكوت كل شيء والمحيط بكل المخلوقات التي أوجدها من العدم، صاحب


وَكَانَ وَرَاءَهُمْ
مَلِكٌ يَأْخُذُ

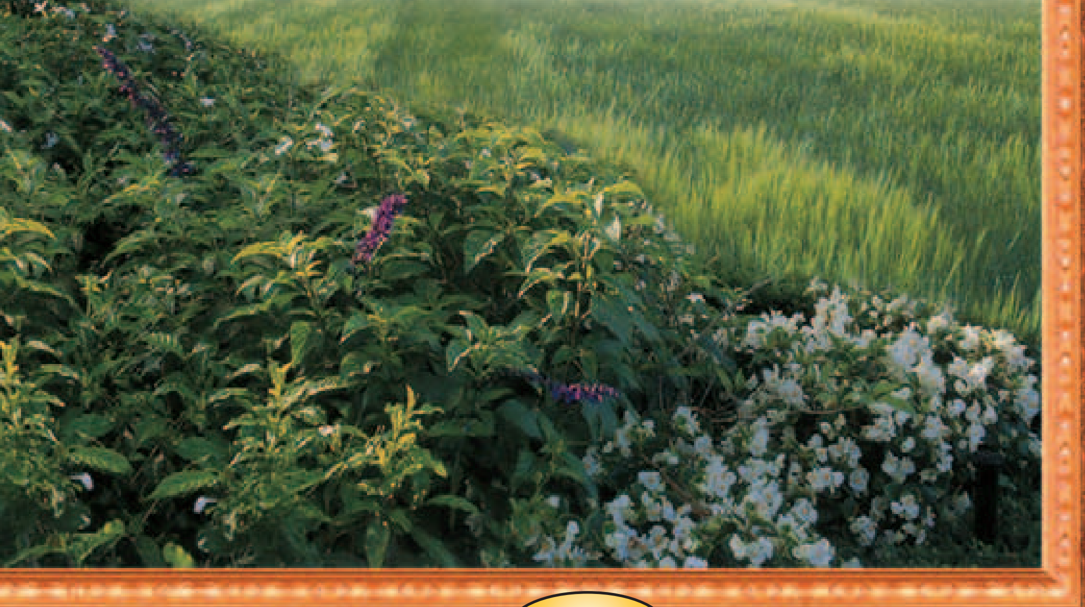

كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا
(الكهف ٧٩)

القدرة والجبروت والذي بفضله وإرادته – إذا ما شاء ذلك- يفتح قلوب البشر أمام دين الحق بيسر وسهوله.

هذا الجواب المفحم من سيدنا إبراهيم (ع) وضع القوم في موقف محرج أمام حقيقة كونهم يعبدون أصناما جامدة من أحجار وأخشاب صماء يدّعون قدرتها على التحكم في تسيير أمور الكون. وفي وقت وقعت صاغرة وحقيرة ومتناثرة الأجزاء. ولم يحيروا جوابا. ذلك لأن الأصنام الجامدة لم تستطع عمل أي شيء لحماية نفسها ودفع الضرر والأذى عنها. هذه حقيقة واضحة أمامهم لا يقدرون ردها أو إنكارها، ولكنهم لا يقدرون على الاعتراف بها رغم اقتناع ضمائرهم ودواخل أنفسهم. وسبب هذا التعنت ذكره القرآن الكريم بـ

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (النمل: ١٤).

ومما يلاحظ في دعوة سيدنا إبراهيم (ع) هو قيامه بتسفيه آراء وعقائد قومه بشكل تام قبل أن يقوم بتبليغهم برأي بديل. وهذا فضل كبير من الله عندما أعطاه الحكمة البالغة وحسن الخطاب والحجة المقنعة، والتي أظهرها جميعا في أساليب دعوته وقضى تماما على ما كان يتوسل به قومه من مبادئ



وعقائد منحرفة بعد أن عرى حقيقتها وأظهر بطلانها. هذا الرسول الكريم الذي أرسله ربه نذيرا ومنقذا لقومه استطاع بفضل الله وعونه أن يظهر بطلان وخسران الشرك، وتقديم دين الحق المبين وعقيدة التوحيد وعبادة رب العالمين المقتدر على جميع خلائقه.

هذه الدعوة الإلهية وما اتبعها سيدنا إبراهيم (ع) من وسائل التبليغ التي ذكرناها، تعتبر قدوة صالحة لكل المؤمنين لأخذ الدروس منها والإقتداء بها في بيان ونشر الأخلاق القرآنية. وقد أظهر سيدنا إبراهيم (ع) مدى الحكمة في اتباع أسلوب تفنيد وتهوين رأي المشركين قبل البدء بتقديم الرأي البديل المستمد من الوحي الإلهي في الدعوة إلى عبادة الواحد الأحد الذي بيده ملكوت كل شيء



والمحيط بكل المخلوقات التي أوجدها من العدم، صاحب القدرة والجبروت والذي بفضله وإرادته – إذا ما شاء ذلك- يفتح قلوب البشر أمام دين الحق بيسر وسهوله.

سيدنا إبراهيم (ع) يستقبل رسل ربه

من نعم الله تعالى على سيدنا إبراهيم (ع) إرسال الملائكة لنصرته ودعمه، وكما يخبرنا القرآن فقد أتاه رسل ربه على صورة وشكل بشر:-

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٤-٢٥)

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (هود:٦٩)

ويظهر أن سيدنا إبراهيم (ع) أدرك أن ضيوفه ليسوا بأناس عاديين.

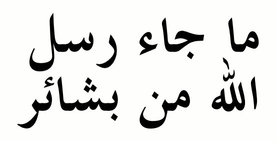


فقدم لهم من صنوف التكريم وحسن الضيافة، مما يظهر سلامة التصرف المطلوب من المسلمين الالتزام به، وهي إكرام الضيف حتى قبل أن يبادر بطلبه، وكما قام به سيدنا إبراهيم (ع) في إعداد ما يتطلبه هذا التكريم دون إشعار الضيوف بها مقدما.

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِه فَجَاءَ بعجْلٍ سَمِينٍ فقَرَّبَهُ إِلَيْهِم قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (الذاريات :٢٦-٢٧)

لم يسألهم إذا ما كانوا بحاجة إلى طعام ولم يشعرهم أنه أعد لهم عشاءهم، لأن الضيف عادة يتردد في إظهار أي طلب من مضيفه وخاصة حاجته إلى الطعام. إن إعداد متطلبات الضيافة التي أبداها سيدنا إبراهيم (ع) دليل على مدى الاهتمام والتقدير لضيوفه، عندما قدم لهم " عجلا سمينا" يدل على التقدير العالي وحسن الضيافة بأجمل صورة. وعندما دعاهم " ألا تأكلون" أظهر أيضا من الآداب الرفيعة ما تصلح أن تكون مثالا.





ما جاء رسل الله من بشائر

هذا التصرف الغريب من الضيوف تجاه مضيفهم رغم ما أظهره من كرم وحسن استقبال وضيافة، أوجد لديه بعض الشكوك واقتنع أن وراءهم أمر جلل. وهنا أظهر هؤلاء الملائكة الذين تقمصوا صورة بني البشر، أدبا جما وتصرفا لائقا معه، مما زاد من حيرته معهم. وأخيرا كشف الضيوف عن هوياتهم الحقيقية وفاجأوه بإخباره



البشارة بولادة خلف له:

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ **(الحجر:٥٢-٥٣)**

أمام هذا الخبر المفاجئ، سيطرت الحيرة عليه وعلى زوجته لأنهما كانا قد تقدما في العمر كثيرا، ولأن امرأته كانت عاقرا، وجاء جوابه لضيوفه:

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ **(الحجر:٥٤-٥٥)**

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ **(هود:٧١-٧٢)**

اعتبر سيدنا إبراهيم (ع) هذا الخبر المفرح معجزة كبرى، وعندما سألتهم زوجته كيف يتسنى لها أن تلد وهي بهذا العمر، جاءها الجواب:
(قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ(٣٠) (الذاريات). وفي آية أخرى



يذكر الله حيرة إبراهيم وزوجته والتي ما كان لها أن تحصل:

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (هود:٧٣)

وأخيرا قام الضيفان بتذكير سيدنا إبراهيم (ع) :

﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (الحجر:٥٥)

أن اليأس والقنوط من رحمة الله من صفات المبتعدين عن الدين وتعاليمه. الذين يقعون في الإحباط عندما لا تتحقق إحدى أمنياتهم. وهذا فيه الكثير من معاني عدم التقدير لرب العالمين. ولكن سيدنا إبراهيم (ع) كان من حسن الشيم ما جعله يتوقع أن تصيبه رحمة ربه في كل آن وحين.

إن المؤمن يعرف قدرة الله تعالى ويدركها جيدا. ويأمل من ربه تحقيق مطاليبه وهو واثق منه تعالى. وهنا يجب عدم نسيان حقيقة أن الله هو الذي يتحكم ويقدّر تهيئة الأسباب التي تأتي منها النتائج، وهو الذي خلق وأوجد سنن الطبيعة وقوانينها. وإذا أراد تحقيق أمر فيكفيه أن يقول له " كن" فيكون. ولأن كل شيء ممكن عند الله، فالمؤمن يبقى على أمل وثقة دائما. وفي الآية يظهر لنا الله قدرته المطلقة:

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (البقرة:١١٧)

هذا السر الإلهي الذي فهمه وأدركه الإنسان المؤمن، يجعله يعتقد جازما أن كافة المصاعب والعقبات التي تظهر أمامه إنما هي من تقديره. تعالى، فالذي أوجد وخلق " العقم" قادر على عكس الأمر تماما. وهذا ما حصل فعلا في قصة سيدنا إبراهيم (ع)، فأنعم عليه ربه بخلف صالح رغم تقدمه في العمر ووضع


إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي
بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ
(ياسين ٨٣)

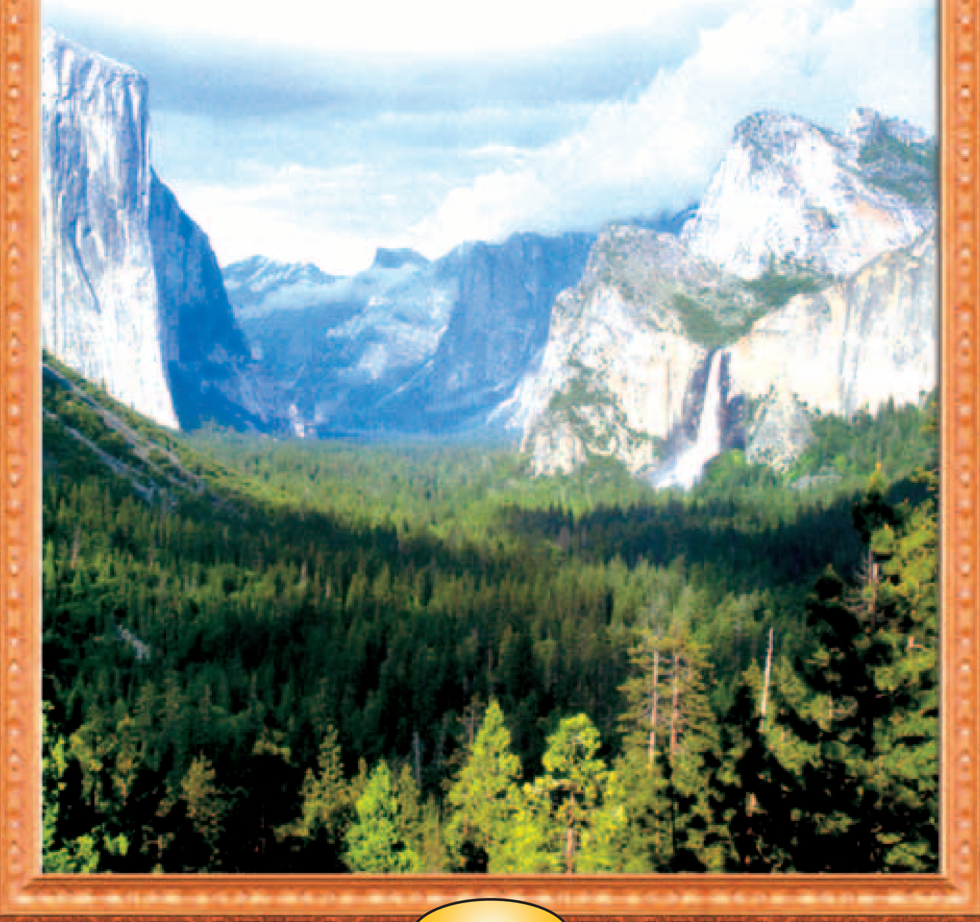
زوجته العاقر. فالذي يحي ويميت والذي ينعم بالحياة هو الله جل شأنه.

هكذا يخبرنا الله تعالى عن إحدى معجزاته حينما منح سيدنا إبراهيم (ع) وزوجته طفلهما في وقت لم يخطر ذلك على بالهما لاستحالة الأمر كما يظهر لهما. وربما في هذه الرواية تلميح واشارة من بعيد إلى إمكانية إيجاد علاج للعقم كما يحصل في أيامنا هذه نتيجة الأبحاث الطبية والتقدم العلمي (والله أعلم ...).

ما جاء الرسل من أخبار

كان الخبر الأول الذي جاء بها الرسل إلى سيدنا إبراهيم (ع)، البشارة بولادة طفل له سوف يكون من الصالحين. والخبر الآخر هو عن هلاك وفناء قوم لوط (ع) الذي كان قد آمن معه (كان سيدنا لوط (ع) قد أرسله الله إلى قوم يعملون الخبائث، لإرشادهم إلى الهداية وترك هذه العادة القبيحة – إتيان الذكور دون الإناث–. وكان قد عاصر سيدنا إبراهيم (ع) وعاش في نفس المنطقة الجغرافية. (سنورد تفاصيل عن حياته وسيرته في القسم الثاني من الكتاب).

ويذكر لنا القرآن كيف جاء سرد هذا الخبر:–



﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الذاريات: ٣١-٣٤)

ثم تستمر الآيات في سرد ما جرى بين رسل الله وسيدنا إبراهيم (ع):-

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ

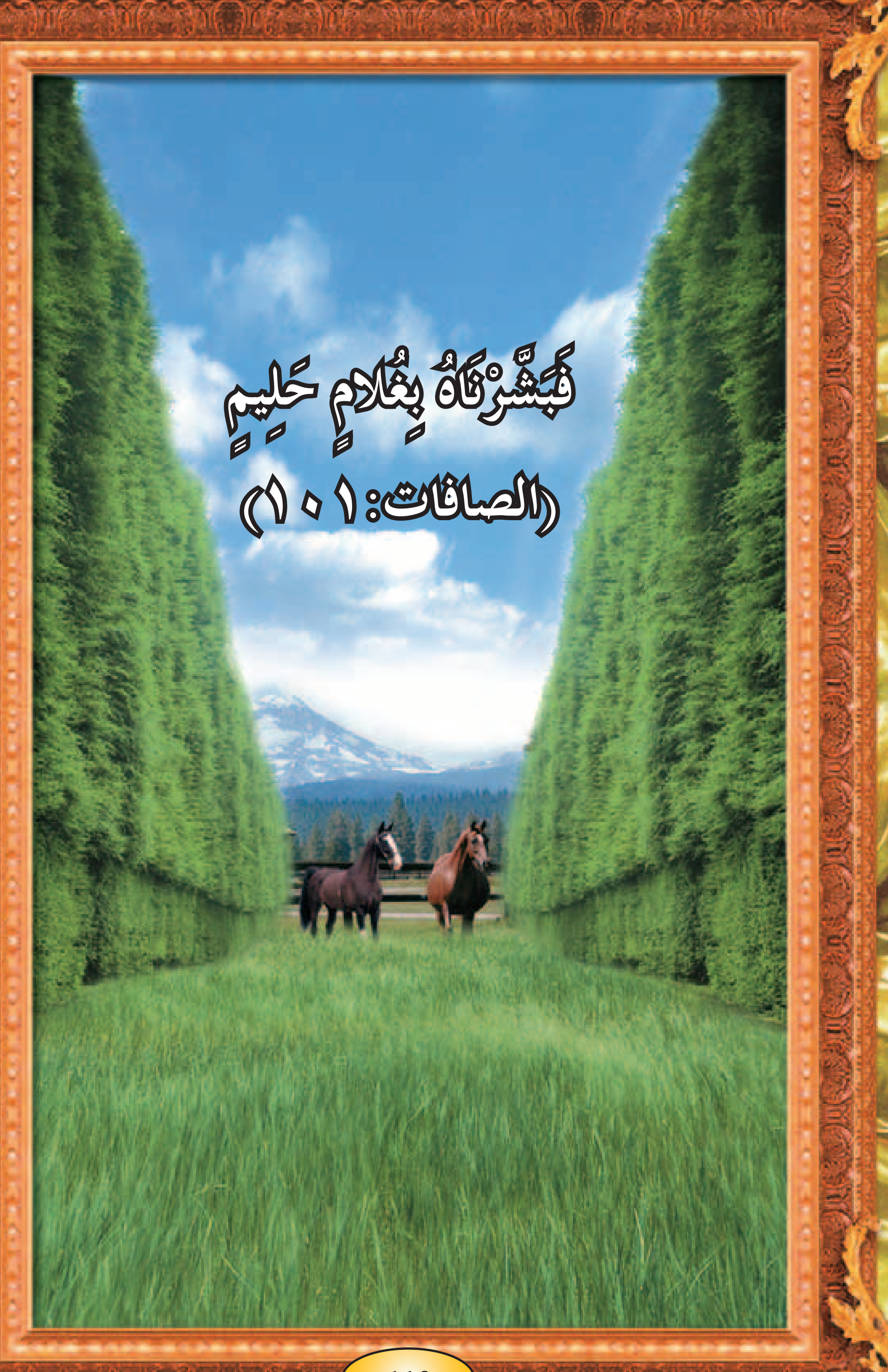
﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣١-٣٢)

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود: ٧٦)

وفي سورة أخرى، يرد خبر هلاك قوم لوط على الشكل الآتي:

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾﴿إِلا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (الحجر: ٥٨-٦٠)

إن الله تعالى أخبر في كتابه الحكيم أن المؤمنين لن تصيبهم أذى رغم عيشهم وسط قوم من الكفار والمشركين والذين يعادون الله ورسله. ولهذا فقد أخبر الرسل سيدنا إبراهيم (ع) وسيدنا لوط (ع) ما ينبغي لهما أن يقوما بها من إجراءات وقائية، وعلى أثر ذلك هاجرا ومن معهما من المؤمنين وابتعدوا عن تلك المناطق التي سوف تتعرض لغضب الله.


فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ
(الصافات: ١٠١)

أبناء سيدنا إبراهيم (ع)" سيدنا إسماعيل وسيدنا اسحق (ع)"

جاءت البشارة بإنعام الله على سيدنا إبراهيم (ع) بولد صالح بعد أن كان قد دعا ربه أملا في لطفه وكرمه عليه بهذا الشأن :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات:١٠٠)

كان دعاؤه من الله أن يسعده بإنسان صالح وليس مجرد خلف من نسله، ليقوم من بعده بتحمل مسؤولية الاستمرار بالدعوة إلى الله وتوحيده. وظهر من جوابه إلى ضيوفه الرسل عدم توقعه ولادة من يخلفه. عند ذلك جاءته البشرى من ربه " غلام حليم" :- **﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِي الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ (الحجر:٥٤)**. ولكن الله تعالى أظهر إحدى معجزاته ووهب له ولدا صالحا من امرأته العاقر بعد أن بلغا من العمر عتيا:-

هذه المعجزة الربانية في قصة سيدنا إبراهيم (ع) تكررت وبنفس الصيغة مع سيدنا زكريا (ع)، حيث بشره ربه بولد صالح يخلفه من بعده:-

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ﴾ (مريم:٢-٩)

وكان سيدنا زكريا قد دعا ربه أيضا بولد يخلفه ويرثه من بعده، وهنا لا بد أن نذكر أن الهداية هبة من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص:٥٦)

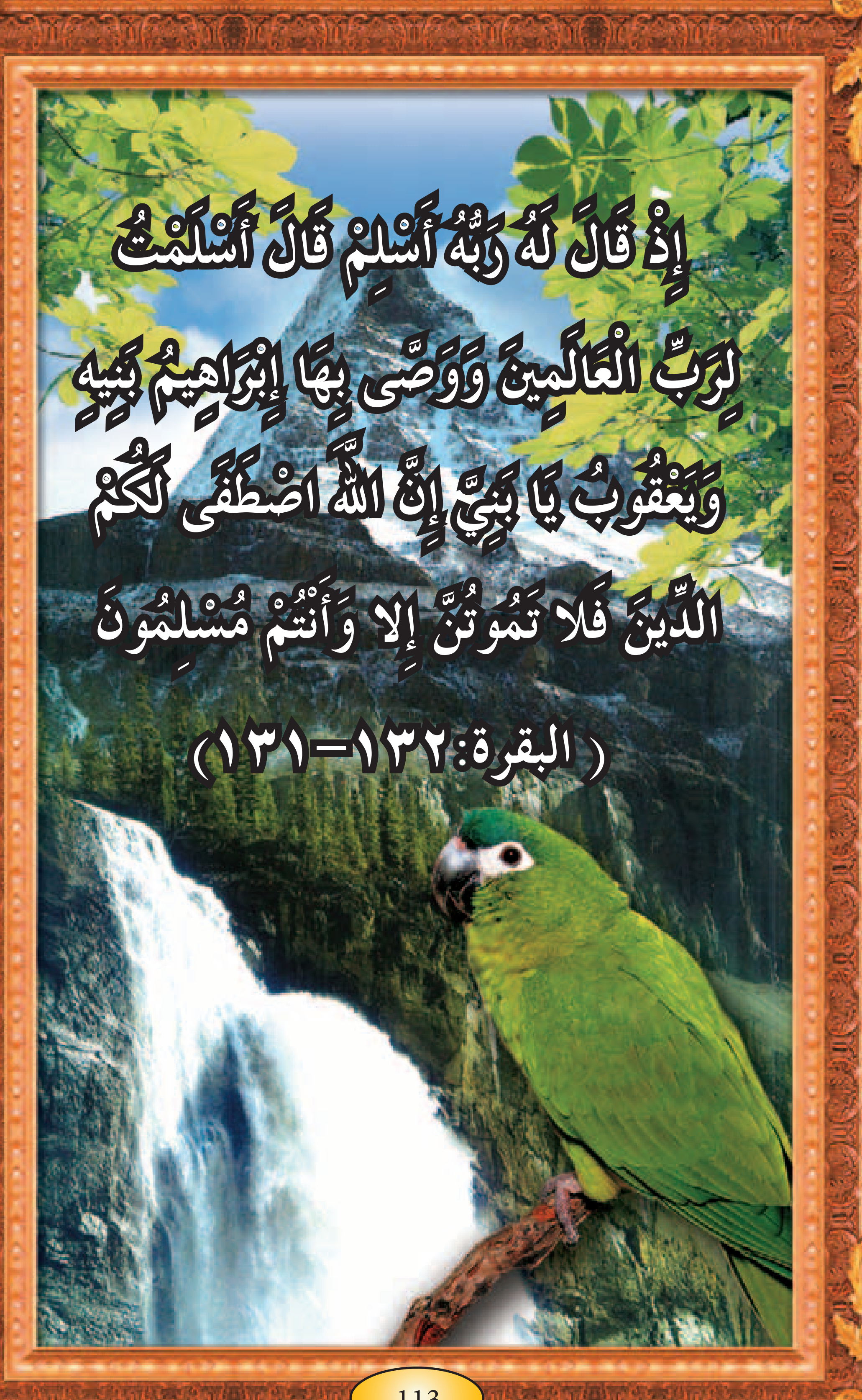
ولنا في سيدنا نوح (ع) خير مثال. فهذا النبي الكريم الصابر على كفر قومه والذي بذل في سبيل هدايتهم الجهود المضنية طوال سنين عديدة يدعوهم فيها، كان ابنه ممن لم يهتدوا معه بل أصر على الكفر والعصيان، فأهلكه الله مع بقية قومه من الكفار وغرق معهم في الطوفان

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (هود:٤٣)

لقد بشر الله سيدنا إبراهيم (ع) بأولاد صالحين. ويذكر لنا القرآن أنهم من أنبيائه المختارين ومن الصالحين والخاشعين من عباده، وهما سيدنا إسماعيل وسيدنا اسحق (ع) اللذان كانا خير خلف لخير سلف من حيث الالتزام بالخلق والشيم الفاضلة من التوكل على ربهم والسعي لكسب رضاه ورحمته. وبعد أن جاءته البشرى سارع سيدنا إبراهيم (ع) إلى مناجاة ربه مبديا من الشكر والثناء ما ورد نصه في القرآن:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (إبراهيم:٣٩)

يصف القرآن مزايا سيدنا إسماعيل (ع) بأنه كان صديقا نبيا وكان صادق الوعد ومن المرسلين


إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ
الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
(البقرة:١٣٢–١٣١)

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (مريم: ٥٤-٥٥)،

وأن الله رضي عنه وأرضاه.

أما سيدنا اسحق فقد رزقه الله بابنه (سيدنا يعقوب (ع)). كان سيدنا إبراهيم (ع) لا يزال على قيد الحياة، وكان من عباد الله الصالحين ونبيا من الصادقين وأنعم عليه ربه نعمة كبرى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ (يوسف:٧) ، ويثني عليه القرآن الكريم بأنه كان من الذين يبغون الآخرة على الحياة الدنيا وأنه كان على خلق عظيم .

وترد في آيات عديدة أوصاف وخصال اسحق ويعقوب (ع) وما كانا يتمتعان به من أصالة وشيم عالية:

﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ (ص:٤٦-٤٧)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٢-٧٣)

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات:١١٢)

إن الله تعالى أثنى على سيدنا إبراهيم (ع) وورد ذلك في القرآن الكريم ذاكرا صفاته الحميدة من الإيمان العميق وتوجهه إلى الله وتوكله الكامل عليه. ولعله يعتبر خير قدوة للمؤمنين في صبره وحلمه وما أظهره من ثبات وإيمان وثقة بالله عندما تحل المصاعب والملمات.وفي دعائه لأولاده يظهر مدى

الاهتمام المخلص:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم:٣٧)

وسوف نورد جملة من الآيات عن عناية الله ولطفه ورعايته لآل إبراهيم:

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف:٦)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (العنكبوت:٢٧)

﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ (ص:٤٧-٥٤)

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (مريم:٤٩-٥٠)

ويذكر الله تعالى في آيات الذكر الحكيم، المقام الرفيع لسيدنا إبراهيم (ع) وذريته من بعده، الذين وهبهم الكتاب والحكمة والنبوة والحكم:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ

إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٥٤)

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصافات:١٠٨-١١١)

لقد كرم الله سيدنا إبراهيم (ع) بذرية صالحة وخلف مبارك وورث أبناء من أنقى وأفضل الناس. وقد قاموا من بعده بالسير على هداه وسلكوا سبيله في الدعوة إلى نشر الإيمان والهدى بين أقوامهم، رغم ما أبدوه من الشدة والقسوة تجاه الأنبياء، حيث كانوا أقواما شديدي الكفر والطغيان والجبروت.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنعام:٨٤)

وهكذا استمر أولاد سيدنا إبراهيم (ع) معه في حمل أعباء الرسالة الإلهية وتبليغها إلى الناس ودعوتهم إلى الإيمان بالله رب العالمين. وكان بناء بيت الله على الأرض ورفع بنيان الكعبة المشرفة على يد سيدنا إسماعيل (ع) ومشاركته أباه.

قيام سيدنا إبراهيم بإعادة بناء الكعبة

ذكر لنا القرآن قيام نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل (ع) برفع قواعد الكعبة المشرفة، وهي أول بيت وضع للناس لعبادة الواحد الأحد. وتقع في مدينة المكة المكرمة في أرض العرب. وهي أول بيت وضع للناس ..." وفيها " مقام إبراهيم..." كما جاء الخبر في الآيات القرآنية:

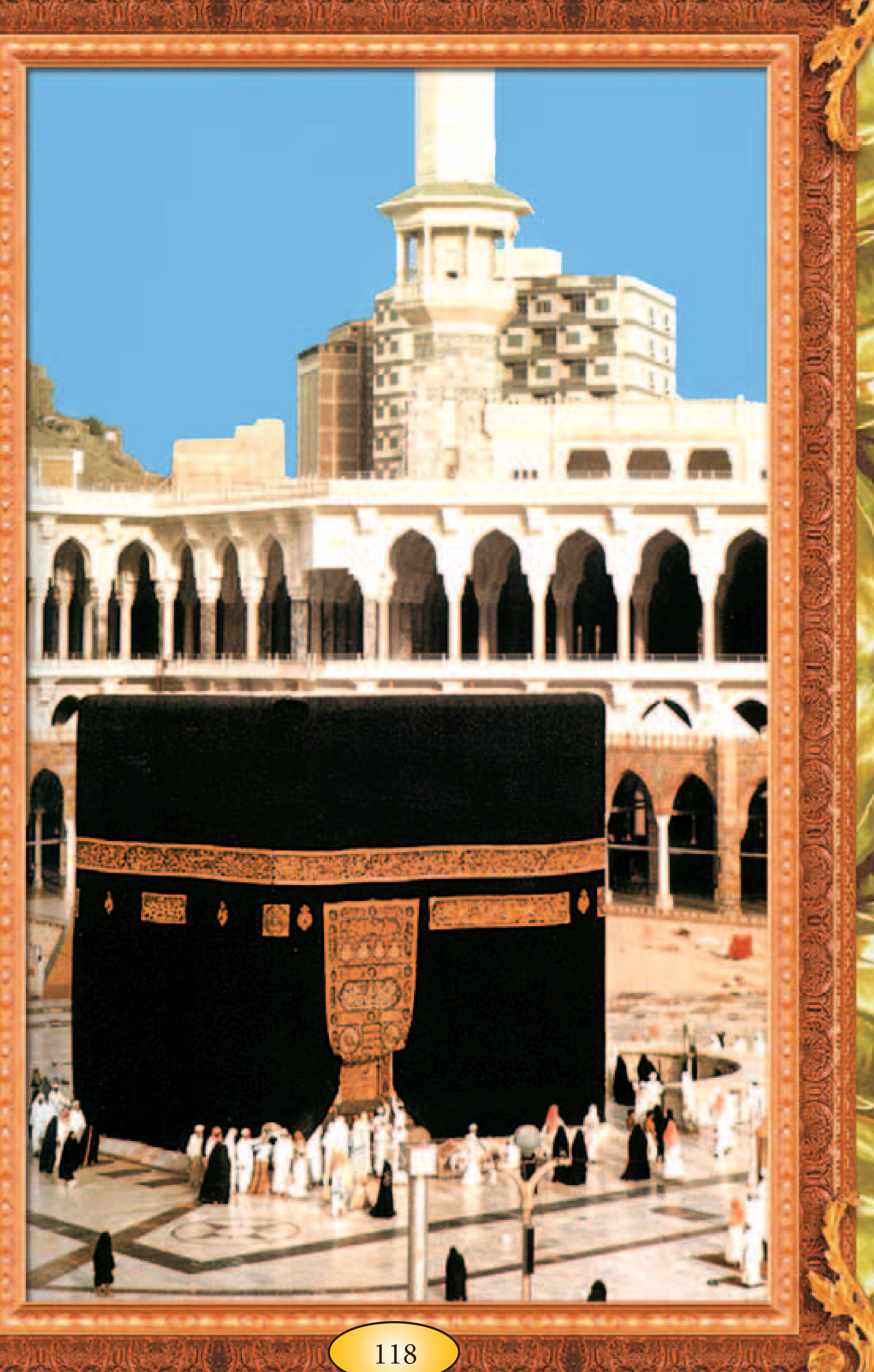
﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧)

وقد حقق ونفذ سيدنا إبراهيم (ع) الواجب الإلهي الذي كلف به وهو إعادة بناء الكعبة مع سيدنا إسماعيل (ع)، ويذكر القرآن عن هذا الموضوع وما أوحى الله إلى نبيه:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (الحج: ٢٦-٢٨)

لقد أمرهما الله بتطهير الكعبة. وهذا يتحمل معنى فعليا وماديا كما يعني تطهيرا معنويا أيضا، ولعله يعني الاثنين معا، أي إبعاد الأدران والأوساخ عن بيته ومنع دخول رموز الكفر والشرك إليه وما يأتي بها المشركون من آثام. وجاء خبر بناء الكعبة في الآية :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ



أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٧)

وحينما كان إبراهيم وإسماعيل (ع) يقومان بالبناء ووضع اللبنات، لم ينقطعا عن الدعاء والتضرع إلى الله ومناجاته وذكر أسمائه الحسنى. وهكذا يعلمنا الرسل الكرام ضرورة ذكر اسم الله والدعاء منه في كل ما نقوم به من إجراءات أو ننوي عمله، وتقديم الحمد والشكر له أولا وأخيرا. والله يعلم ما تخطر في الأنفس وما هو أخفى من السر، وهو يسمع ويرى مخلوقاته في كل آن وحين. والمؤمنون يعلمون أن الله يقبل الدعاء ويستجيب له إذا ما كان خالصا لوجهه، وإن الدعاء عبادة وتقرب في حد ذاته. وبعض الناس يعتقدون أن للدعاء أوقاتا معينة وفي أماكن ومواقع محددة فقط، وضمن صيغ وعبارات مسبوكة لفظا وبشكل خاص. بينما تظهر لنا الآيات، أن دعاء الأنبياء (وكذلك المؤمنين) يمكن أن يكون في أي وقت وبأي شكل، قائما كان أم قاعدا أو على جنوبهم، وفي كل أمر ينوي المؤمن القيام به، ولا توجد أية تقييدات أو تحديدات أو قواعد ملزمة لكيفية إجراء الدعاء والتضرع، حيث يستطيع الإنسان أن يتوجه إلى ربه في أية ساعة، ويذكره بقلبه ويناجيه بأسمائه الحسنى.

وقد قام سيدنا إبراهيم (ع) مع ابنه إسماعيل بتمجيد ربهما والدعاء منه عندما باشرا بإنشاء قواعد البيت، وحمدا الله وأثنيا على نعمه، وكبراه تكبيرا وتعظيما، ذاكرين عظيم قدرته وسعة علمه وحكمه الذي يسع كل شيء، وهو



يسمع ويرى ويقدّر الأمور في الكائنات. يقول تعالى في آية:

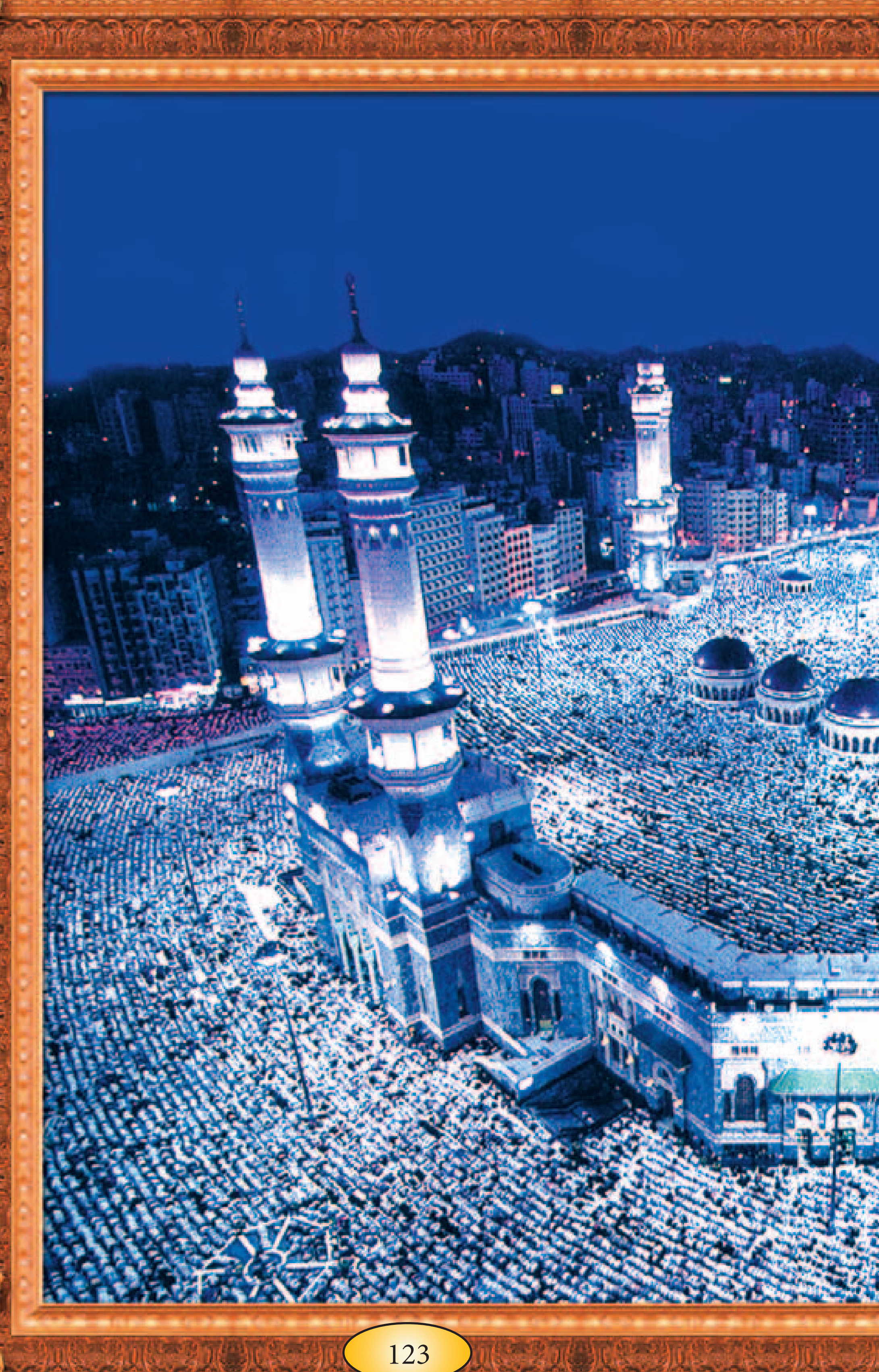
﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٠)

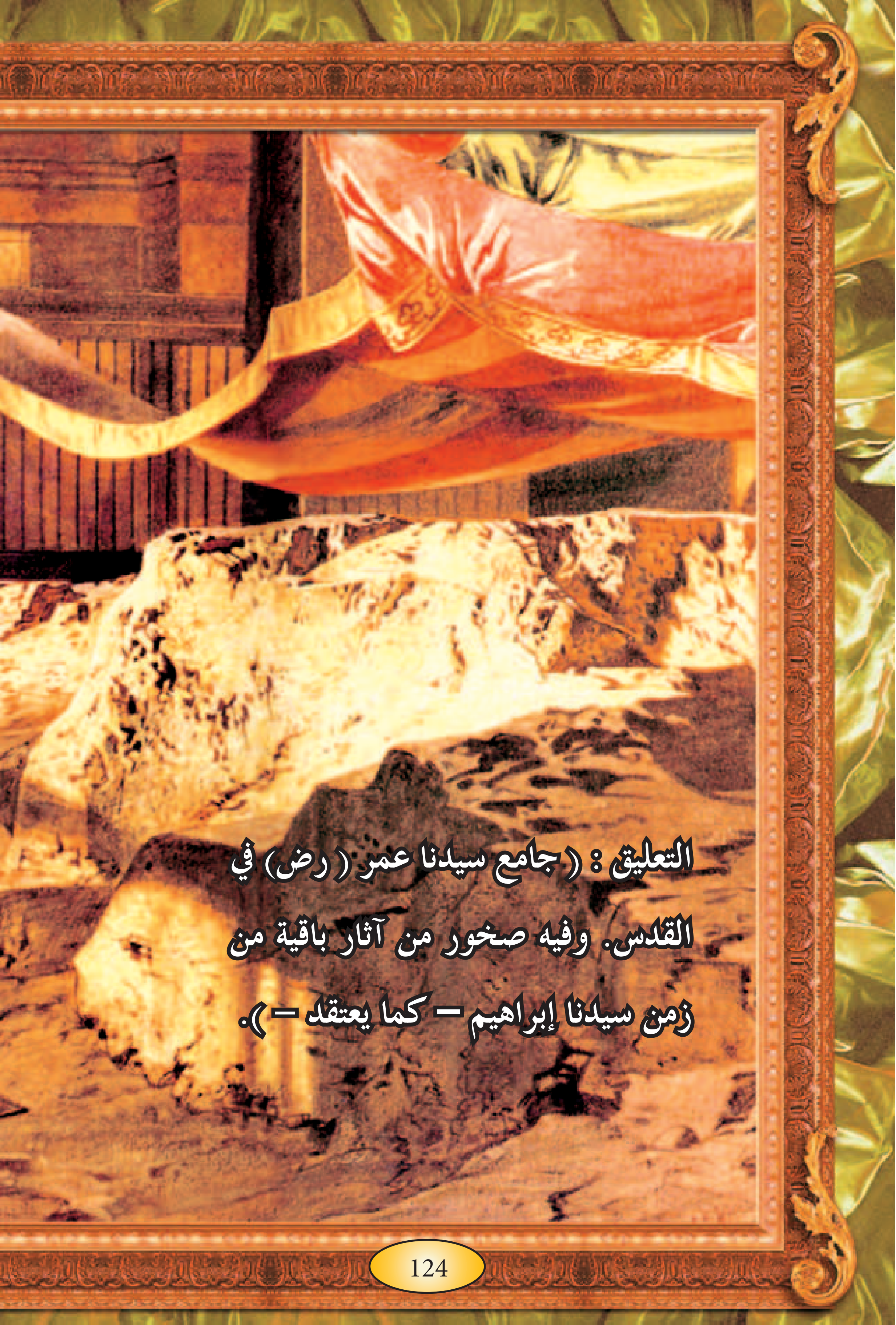
إن الدعاء إلى الله والتضرع إليه ومناجاته وذكر أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى والاعتراف بقدرته على المخلوقات جميعها، ومعرفته بما يجري أينما كان، هي من علامات الإيمان العميق والتقوى لدى العباد. وما وردت في القرآن من أشكال وألفاظ للأدعية التي جاءت على لسان الأنبياء، إنما تشكل نماذج صالحة لاستعانة المؤمنين بها وذكرها من قبلهم أيضا.



مقام إبراهيم (ع)، حيث كان يتخذه موقعا لرفع قواعد البيت – الكعبة المشرفة– عند بنائها.).

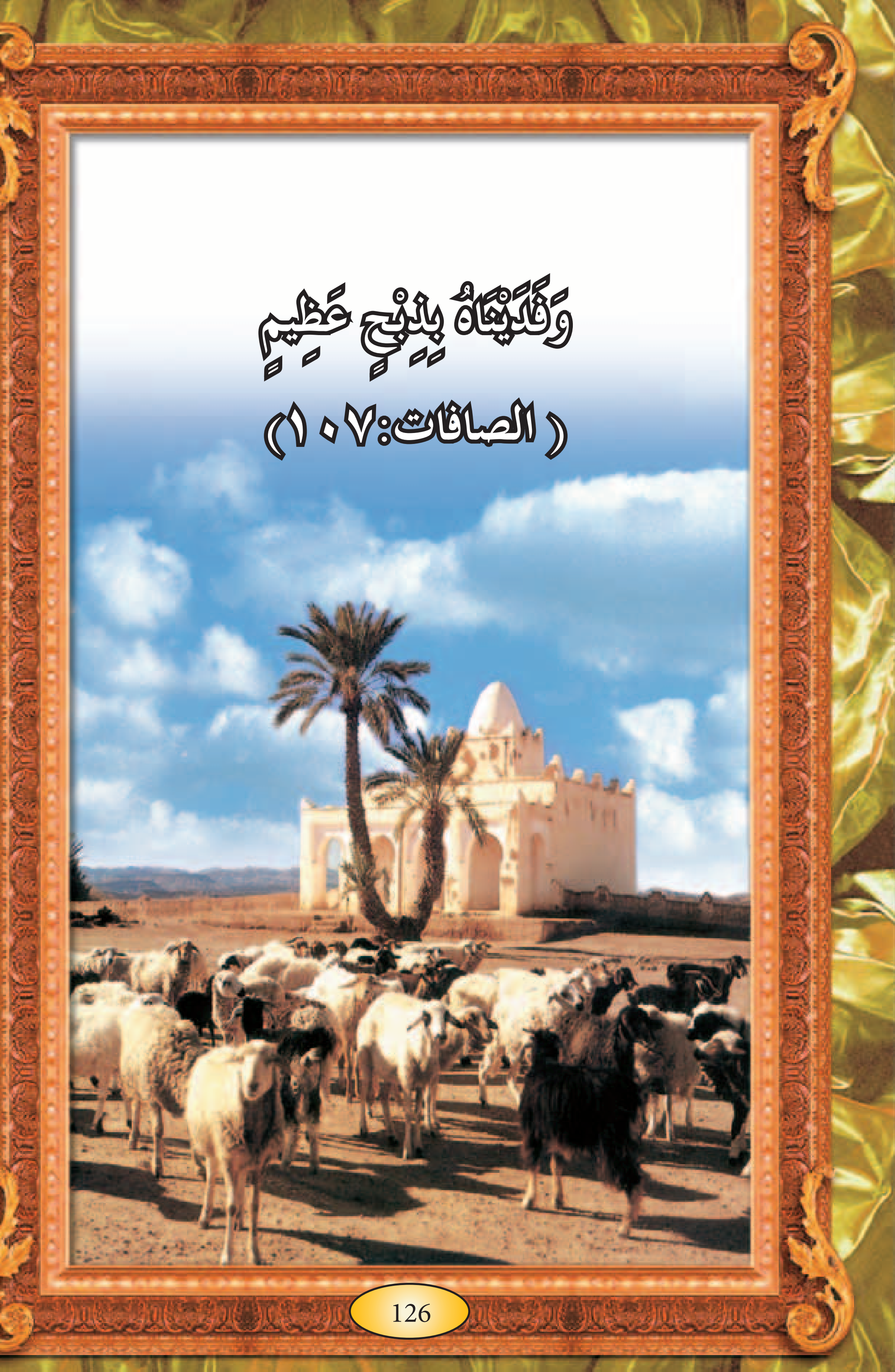






التعليق : (جامع سيدنا عمر (رض) في القدس. وفيه صخور من آثار باقية من زمن سيدنا إبراهيم – كما يعتقد –).




وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ
(الصافات:١٠٧)

امتحان سيدنا إبراهيم (ع) في ذبح ولده

قصة الفداء والذبح إحدى الحوادث التي يذكرها القرآن، وتتعلق بالامتحان الذي تعرض له سيدنا إبراهيم (ع) مع سيدنا إسماعيل (ع):

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات:١٠١-١٠٧)

يتفق المفسرون أن الآية تؤكد تعرضهما إلى امتحان واختبار وأنهما اجتازا هذه المحنة بنجاح. يذكر المفسر التركي أحمد يازير آلماليلي أن الرؤيا التي تجلت لسيدنا إبراهيم (ع) كان وحيا ربانيا وأنه سرعان ما استجاب لأمر ربه، ويفسر ما تعاقبت في الآيات على النحو الآتي:

(" ... وعلى أثر هذا الأمر الرباني، لم يحاول أن يقوم بالتنفيذ القسري وأنما بعد الاستشارة، ليتأكد من طاعته له واستجابته لأمر الله مبتغيا الأجر والثواب منه. ومما يدعو إلى التأمل في هذا، الخطاب الأبوي الشفوق بقوله " يا بني" وما كان يجول في نفسه وقلب الأب من مشاعر وأحاسيس وما كان يعنيه هذا التكليف والواجب من حبّ وتعلق بالله تعالى. وبالمقابل جاء الجواب من الابن الصالح الطيب والمسامح " يا أبت..." مدركا هذا الأمر الإلهي وواجب الصبر والتحمل في تنفيذه. "

... افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله مع الصابرين"[٥]

ويقول المفسر الآخر " عمر نصوحي بيلمن" عن هذا الامتحان الذي تعرض له سيدنا إبراهيم (ع) مع ولده: (استجاب نبينا إبراهيم (ع) وولده إسماعيل (ع) لأمر الله وسلما أمريهما إليه، وحينئذ قام سيدنا إبراهيم (ع) باتخاذ الخطوة الأخيرة " أسلم وتله للجبين" معتبرا ما جاءه في الرؤيا وحيا من ربه، واجب التنفيذ. ولكن ربه أدركه برحمته وأخبره أنه قد صدق الرؤيا، ومثنيا على ما أبداه من الصبر والطاعة. وهكذا استدركته رحمة الرحمن واستبدل فداء ولده بغنيمة يقوم بذبحها، وأنقذته من هذه التضحية العظمى" [٦]

وكما يفهم من تفسير الآيات المذكورة " فإن سيدنا إبراهيم (ع) وولده سيدنا إسماعيل (ع) قد تعرضا إلى امتحان واختبار رهيب واجتازاه مبدين كل الطاعة والانصياع القلبي، والصبر الجميل لأمر الله تعالى. هذه الخصال الحميدة تعتبر قدوة وخير مثال لكافة المؤمنين للاسترشاد به في حياتهم لما تتضمنه من صبر وثبات وإصرار على المضي في الالتزام بأوامر الله تعالى دون تردد أو تخاذل أمام المصاعب والعقبات التي يتعرضون لها نتيجة التزامهم طريق ربهم.

وتستمر الآيات في ذكر هذا الامتحان، كما في سورة الصافات:

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات: ١٠٨-١١١)


(حسبما ورد في العهد القديم – المحرف– فإن سيدنا إبراهيم وزوجته سارة مدفونان في
أحد كهوف مدينة الخليل في فلسطين التي هي تحت الاحتلال الإسرائيلي الآن).



يرد في القرآن الكريم ذكر الكثير من الأخلاق العالية والخصال الحميدة لأنبياء الله ورسله الكرام، ومما يمتازون به من صبر جميل وثبات وإيمان صادق وإخلاص وتفان. وعن سيدنا رسول الله (ص) تتحدث الآيات عما كان عليه من إيمان عميق وخلق رفيع وتسليم تام وخشية وتقوى، وعن قوته وبأسه أمام الكفر، وكذلك تذكر عن صبر سيدنا نوح (ع) وسيدنا أيوب (ع)، وعن سيدنا سليمان (ع) وشكره الدائم لربه وسعيه لرفع شأنه وشجاعته، وعن إخلاص سيدنا موسى (ع) والسيد المسيح وقوة حجته ورفعة شأنه وعلو مكانته، وعن سيدنا داود (ع) وتعلقه بربه وتوجهه إليه بكل جوارحه، والكثير من شيم وخصال الأنبياء الكرام وكونهم مرشدين وأعلاما للخير وأمثلة رائعة لجميع الناس للإقتداء والاهتداء.

هؤلاء الأنبياء الأطهار والرسل الأخيار هم مشاعل ورايات

عالية لجميع البشرية على وجه هذه الأرض، للاهتداء والإقتداء بخصالهم والمضي في سبيلهم وتنظيم حياتهم وطرز معيشتهم طبقا لما جاءوا بها من أحكام وإرشادات. وما ذكرناه في هذا الجزء من الكتاب من خصال سيدنا إبراهيم (ع) إنما هي دعوة للناس أجمعين للأخذ منها والتحلي بها والإقتداء على أثرها.

سيدنا إبراهيم خليل الله

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا ﴾ (النساء:١٢٥)

هكذا يرد ذكره في القرآن الكريم، وبأنه " خليل الله" وهي صفة محببة، عرف بها. ويقول سيدنا رسول الله (ص) (... اللهم إن إبراهيم خليلك ونبيك ...)[٧] ويرد ذكره أيضا في الكتاب المقدس الذي دخله التحريف، " وآمن إبراهيم بربه وهكذا أصبح من الأصفياء..." " وتحقق ما جاء في الكتاب المقدس وأصبح إبراهيم خليلا لله..."[٨]

إن الذي يخشى ربه ويتعلق قلبه بمحبته، تصبح غايته في الحياة السعي لنيل رضاه ومغفرته والفوز بجناته، ويسيطر على قلبه وروحه مهابة الله، يشكره ويحمده عندما يشاهد الجمال والكمال في مخلوقاته ويذكره بأسمائه الحسنى. كما ويؤمن أن كل ما يصيبه من نعمة وخير فمن الله تعالى، ويلهج لسانه بشكره. وإذا ما أصابه مكروه تراه صابرا ومتحملا ما قدره الله ويعلم أن كلّ ما جاء من عند الله فيه الخير وامتحان واختبار له. فيؤمن بقدره راضي النفس ويسعى للمزيد من عمل الخير والصالحات من الأعمال.

وكما يقول بديع الزمان سعيد النورسي " الحمد لله على كل حال ..." والمؤمن يتخذ هذه المقولة شعارا له فيحمده ويشكره في كل حال يكون عليه.

إن الله تعالى يشوق المؤمنين إلى بلوغ هذه المرتبة والمقام الرفيع. ويدعو في آياته إلى اتخاذ كافة الوسائل التي تقربهم من ربهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٣٥)

وفي آية يقول تعالى

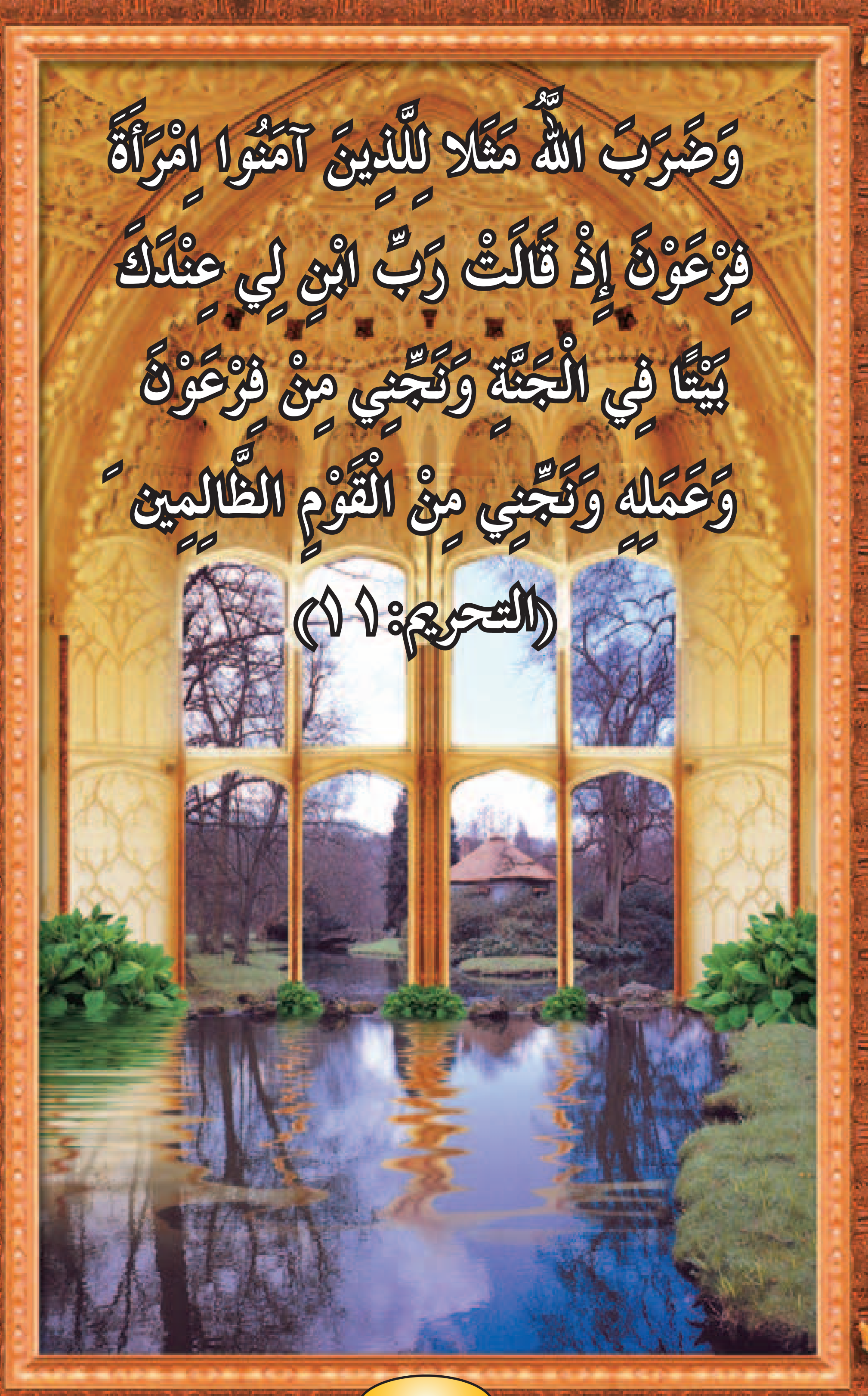
﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (الذاريات: ٥٠) ، ويقول تعالى



﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (الحج: ٧٨)

وفي سورة المزمل يدعو الله الناس إلى التوجه إليه وترك ما سواه:

﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا ﴾ (المزمل: ٨-٩)


وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ
فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ
بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
(التحريم: ١١)

كان سيدنا إبراهيم (ع) صاحب بصيرة ثاقبة وإدراك في اختيار الصحيح

يذكر الله تعالى في القرآن ما كان يتمتع به سيدنا إبراهيم (ع)، من بصيرة قوية في إدراك الحقائق وتثبيت ما هو خير وصحيح (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ(٤٥). وكان دقيقا ومصيبا في اتخاذ قراراته شأنه شأن بقية الأنبياء الكرام، وكان يتمتع بنظرة بعيدة إلى الأمور، وحدس صحيح لما قد يحصل.

وتذكر آية أن الله تعالى منحه الرشد والحكمة البالغة في قوله:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥١)

وتأتي معنى كلمة الرشد هنا للدلالة على الصواب في القرار والمضي بخطوات واثقة ومطمئنة والتوجه نحو كل ما هو صحيح باستقامة كاملة. وقد ساعدته هذه الأفضال والنعم التي وهبها الله له في صراعه مع الكفر والشرك. وظهرت خصاله العالية في دقته وبعد نظره للأمور وقراراته التي كانت تصيب الهدف دائما، وفراسته وفطنته ومقدرته في التفريق بين الخطأ والصواب، والصالح والطالح، إلى جانب ما كان يتمتع من خشية عميقة من ربه واستسلام لأوامره وتنفيذه لها دون تردد أو وجل. وتذكر الآيات ما يجازى به المؤمنون الخاشعون المتقون:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الأنفال:٢٩)

وبفضل هذه الخصال الحميدة التي وهبها الله لسيدنا إبراهيم (ع)استطاع الدخول مع المشركين في المواجهة والقيام بتبليغ رسالته ونشر دعوته. إن

" الصدق" واختيار " كل ما هو صحيح" من الصفات التي دعا رسولنا الكريم (ص) المؤمنين للتمسك بها، وكما ورد ذلك في أحاديثه:

" قل آمنت بالله ثم استقم ".[٩]

" من أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث ".[١٠]

" من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين ويلهمه رشده ".[١١]

" إن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البرّ يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ".[١٢]

*** كان سيدنا إبراهيم (ع) عبدا مخلصا، يذكر الدار الآخرة دائما ***

يعرف القرآن الكريم سيدنا إبراهيم (ع) والذين جاءوا من صلبه من بعده بأنهم كانوا يسعون للآخرة ويعملون لها بإخلاص وتفان:-

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ (ص: ٤٥-٤٦)

أن ما يميز الأنبياء عن سائر البشر حرصهم على السعي لكسب رضا الله ومغفرته ونيل نعيم جناته في الآخرة دون أن ينتظروا أجرا أو نفعا من أحد.وقد قاموا بدعوة أقوامهم إلى طريق



الرشاد والحق والهدى طوال أعمارهم في حياتهم الدنيا دون كلل أو ملل.

أن المؤمن يجب أن يبتغي وجه الله تعالى في جميع ما يقوم بها من أعمال وأن يخلص في سعيه إلى ربه وابتغاء وجهه ويهدف إلى كسب رضاه ومحبته. وسيدنا رسول الله (ص) وحياته وسيرته الشريفة خير مثال لنا. فقد جعل الله وحده ورضاه عنه منتهى ما يبغيه ويسعى إليه. وتذكر العديد من أن الأنبياء بعثوا لإرشاد الناس ودعوتهم إلى سلوك طريق الهدى والابتعاد عن المنكرات دون أن يبتغوا منهم أجرا أو يتوقعوا كسبا أو منفعة:-

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾
(ص:٨٦)

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سبأ:٤٧)

وفي حديث رسول الله (ص) " أن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه" [١٣]., دعوة عامة لكل الناس أن يخلصوا في جميع أعمالهم. وكذلك كانت دعوة الأنبياء والرسل الكرام، أن يكون القصد والهدف في الحياة الدنيا التهيؤ للدار الآخرة والعمل بإخلاص لتأمين كسب نعم الله تعالى، وعدم الانبهار والانخداع بمباهج الدنيا.

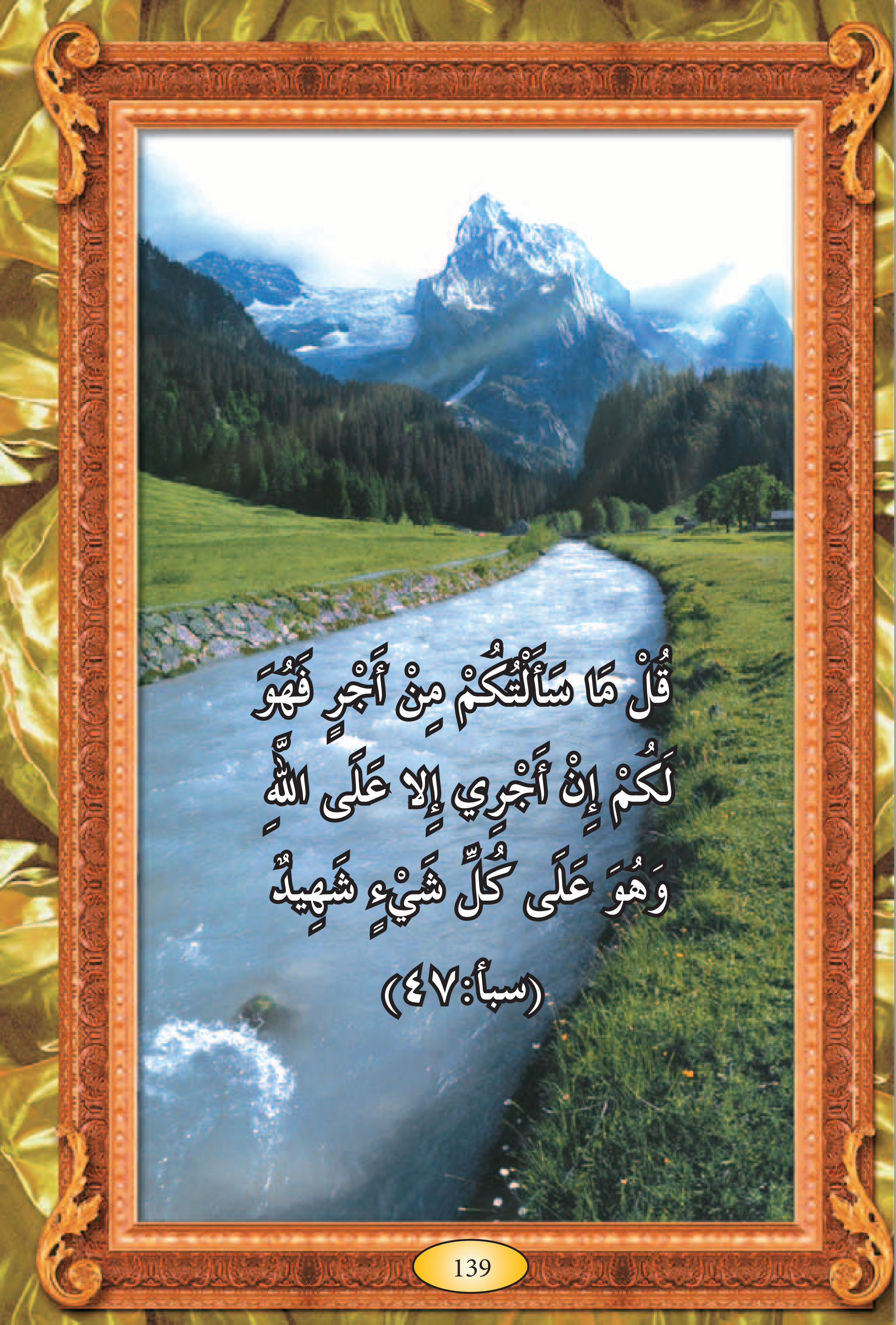
﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾
(الأنعام:٤٨)

إحدى أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها المؤمن، التفكير بكل جدية في الحياة الآخرة وتذكرها دائما. وأن يكون كل ما يعمله أو يقوله خالصا لله وحده. وعلى المؤمن أن يعتبر الحياة الآخرة هي دار القرار، ويتشوق إليها ولا ينخدع بهذه الحياة الدنيا ولا يرتبط بها. والمؤمنون — ولا ريب– لهم الحق في التمتع بالنعم التي أنعمها الله عليهم وأحلها لهم، وأن يشكروه على هذه المنح الكريمة والتي سيجدونها أيضا في حياتهم في الدار الآخرة، بل وأفضل منها بكثير، وأبقى. غير أنه لا يحب أن يكون هذا هدف المؤمن أبدا، وإنما يعتبرها أفضالا من الله يستوجب الشكر عليها، وهي وسائل لا غير لبلوغ الهدف الأسمى ألا وهو الخلود في نعيم الآخرة.

إن تذكر الجنة وما فيها من نعم والتشوق إلى الخلود فيها، ثم الخشية من عذاب الجحيم والخوف الدائم من الخلود في النار من الوسائل التي تدفع بالمؤمن إلى التقرب من ربه، والتحلي بالأخلاق القرآنية السامية والتشوق للعيش في ظلال الإيمان والهداية. وإذا لم يدم المؤمن صلته بالله فإن الشيطان يدخل إليه مستغلا صفة النسيان والغفلة ويدفعه إلى العيش بعيدا عن تذكر الآخرة. ولكن على المؤمن أن لا يقع في حبائل الشيطان ولا ينسى ذكر الآخرة دائما ويتواصل في التفكير والتذكر.

ويذكر القرآن عن سيدنا إبراهيم (ع) تواصله مع ربه وذكره الآخرة مع سعيه الدائم والمخلص في تبليغ رسالته ودعوة الله، طوال عمره المديد.

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ (البقرة: ١٣٠)


قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ
لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
(سبأ:٤٧)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ
الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى
عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

(البقرة:١٢٦)

كان سيدنا إبراهيم عبدا مختارا ومن الأخيار

﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (ص:٤٧)

إن الله اصطفى سيدنا إبراهيم (ع) واختاره وهداه وأنعم عليه بالنبوة وشرفه بحمل الرسالة. وتذكر آية قرآنية أن الله فضله ومن من ذريته على سائر العالمين:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران:٣٣)

وقد اختار الله سيدنا إبراهيم (ع) ومن بعده أولاده للقيام بدعوة الناس إلى الإيمان وتبليغ رسالة الله وأوامره ونواهيه إليهم، وذكر قدرة الله وحكمه على المخلوقات. وفي الآية: **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد:٢٦)** ذكر لتشريفه وأولاده من بعده بالنبوة وحمل الرسالة.

من علامات المؤمن حب الخير والعمل به. في حين لا يأتي من الكافر إلا الشر والأذى. وهذا أمر بديهي لأن الكافر يضع منفعته ومصلحته الشخصية فوق أي اعتبار آخر وهذا يدفعه إلى إلحاق الضرر والأذى بالآخرين والعمل لأجل نفسه فقط. أما المؤمن فإنه يجلب الخير والبركة لنفسه ولمن حوله ولعموم الناس، ولا يصدر منه إلا النفع المادي والمعنوي. ذلك لأن خشيته من الله تعالى وإيمانه به يجعله يلتزم جانب الحق المطلق حتى وإن كان على نفسه، فلا يظلم أحدا، ويؤمن بالعدالة والخير للناس، ويقف أمام الظالم ويدفع ظلمه عن الناس.

يقول سيدنا رسول الله (ص) " وخيار أمتي أحسانهم أخلاقا [١٤] " وبذلك يضع المؤمن حسن الأخلاق في مقدمة الناس باعتبارهم مصدر خير

وبركة لمجتمعاتهم.

إن الله تعالى يفرق بين المؤمن الذي لا يأتي منه سوى الخير له ولقومه وبين من لا يحملون هذه الخصال الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:٧٦)





كان سيدنا إبراهيم ذا قلب سليم

إن الله تعالى اتخذ من إبراهيم (ع) خليلا، واصطفاه من بين قومه المشركين، ووهبه الإيمان وجعله رائدا لأهل الإيمان.

إن الله يريد من المؤمنين أن يقتدوا بالأنبياء الكرام ويتخذوهم أسوة حسنة لهم في أخلاقهم وخصالهم الكريمة، وأن يطرحوا من قلوبهم كل إمارات الجاهلية والأخلاق التي تتلائم مع سعيهم إلى التقرب من ربهم. كما وعليهم

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

(سبأ:٢٨)


وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ
اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (البقرة:١٤٨)

التخلي عن الأفكار والآراء المنحرفة عن جادة الصواب والحق، وتصفية قلوبهم وضمائرهم من الأدران والشوائب.

إن صفاء القلب ونقاء السريرة عند المؤمن معناه ترك جميع ما يعتمده الشيطان من وساوس وريب وأفكار مسمومة يحاول زرعها في نفس المؤمن. وفي هذا يقول تعالى: ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ (**آل عمران:١٧٩**)، والطيب هنا يشمل طهر النواحي المعنوية والروحية حصرا.

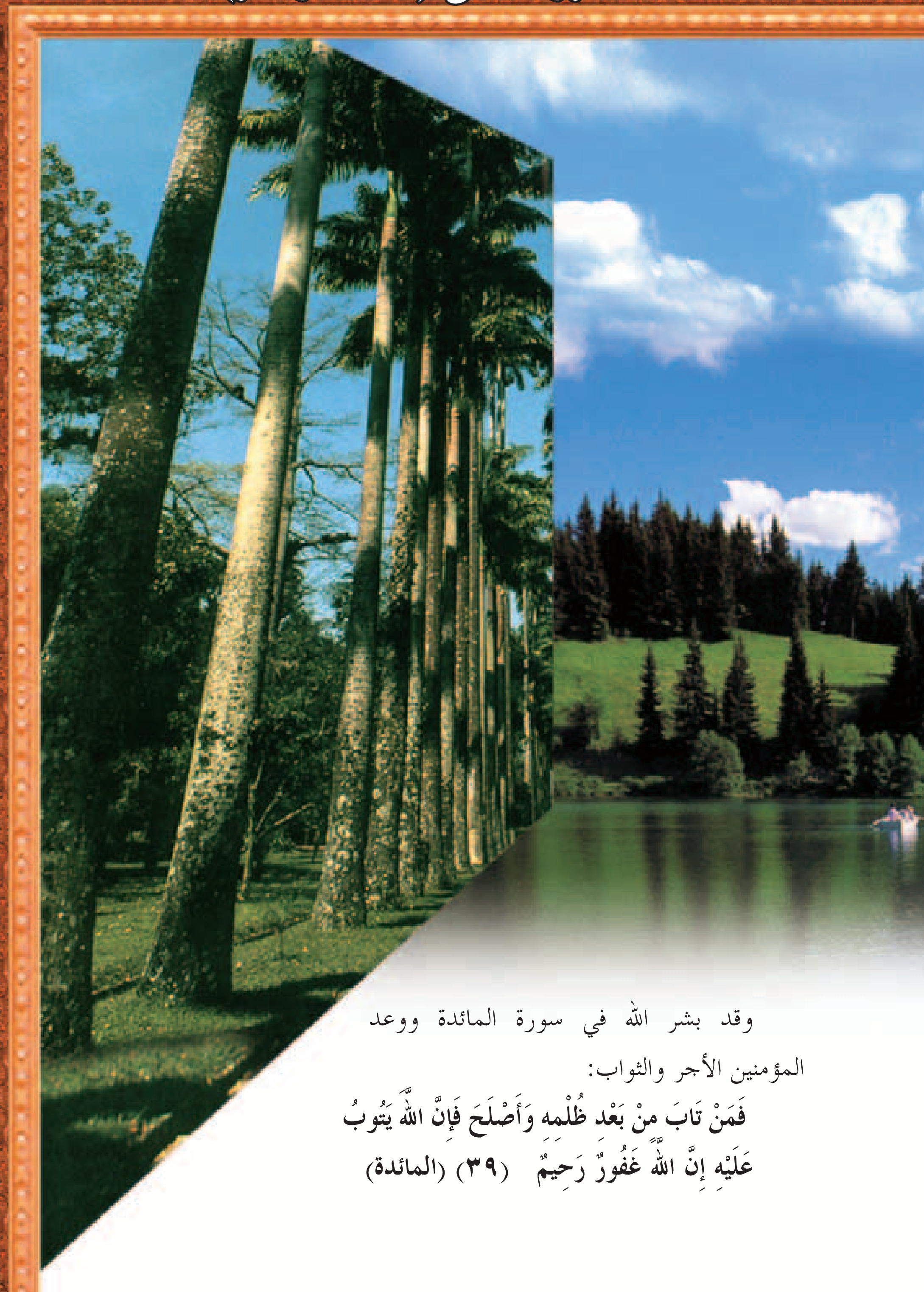
قد يدعي من لا يؤمن بالله وليس على هداية من الدين أنه يملك قلبا نقيا ونظيفا. ولكنه إنما يبغي من هذا إراحة ضميره فقط. لأن الإيمان شرط أساسي للحصول على قلب " سليم" على نحو ما كان عليه سيدنا إبراهيم (ع) وكما يتطلب منه إطاعة الله وتنفيذ أوامره والامتناع عن نواهيه وتسليم أموره لربه، ويتوكل عليه وحده. يذكر القرآن في هذا المجال ويعدد مظاهر الإيمان والأخلاق النبيلة في قوله تعالى:

﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ** ﴾ (**البقرة:١٧٧**)

إن الله تعالى يحب من عباده أن يسعوا إلى تطهير أنفسهم وتنقية سرائرهم ﴿ **لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ (**التوبة:١٠٨**). وقد يكون الإنسان واقعا تحت تأثير وسيطرة الشيطان ولزمن طويل، وتشبعت نفسه

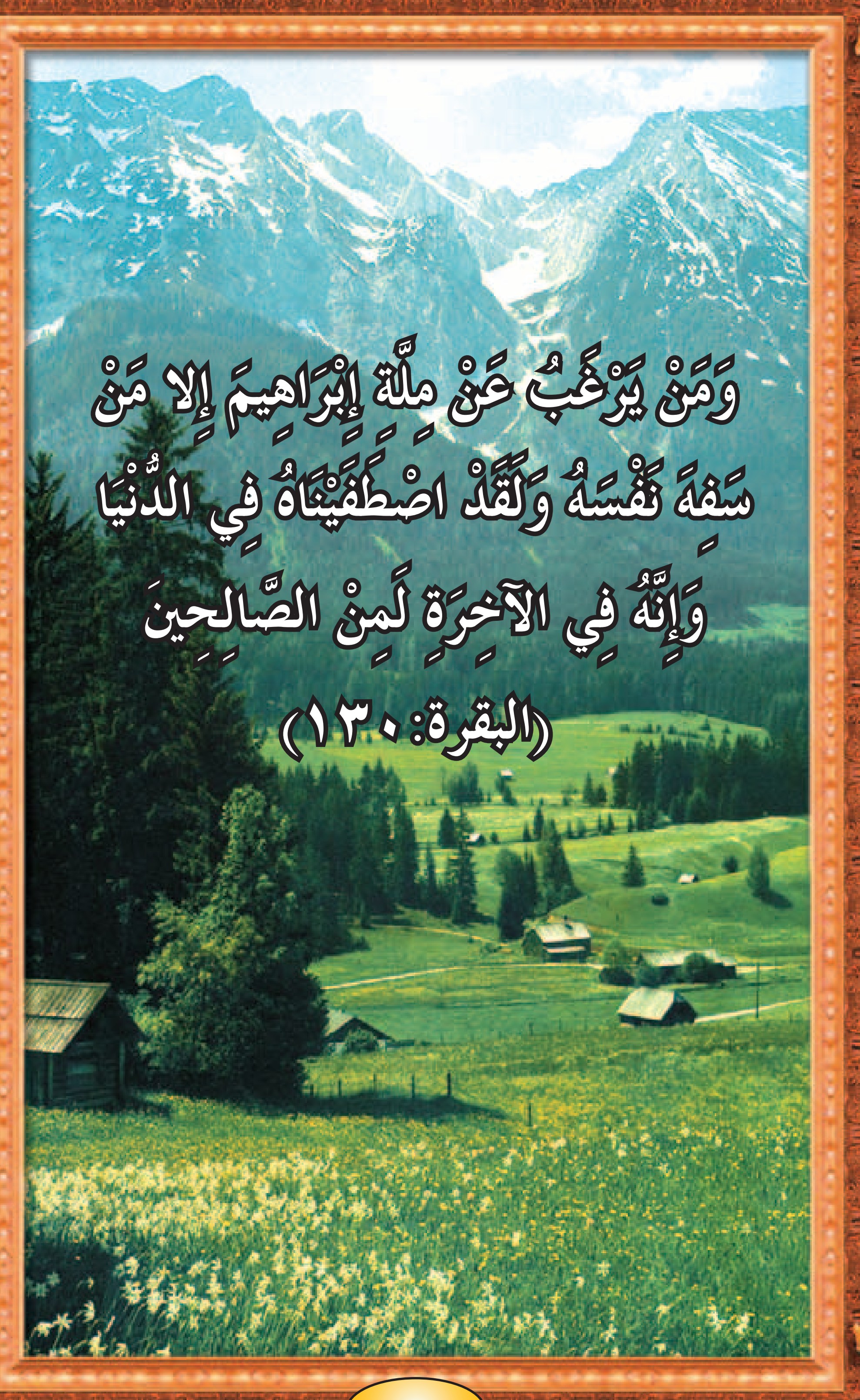


بالوساوس الخبيثة وامتلأ قلبه بالأفكار المنحرفة، وابتعد عن التمسك بأهداب الدين والأخلاق القرآنية. ولكن يبقى الأمر الأهم هو التوجه إلى ربه ويطلب التوبة ويستغفره على ما كان عليه من ضلال، ويصفي قلبه من الخبائث، ويتخذ من الأنبياء قدوة للتقرب إلى الله.



وقد بشر الله في سورة المائدة ووعد المؤمنين الأجر والثواب:

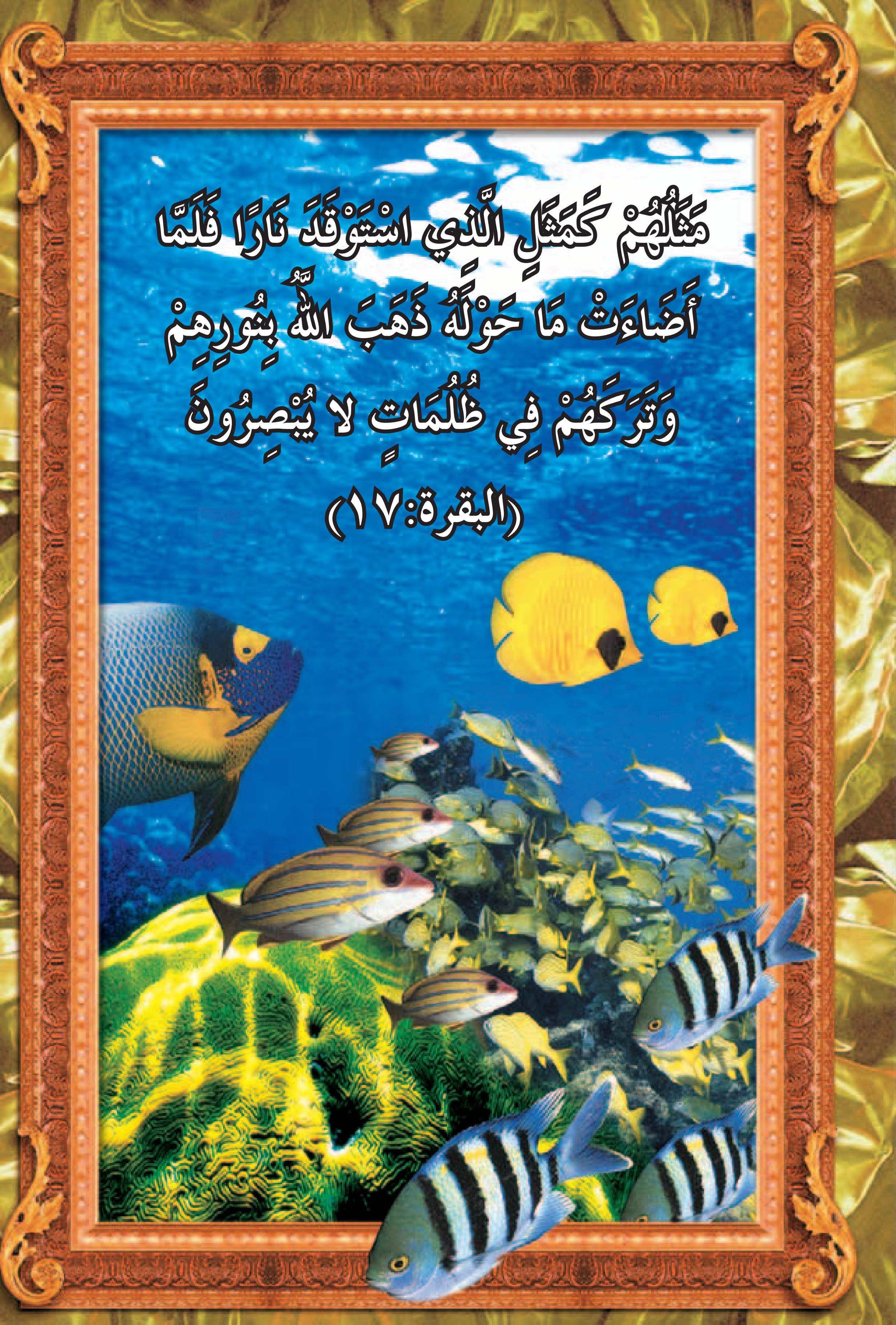
فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) (المائدة)


وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ
سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ
(البقرة: ١٣٠)

كان إبراهيم (ع) أمة لوحده

كان سيدنا إبراهيم (ع) نبيا من الأنبياء المختارين من الله، يلتزم بأوامر ربه ولا يعمل شيئا إلاّ ويبتغي من ورائه مرضاته وزيادة تقربه منه وتعلقه به وانتمائه إليه وحده. يخشى ربه، ويعتمد ويتوكل عليه، مسلما أموره جميعها إليه. واجه جموع قومه وحده. دعاهم إلى وحدانية ربه وعبادته، مبديا من القوة والشجاعة النابعة من إيمانه العميق واطمئنانه وثقته بربه ما جعله يستمر في تبليغ دعوته بقرار ثابت لا يتزعزع.

هكذا يجب أن يكون شأن المؤمنين. الثبات على الإيمان والشجاعة والاندفاع في تبليغ رسالة الله ودينه إلى الناس أجمعين، وبعد أن يتوكل على ربه ينتظر العون والنصر منه، تماما مثلما فعل سيدنا إبراهيم (ع) في تبليغ دعوته. وفي مقدمة الوسائل والإجراءات، يأتي التسليم بصورة مطلقة لله الواحد الأحد، والخشية منه وحده، واتخاذه من قبل المؤمن وليا له ونصيرا. والمؤمن ذو الإيمان الثابت والعقيدة الصحيحة، يستطيع ولوحده من بين جموع من غير المؤمنين أن يلتزم بأوامر دينه ويظهر إيمانه على أجمل وجه وينشر من أخلاقه الحميدة ويدعو إلى عقيدته ويبلغ الناس أفكاره وآراءه ويتصرف بموجب ما تملي عليه الأخلاق القرآنية، ويتحرك وهو على ثقة أن الله معه دائما يعينه في مسعاه ويلهمه الرشاد وينصره. هذا المؤمن المتوكل على الله والملتزم بمحاسن الأخلاق الذي يؤمن بصدق ويقين، فإنه ولاشك يستطيع أن يطمح ليكون " أمة لوحده" على ما كان عليه سيدنا إبراهيم (ع).


مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا
أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّٰهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ
(البقرة:١٧)

كان سيدنا إبراهيم (ع) عبدا شكورا

لقد أنعم الله على عباده بالكثير من النعم، وجب عليهم شكره على مظاهر بدائع صنعه وروائع خلقه بدء من أبسط المخلوقات الحية وانتهاء بكمال خلق الإنسان، وما تعنيه هذه المعجزات في الجمال والكمال:-

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥١-١٥٣)

إن نبي الله إبراهيم (ع)، هذا العبد الصالح، خير قدوة لعموم المسلمين لما كان يبديه من الشكر الدائم لأنعم الله عليه. يقول تعالى عنه **﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل:١٢١)**.

إن ما ورد من قصص عن الأنبياء الكرام تظهر مدى حرصهم على دوام الشكر لله وبيان الحمد له، وتسبيحه وتمجيده وذكره على هذه النعم والأفضال العظيمة.

كان سيدنا رسول الله (ص) يردد عند تضرعه أحد أدعيته " الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا [١٥]، مما يدل على المكانة الرفيعة للحمد والشكر لله. ونجد في آيات القرآن ما يدفع المؤمن إلى بيان الشكر وباستمرار، وعلى كل حال هو عليه، وحتى إن أصابته مصيبة أو حلت به نائبة أو واجهته مصاعب أو أصابه مرض أو تعرض لظلم وقهر.

إن الإنسان المؤمن يعلم أن حكمة الله تعالى تتجلى في مثل هذه الحوادث والوقائع التي يتعرض لها أحيانا. وأنه معرض للامتحان والاختبار ليظهر مدى

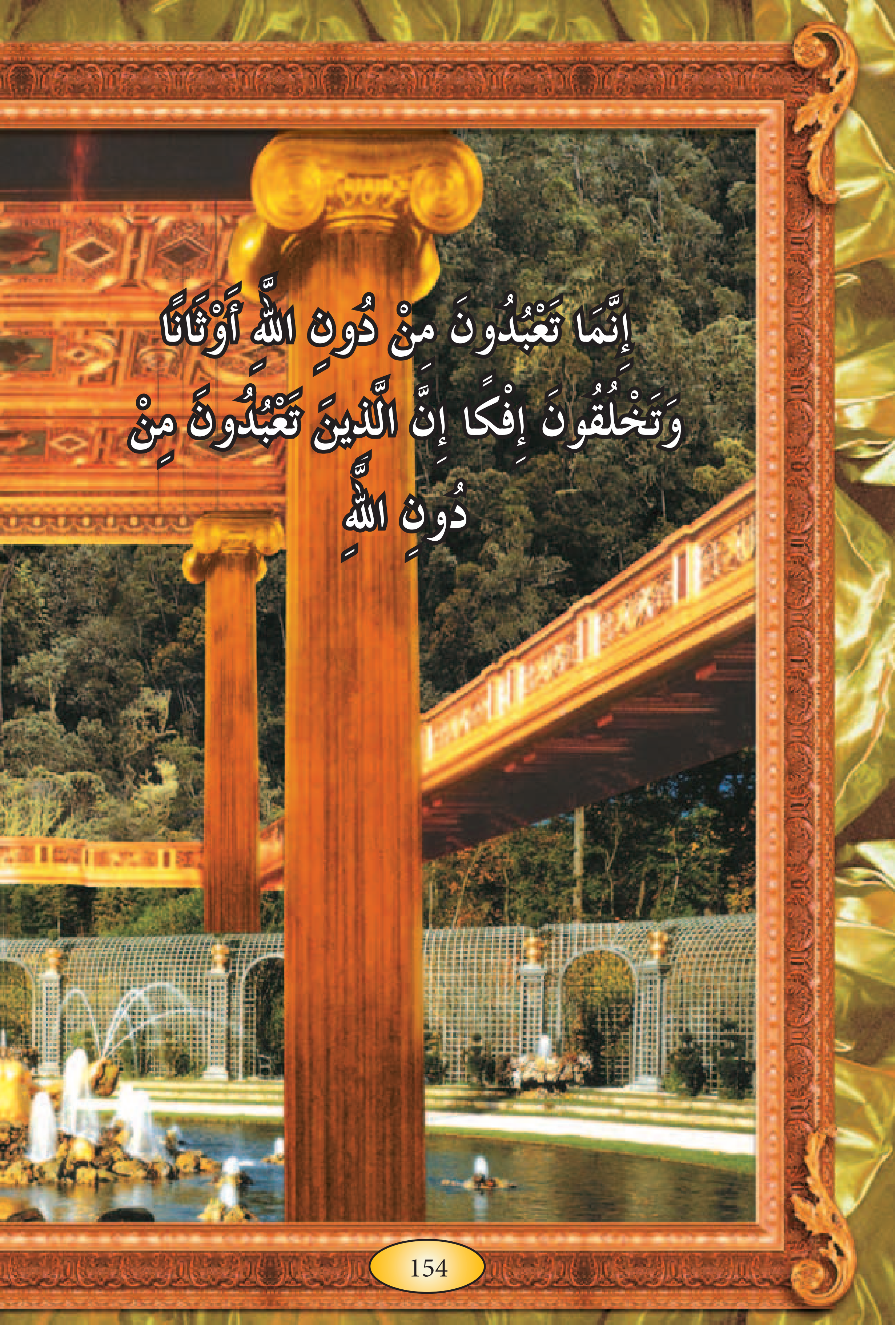


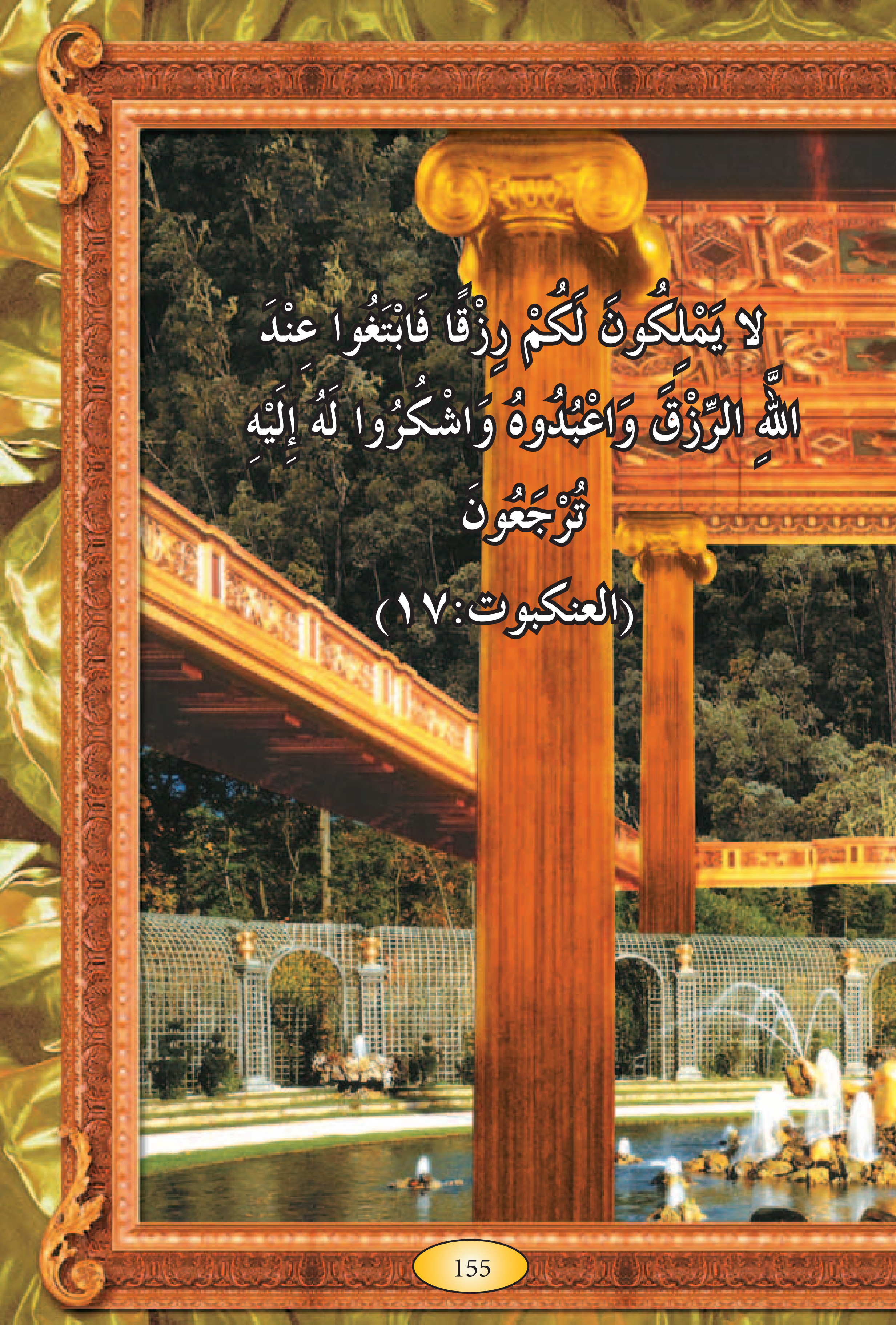
صبره وقوة إيمانه على مواجهة الملمات في حياته. ويعده ربه لقاء ما يبديه من حسن التصرف والخلق العالي، أحسن الجزاء وأجمل الجوائز، وكما جاء الخبر في آيات القرآن الكريم:-

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٥)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥)




إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا
وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ


لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ
اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ
(العنكبوت:١٧)



كان سيدنا إبراهيم (ع) عبدا مسلمّا أموره لله

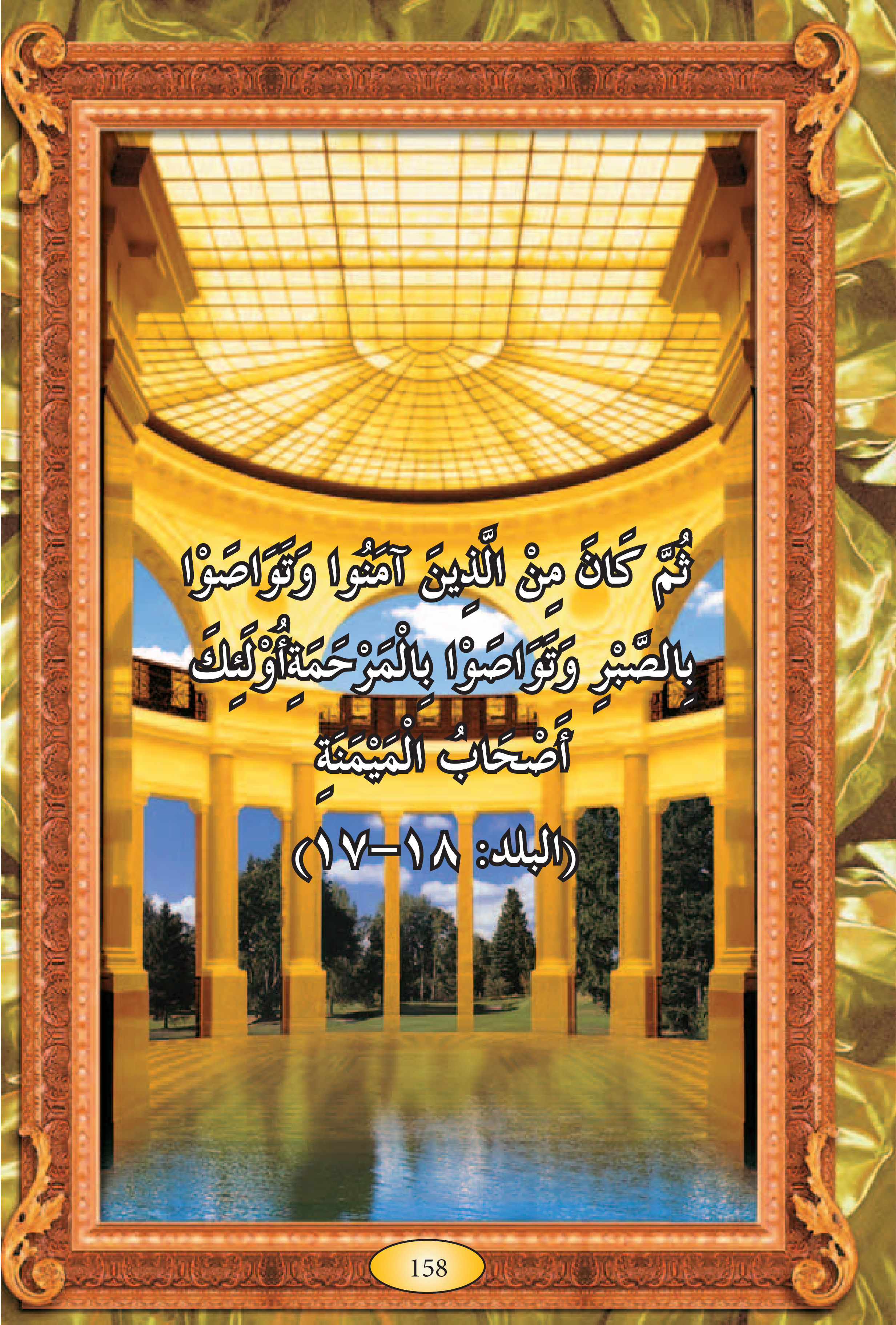
﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (البقرة: ١٣١)

إن كلمة " الإسلام" كما هو معروف مشتقة من مصدر التسليم والسلام. وبذلك فإن " المسلم" هو الذي يسلم أموره لله. وهذا ما أظهره سيدنا إبراهيم (ع) في تعامله مع قومه، حينما سلم جميع شؤونه إلى ربه بصورة كاملة. ومهما أظهر قومه معه من البأس والشدة



محاولين ثنيه عن دعوته وارغامه على ترك دينه، غير أنه استمر ثابتا ومتمسكا بقوة وعزم لا يلين بحبل الله المتين، مؤديا واجبه وقائما بأداء مهمته حتى وإن أدى به الأمر إلى ترك قومه والهجرة من موطنه والتخلي عما يملكه.

إن الله خالق جميع ما في الوجود بقدر معلوم وبمعيار وميزان دقيق وهو مقدر كل حادث، وبعلمه الأزلي يعلم ما سوف يحدث لنا. إن هذه الحقائق أدركها الأنبياء والمرسلون الذين شرفهّم الله بمقام رفيع وكلفهم بواجب الدعوة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. وعلى المؤمنين بربهم أن يسلموا شؤون حياتهم إلى قضاء الله وقدره برضا نفس وطيب قلب. هذا القدر الإلهي الذي أكده القرآن في آيات كثيرة وجعل التصديق به من أركان الإيمان بالخالق.


ثُمَّ كَانَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ
أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ
(البلد: ١٨-١٧)

كان سيدنا إبراهيم (ع) لينا حليما

من صفات المؤمن التي ذكرها القرآن، صفاء القلب والسريرة، والحلم والصبر واللين في التعامل وإظهار الشفقة والمحبة والتسامح. وترد في الآيات هذه الصفات التي اختص بها سيدنا إبراهيم (ع):-

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١١٤)

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (هود:٧٥)

إن المؤمنين الذين يعتصمون بالله ويلتزمون بالسير في طريقه بشوق ومحبة ويسعون للالتزام بالأخلاق الحميدة والخصال الجميلة، سيدخلون في زمرة عباد الله المخلصين. وتعتبر الشفقة والرحمة والتسامح واللين واللطف في التعامل من جملة الأخلاق الكريمة التي أرادها الرسول (ص) للمؤمنين، وكما وردت في جملة من الأحاديث النبوية، نورد بعضها:

" إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه ولا ينزع من شيء إلاّ شانه "[١٦]

" أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وأمسح على رأسه وأطعمه من طعامك يلين قلبك وتدرك حاجتك "[١٧]

" ترحموا واغفروا يغفر لكم... "[١٨]

" إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه "[١٩]

ويخبرنا القرآن أن هذه الصفات العالية كان يمتاز بها الأنبياء جميعا. ويقول عن نبي الله شعيب (ع) الذي أرسله الله إلى قوم مدين **﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾** (هود:٨٧).

كان سيدنا إبراهيم (ع)
إنسانا رائدا اهتدى إلى ربه

إن صفة (الهادي) تتجلى بأروع صورها في حياة إبراهيم (ع) مثلما في حياة بقية الأنبياء. فقد كان دليلا وقائدا يحمل راية الهدى والإيمان بين قومه، والتي شرفه الله بحملها. وقام بدعوتهم إلى نور الإيمان بالله الواحد الأحد. وهذا كان أيضا شأن من تبعوه من صلبه من المرسلين:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٢-٧٣)

ويذكر الله في القرآن أن المؤمنين شأنهم شأن المرسلين هم قادة وأئمة الهدى بين أقوامهم ومجتمعاتهم:-

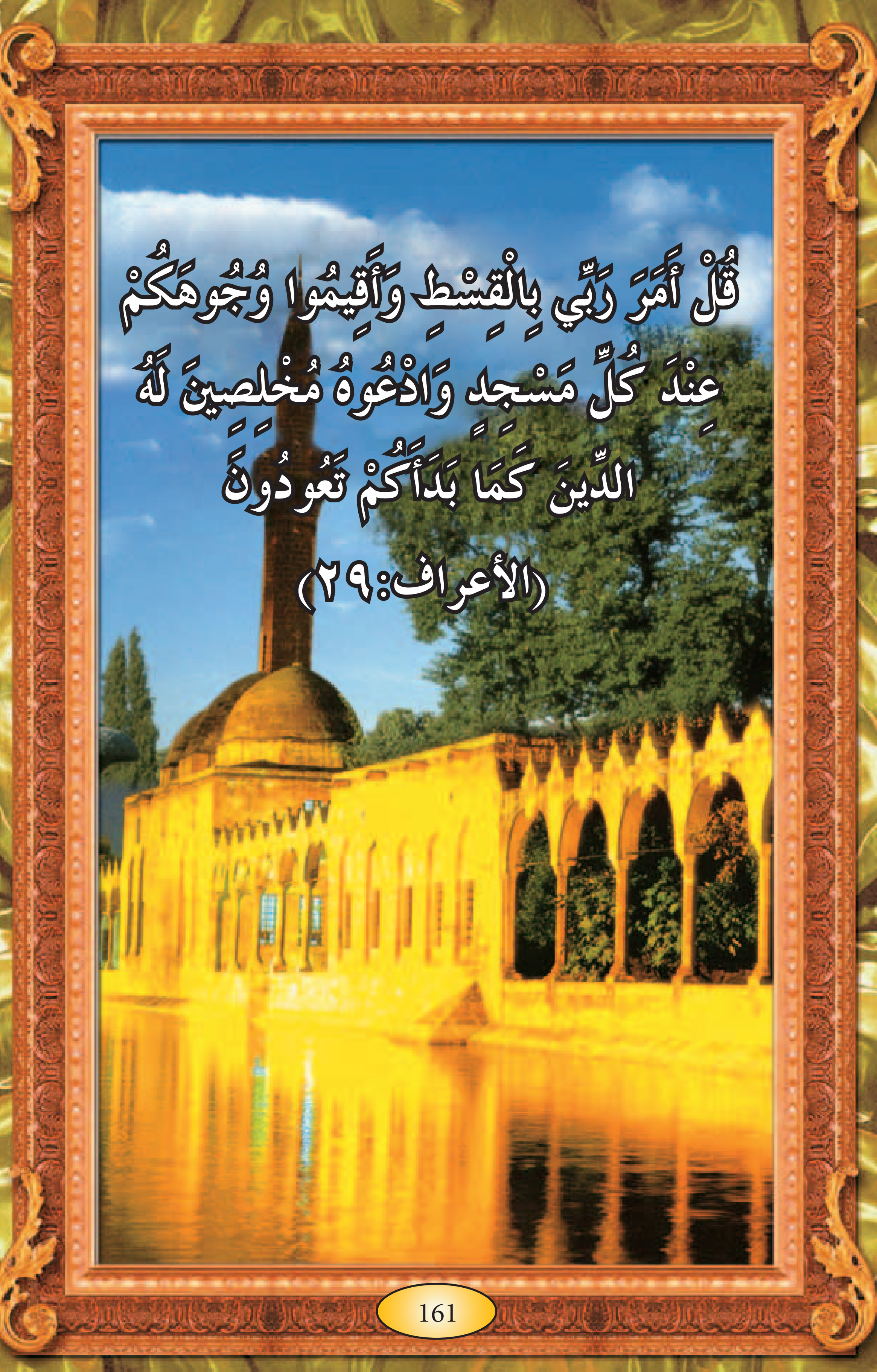
﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤)

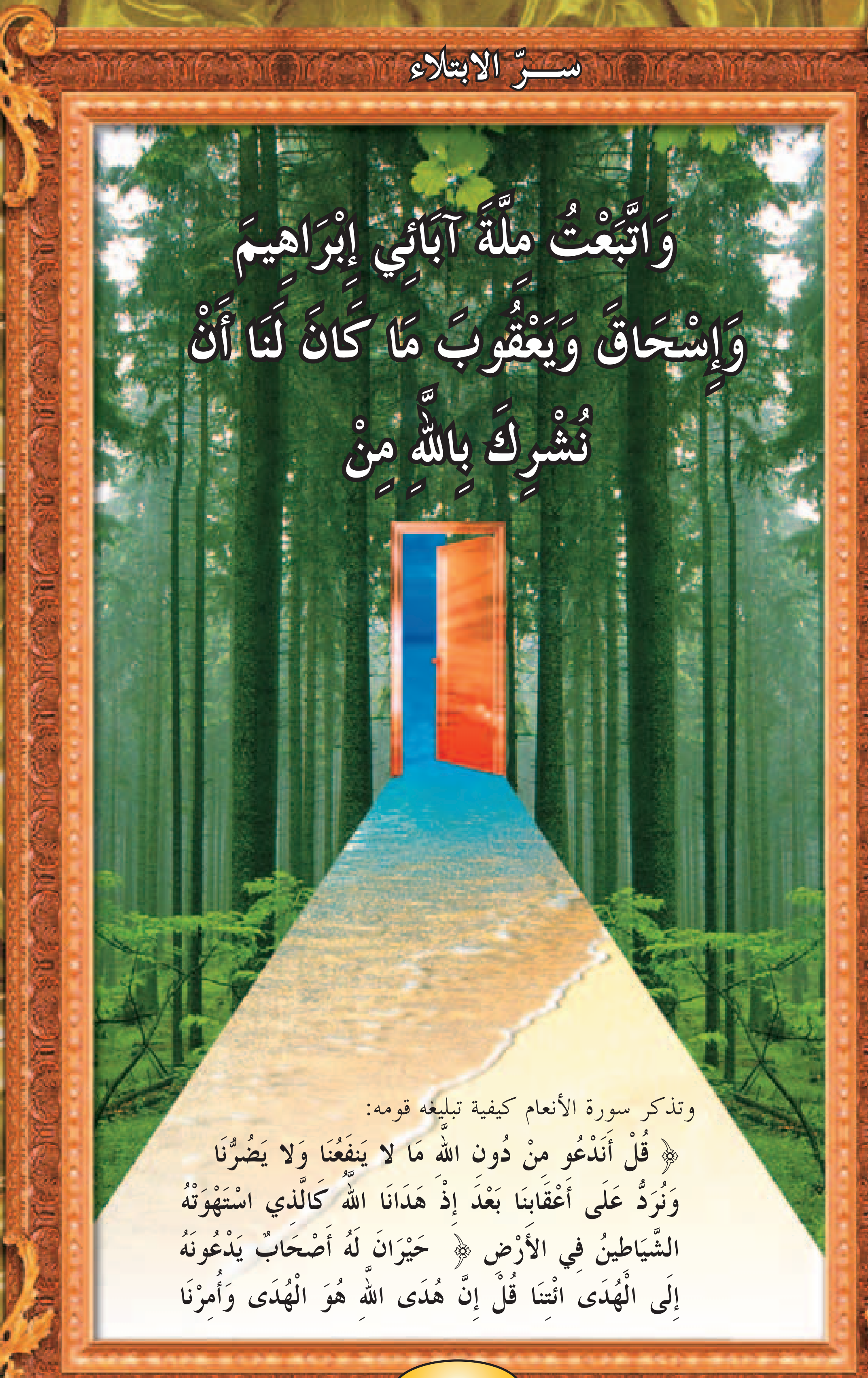
لقد دعا سيدنا رسول الله (ص) الناس كآفة إلى أشرف دين وأوضح سبيل وأنبل طريق، الذي فيه الخلاص والراحة والطمأنينة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

التعليق على الصورة الجانبية " تذكر المصادر التاريخية أن مدينة " أورفه" كانت موطنا للعديد من الأنبياء منهم آدم (ع) وإبراهيم (ع) وشعيب (ع) وإليسع (ع). وفي روايات أخرى أن سيدنا إبراهيم (ع) قضى في مدينة " حران" ردحا طويلا من حياته. ويأتي ذكر ذلك في الإنجيل: " ثم قال : اسمعوا أيها الأخوة والآباء، أن أبانا إبراهيم وقبل إقامته في (حران) وحينما كان في بلاد ما بين النهرين ظهرت وبانت له عزة الله ... وقال له: اخرج من بلدك ومن أهلك وأقاربك واذهب إلى مكان أقوله لك. وخرج من بلاد الكلدانيين وأتى إلى (حران)...(٢٠).

الصورة الجانبية:-

المكان المعروف بإقامة سيدنا إبراهيم (ع) فيه. وتظهر بحيرة الأسماك الشهيرة...).


قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ
عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ
(الأعراف:٢٩)



وَاتَّبَعْتُ ملَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ

وتذكر سورة الأنعام كيفية تبليغه قومه:

﴿ قُلْ أَنَدْعُو منْ دُون اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْض ﴾ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا



شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ
(يوسف:٣٨)

لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:٧١)
وفي حديث نبوي عن رسول الله (ص) (إن أحسن الحديث كتاب الله تعالى، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ٢١)

الأدعية التي كان يدعو بها سيدنا إبراهيم (ع)

ترد في القرآن الكريم العديد من الأدعية التي كان الأنبياء يتضرعون بها إلى الله. وهي أمثلة جميلة للمسلمين لترديدها إذا ما أرادوا التقرب إلى ربهم. أن الدعاء بهذه الأدعية المأثورة عن الأنبياء وفهم ما تعنيه، والالتزام بما التزم بها هؤلاء الرسل الكرام وبإخلاص وشوق وحرص، يقرب المؤمن من ربه ومن الوسائل الجميلة التي تزيد من روابطه مع الله. والمكانة السامية من الدعاء تتجلى في قول سيدنا إبراهيم (ع) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) (إبراهيم).

وقد نبه قومه أيضا إلى أهمية الدعاء ومكانته الرفيعة في قوله تعالى:

﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ (٤٨) (مريم).

لقد توسل سيدنا إبراهيم (ع) إلى ربه ليمنحه الحكم



والحكمة:-

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (الشعراء:٨٣)

وكما دعا ربه أن يلهمه لسان صدق:

﴿ وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ (الشعراء: ٨٤)

وحول الآخرة دعا بقوله:

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٥-٨٩)

وطلب العفو والمغفرة على النحو التالي:

﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة:٥)

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (إبراهيم:٤١)

كما ودعا ربه طالبا منه ذرية صالحة يقوم بحمل

الرسالة من بعده

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٠)

وتوسل متضرعا حول من سيخلفه من ذريته وأسباطه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِير ﴾ (البقرة:١٢٦)

وكان يدعو ربه عند القيام بأي عمل ينوي عليه ليتقبله منه:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٧)

وفي دعاء له، يطلب الرحمة والمغفرة له ولأهله وذريته، وأن يلهمهم الرشاد ويعلمهم عباداتهم ومناسكهم وأن يتوب عليهم:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا



أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٨)

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٩)

كان سيدنا إبراهيم مؤمنا بربه وباليوم الآخر، بقلب صاف ونفس راضية وعلم عميق. ولهذا جاءت أدعيته متضمنة هذه المشاعر الطاغية من الإخلاص وصفاء النفس والتجرد التام لله تعالى. وفي ذلك قدوة حسنة للمؤمنين للاستلهام من شيمه وخصاله والتوجه إلى الله بقلوب زكيه طاهرة، وإيمان مفعم بوحدانيته، وأن الله خير رفيق ومعين.




بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ
(البقرة: ١١٢)

وصية سيدنا إبراهيم (ع)

يعرفنا ربنا في آيات قرانه الحكيم سيدنا إبراهيم (ع) بأنه إمام الموحدين الداعين إلى وحدانية الله تعالى:-

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الزخرف:٢٦-٢٨)

إن عقيدة التوحيد ميراث سيدنا إبراهيم (ع) إلى المؤمنين جميعا وفي كل الأوقات والأماكن. ويظهر لنا هذا الميراث الإيماني أنه كان موحدا لربه يرجو رضاه ويسعى لكسب رحمته ومحبته متخذا من ربه الرفيق والوكيل، لا يخشى غيره ولا يخاف إلا منه. قضى حياته في دعوة الناس إلى وحدانية الله وبلغهم رسالة السماء في ترك الإشراك بالله وأن تكون الأعمال خالصة لوجهه.

وترد وصية سيدنا إبراهيم (ع) في سورة البقرة:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣١-١٣٢)

واستمرت ريادة وإمامة سيدنا إبراهيم (ع) في ذريته وصلبه من بعده فقام أنبياء الله ساداتنا إسماعيل واسحق وولده يعقوب ثم يوسف (عليهم السلام) بحمل رسالة الدعوة وتبليغ أوامر الله ونواهيه والتخلق بالأخلاق الرفيعة والتمسك بالحكمة والموعظة الحسنة كأسلوب. ويذكر القرآن ما ورد في وصية سيدنا يعقوب (ع):

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي ﴾

(الزمر:١٧)

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣٣)

لقد سار جميع الأنبياء الذين أتوا من بعده على نفس المنوال داعين ذرياتهم وخلفهم من بعدهم إلى الإيمان الصادق بالله والإخلاص له في أعمالهم، وأن

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ

(الزمر:١٨)

يعيشوا ويموتوا وهم مسلمون ومتوكلون على ربهم باطمئنان وأنفس نقية. إن من يؤمن بوصايا ودعوات سيدنا إبراهيم (ع) ويظهر العبودية لله وحده دون شريك، ويسخر حياته لكسب مغفرته ورضاه عنه، فإنه يستحق أن يتأمل في نيل عفوه ومجازاته بنعيم جناته في الدار الآخرة.



سيدنا
لوط (ع)
وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا
وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ
سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا
إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ
(الأنبياء: ٧٤-٧٥)



يخبرنا القرآن الكريم أن بعض الأنبياء عاشوا في نفس الفترة الزمنية. وعلى سبيل المثال، سيدنا هرون (ع) الذي ساند وعاون أخاه سيدنا موسى (ع) في دعوة فرعون وقومه إلى دين الله. كما وشرف الله سيدنا يعقوب (ع) مع سيدنا يوسف (ع) ابنه بمقام النبوة.

أما سيدنا إبراهيم (ع) والنبي لوط (ع) فقد عاشا في نفس الفترة الزمنية وفي المنطقة الجغرافية نفسها أيضا. ورغم أنهما كانا بين أقوام مختلفة فإنهما استمرا في التعاون والتساند مع بعضهما في سبيل دعوة الحق:

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِنْ نَاصِرِينَ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (العنكبوت: ٢٥-٢٦)

إن الهجرة إلى الله تعني التسليم لله وحده باعتباره الرفيق والمعين الأوحد، ثم إدراك عظمته وقدرته، واللجوء إليه بطلب المدد والعون. وهكذا هجر سيدنا لوط (ع) قومه الذين كانوا يعملون الخبائث وانحرفوا عن الصواب وضلوا. وقد أبدى من حسن التصرف وجمال الخصال ما يجعله في مقام الأصفياء الذين باركهم الله من عباده. وكان قد أرسل إلى قومه، كما يخبرنا القرآن، الذين انحرفوا ومارسوا من الأفعال أخبثها إذ تفشى فيهم مرض الشذوذ وإتيان الذكور دون الإناث.

انحراف قوم لوط (ع)

يقول الله تعالى في القرآن ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (**الروم:٣٠**)، ويعني أن الله تعالى خلق الإنسان على فطرة معلومة، وسن لهم سنن الطبيعة بوضوح. أما الشيطان فإنه يدعوهم إلى الشر ﴿ **وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ ع وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا** ﴾ (**النساء:١١٩**)، ساعيا إلى إخراجهم عن الطريق السوي، ويزين لهم أعمالهم ويحبب إليهم السيئات منها وإيقاعهم في المحرمات. وعلى رأس هذه الخبائث والسقوط الخلقي، يأتي الشذوذ الجنسي.

ويخبرنا القرآن عن هؤلاء القوم الذين اتبعوا الشيطان ووقعوا تحت إغوائه وأوقعهم في مسالك المنكرات وعمل السيئات: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا**

بهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٦).

ثم هم يدعون ويشوقون الناس إلى اتباعهم في كفرهم وانحرافهم: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٢٧). وأخيرا، سيكون الجزاء العادل نصيبهم على ما اقترفوه:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (مريم:٥٩).

هذا السقوط الأخلاقي والتفسخ المشين يظهر وعلى مر التاريخ في أقوام أخرى. ومن هؤلاء كان قوم لوط (ع). لقد كان النبي لوط (ع) على جانب كبير من الخلق والاستقامة ومن عباد الله الصالحين الذين بارك فيهم ربهم. وقام بدعوة قومه إلى نبذ المنكرات والعيش بما يرضي الله تعالى والخشية منه والخوف من غضبه وعقابه. لكن قومه قابلوه بإظهار العداوة والبغضاء وقاوموه وحاربوه. وهكذا استحقوا غضب ربهم بما كسبت أيديهم من ظلم وبما كانوا يفعلون من الشرور والسيئات:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٠-٨٤)

ورغم إنذارهم وتبليغهم أوامر الله بترك ما كانوا يفعلونه من المنكرات

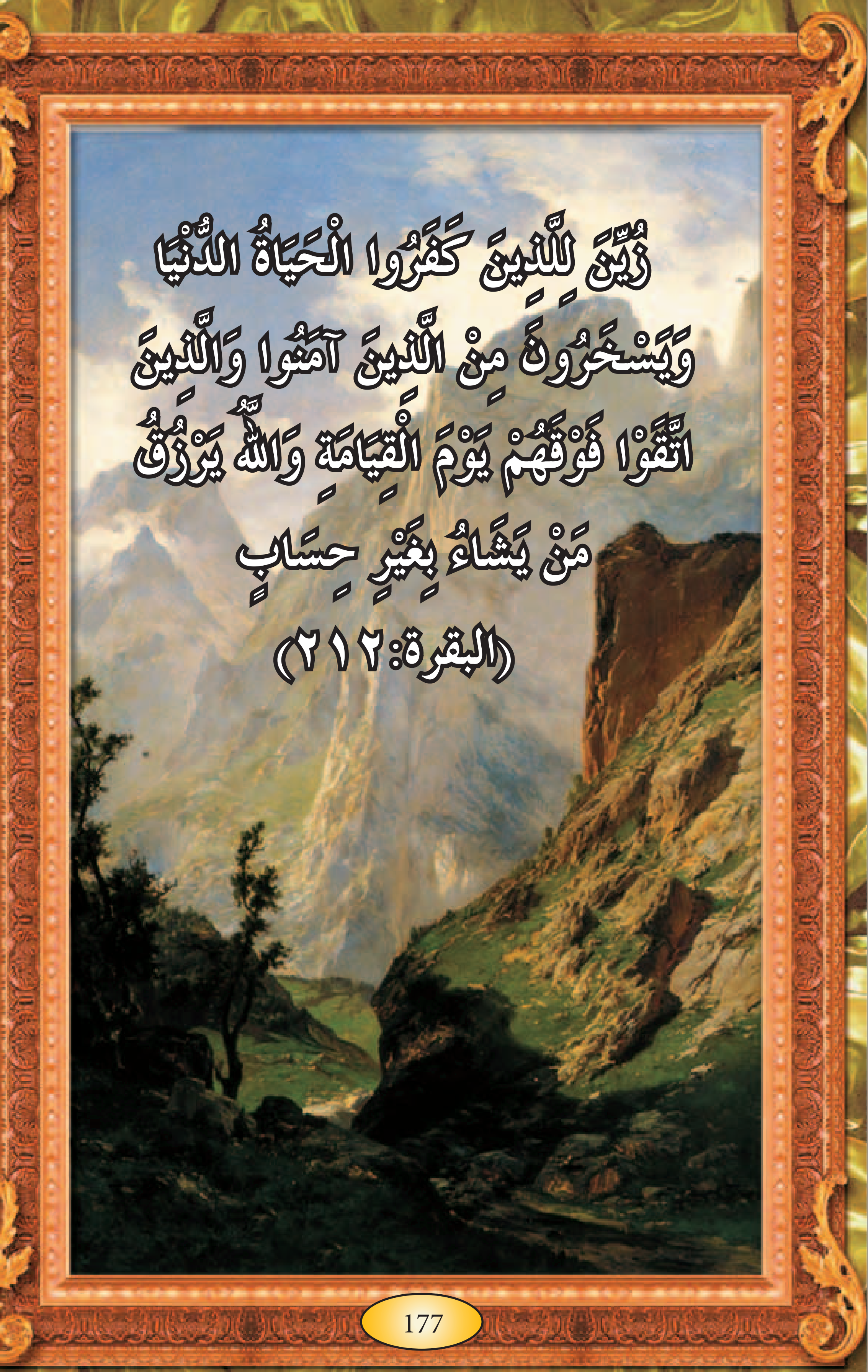
غير أنهم قابلوه بتهديدهم له والذين آمنوا معه بإخراجهم من بينهم وطردهم من مجتمعهم باعتبارهم " قوم يتطهرون"، مستهزئين من نبي الله والذين آمنوا معه: -

كان سيدنا لوط (ع) — وبهدي من الله وفضل منه- عبدا مؤمنا صابرا ومثابرا يتمتع بالجسارة والشجاعة، وصاحب قرار ثابت. وقد زاده ما رآه في قومه من عناد وكفر ورعونة واستهزاء، قوة وصلابة وثباتا. واستمر بدعوته إلى الإيمان بالله وعمل الصالحات من الأعمال والتمسك بالخير والفضيلة، باذلا سعيه لأداء واجب الدعوة والتبليغ الذي كلف به. يقول تعالى في القرآن : -

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا وَلا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا ﴾ (الأحزاب:٤٥-٤٨)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (المؤمنون:٤٤)

وفي سيرة سيدنا لوط (ع) القدوة والمثل الأعلى للمؤمنين في كل زمان للاهتداء به في سموّ خلقه ورفعة شيمه وثباته على الدعوة إلى الله، وصبره الجميل على المكاره، والتوسل بمختلف الأساليب في التبليغ والدعوة.


زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَيَسْخَرُونَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ
اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
(البقرة:٢١٢)

سيدنا لوط (ع) يحذر قومه

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي ﴾ (الشعراء: ١٦٠-١٦٣)

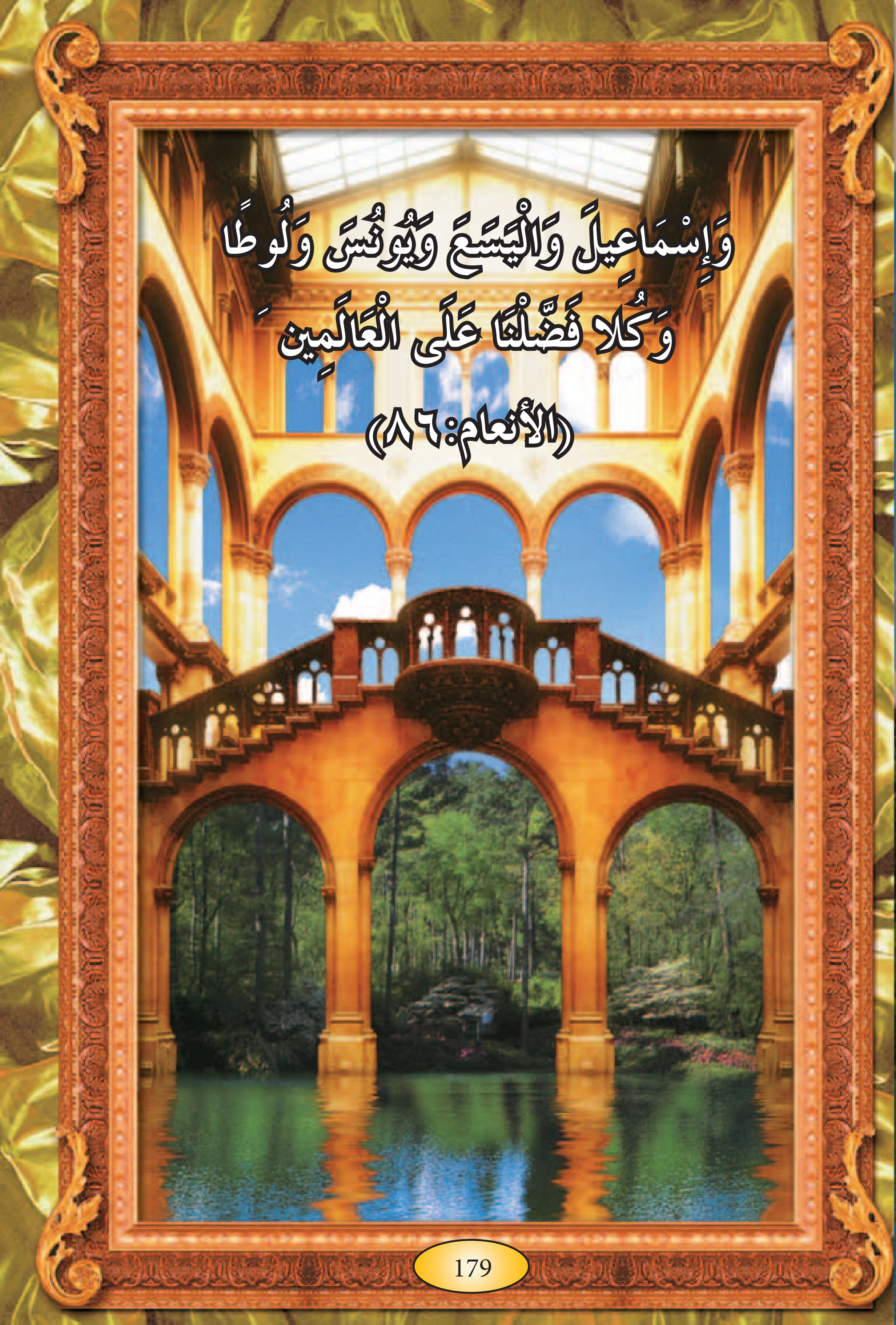
طلب نبي الله لوط من قومه ترك ما يقومون به من سيئات الأعمال، واتباعه في دينه. وبين لهم أنه لا يبغي منهم أجرا أو منفعة ولا ينتظر منهم جزاء، وإنما غايته إرضاء ربه وأداء ما حمّله من أمانة الدعوة إلى الإيمان:

﴿ ومَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٦٤)

وبعد ذلك، حذرهم من مغبة ما يقومون بها من أعمال مشينة، وفظاعة ما يعتمدونه من أساليب في حياتهم، وما فيها من مخالفة كبيرة لأسس ومفاهيم الأخلاق الفاضلة:

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنْ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنْ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنْ الْقَالِينَ ﴾ (الشعراء:١٦٥-١٦٨)

يحاول بعض الناس في أيامنا هذه، إظهار هذه الأخلاق المنحرفة والتصرفات الشاذة بمظهر مقبول للمجتمع ويحاولون إعطاءها صفة الشرعية. لكن المسلم يعيش وينظم حياته طبقا لما جاء في أحكام الله وسننه. ولقاء هذه التصرفات المشينة التي يصفها الله بالسيئات من الأعمال، على أهل الإيمان وحملة راية الحفاظ عن الدين أن يقفوا الموقف نفسه الذي أبداه سيدنا لوط (ع)ولقاء كل هذه الجهود والمساعي التي بذلها سيدنا لوط (ع) مع قومه ودعوته لهم


وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ
(الأنعام:٨٦)

ترك المنكر والفحشاء من الأعمال، جابهه قومه بالتهديد والوعيد معتمدين على كثرتهم العددية التي تعطيهم الثقة والقوة. وهذا شأن جميع الذين لا يؤمنون من المنكرين والملحدين الذين خلت قلوبهم من نور الهداية. فهم يشعرون بالقوة مستندين إلى كثرتهم. ويعلمنا ربنا أن المؤمنين كانوا في قلة وعلى مرّ التاريخ الإنساني.

كان مع سيدنا لوط (ع) من الذين آمنوا معه: (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(٣٦) (الذاريات)، لكن الله مع المؤمنين دائما، يشملهم برعايته وعونه، وهذا هو الأمر المهم. إن الله تعالى يعد المؤمنين بالنصر والتوفيق ما داموا على إيمانهم بقلوب مطمئنة ومتوجهين إلى ربهم بخالص أعمالهم وبالحسنات من أعمالهم والدعوة إلى نشر دين الله بين الناس، متوخين كسب محبة الله تعالى ونيل رضاه عنهم، والعمل في دنياهم لأجل آخرتهم:

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور:٥٥)

هذا الدستور الإلهي تحقق بالفعل خلال المئات من السنين التي مضت، حيث كان التوفيق والنجاح حليف المؤمنين رغم قلة عددهم أمام الكثرة الكبيرة من أقوامهم. وتأتي البشارة من الله:-

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤٩)

سيدنا لوط (ع) يقابل رسل الله إليه

عندما أتى رسل الله إلى سيدنا إبراهيم (ع)، بشروه بذرية وولد صالح أما الخبر الآخر الذي جاءوا به فقد كان حول مصير قوم لوط.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (العنكبوت:٣١)

ويخبرنا القرآن عن قصة الرسل مع سيدنا لوط (ع) :-

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (هود:٧٧)

ويستمر في بيان تصرفات قوم لوط حينما سمعوا بخبر مجيء رسل الله إلى بيت سيدنا لوط (ع) :-

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (القمر:٣٧)

وكان جوابه لقومه تحذيرهم من مغبة أعمالهم وتصرفاتهم :

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ(٧٨)قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ (هود:٧٩)

وفي قوله " هؤلاء بناتي ...) يقصد نساء قومه إلى جانب بناته. وهو بهذا يدعوهم إلى الطريق الصحيح والى الفطرة الإنسانية والسلوك المشروع في العلاقة الطبيعية بين المرأة والرجل حسبما أحلها الله وشرعها للناس ضمن مؤسسة الزواج والنكاح الشرعي (والله أعلم ...).

أما قوله " أليس فيكم رجل رشيد ..." فيظهر ما كان عليه قومه من

تهور وسلوك غير عقلاني واندفاع أهوج نحو الشر والانحراف والفساد.

هذا النبي الفاضل الذي كان مثال الأخلاق الحميدة والخصال الجميلة بين قوم من الأشرار الذين يعيشون حياة الانحلال والخروج عن الآداب، خاطب قومه يريد تركهم:-

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ (هود: ٨٠)

فأجابه رسل الله أن الله أرسل لهؤلاء عذابا وهلاكا لقاء ما يقترفونه من الطغيان وعمل المنكرات :

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ (الحجر:٦٢-٦٦)

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (هود:٨١)

هنا تظهر حقيقة امرأة لوط التي كانت مع قومها وبقيت معهم لتتلقى نفس مصيرهم من العذاب. وبالرغم من رفعة مقام زوجها الذي أعطاه الله مرتبة النبوة والمنزلة الرفيعة، والشرف الرفيع الذي ناله من جرائها فإنها لم تكتسب غير الخسران بسبب عدم إخلاصها، ولتمسكها بالنكران والكفر.

إن هلاك امرأة لوط على هذا الوجه وبهذه الصورة، يوحي لنا أن القربى من الأنبياء والانتساب إليهم لا يحمي الإنسان لوحده في الآخرة من

الحساب العسير، أو يكسبه أية مميزات. إنما نجاة الإنسان وخلاصه مرهون بقوة إيمانه وشدة تعلقه بربه وطاعته له وخشيته وخوفه من عذابه. فإذا كان قلب الإنسان خاليا من الإيمان الخالص بالله، فسوف يكون مصيره سوء العاقبة مهما كانت درجة قربه ونسبه من الأنبياء والرسل. بل ونقول هنا أن مسؤولياته وتعرضه للحساب يكون أعسر وأشد بسبب قربه من منبع الوحي وتلقيه الأوامر والنواهي من قرب أكثر من غيره. وهنا يذكر القرآن أيضا ما يتعلق بنساء النبي :-

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا ﴾ (الأحزاب: ٣٠-٣٢)

لقد بين لنا ربنا من أخبار زوجات سيدنا نوح (ع) وسيدنا لوط (ع)، العبر والدروس. ومقابل هؤلاء، يعطينا ربنا المثل الصحيح من امرأة فرعون وما كانت تحمله من نية خالصة وصفاء روح وخشية من الله والدعاء من صميم فؤادها.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (التحريم: ١٠-١١)

كان خبر قرب هلاك قوم لوط قد جاء إلى سيدنا إبراهيم أولا :-

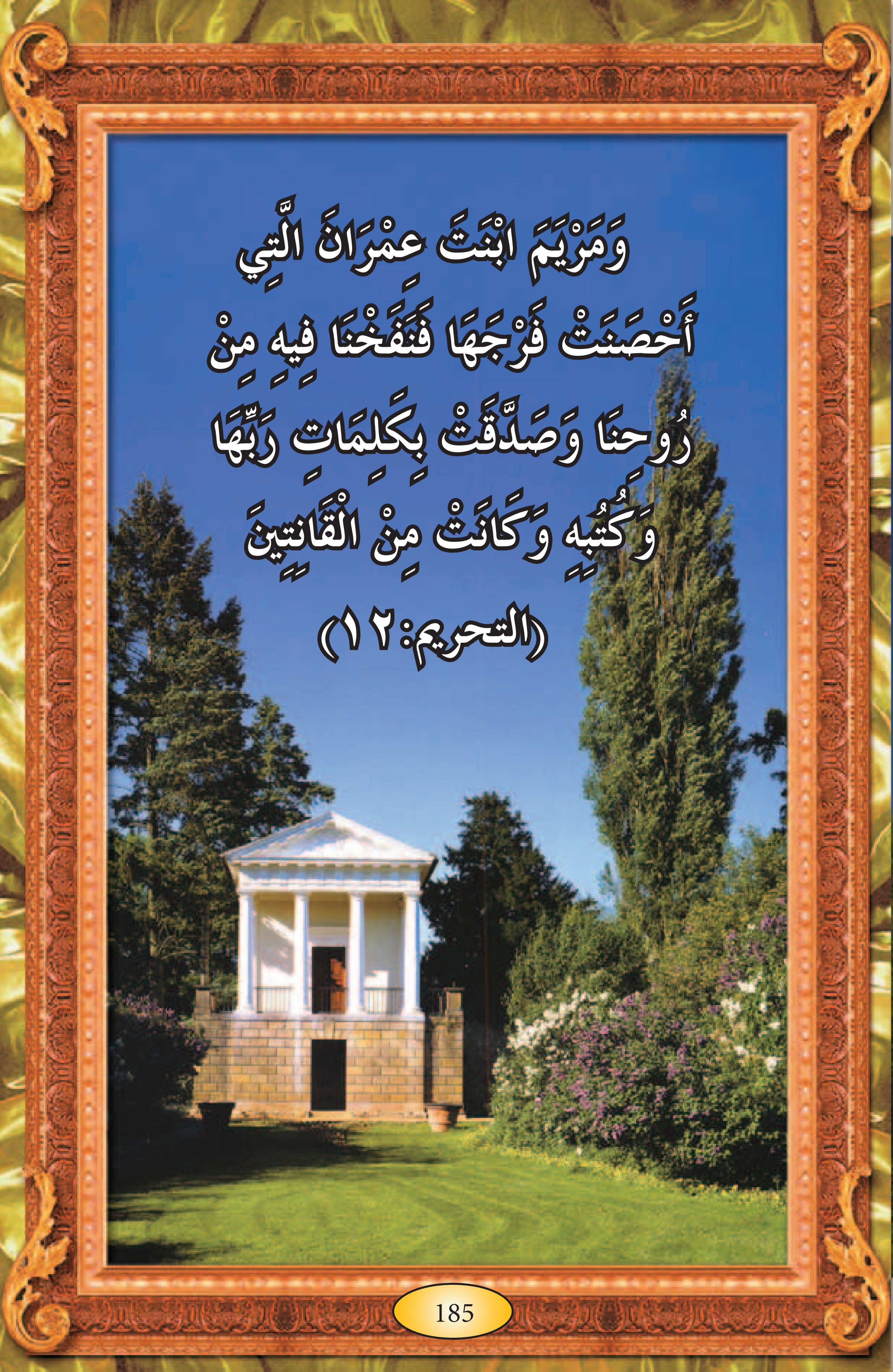
﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الذاريات: ٣١-٣٦)

ثم جاء الرسل إلى سيدنا لوط (ع) وأخبروه أيضا عن مصير قومه والهلاك الذي ينتظرهم عدا الذين آمنوا منهم، فإنهم بعيدون عن هذا الخطر الرهيب الذي جاء ذكره في القرآن :-

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (القمر: ٣٧)

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (هود: ٨٣- ٨٢)

إن العبارة التي ترد في بداية السورة " ... وجعلنا عاليها سافلها ..." تطرح احتمال حصول زلزال عنيف قلب ظهر الأرض على باطنها. كما وإن قوله " ... وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود" يوجه الأذهان إلى احتمال انفجار بركاني أعقبه قذف الصخور المحترقة وسيول المواد المنصهرة" ... مسومة عند ربك ...". وفي الآية (١٧٣) من سورة الشعراء، ترد الصيغة بشكل آخر " فأمطرنا عليهم مطرا فسآء مطر المنذرين" وهذه جميعها تتحدث عن زلازل عنيفة رجت الأرض رجا وقلبتها رأسا على عقب، وعن انفجار بركاني عنيف أمطر صخورا محترقة ومواداً منصهرة على شكل مطر من نيران أهلكت الكفار عن بكرة أبيهم (الله وحده أعلم ...).


وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ
رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا
وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ
(التحريم: ١٢)



يشير المؤرخون إلى أن مكان – وقوع هذا الحدث الرهيب كان بجوار " البحر الميت". وتعتبر مدينتا " سدوم" و " عمورة" الواقعتان على ضفاف البحر المذكور في المنطقة الواقعة حاليا بين الأردن وأراضي فلسطين المحتلة من قبل إسرائيل، مسرح ومكان تحقق وعد الله بحق قوم لوط الذين كانوا يعملون السيئات ويمارسون الشذوذ في العلاقات الجنسية، واستمروا على العناد والرعونة في كفرهم وضلالهم رغم ما قام به نبي الله لوط (ع) من تحذيرهم وإنذارهم بعقاب الله، ودعوتهم إلى سلوك طريق الإيمان والطهر. وتؤيد الحفريات الأثرية والأبحاث في المنطقة حدوث زلازل عظيمة أدت إلى انكسار الطبقات الأرضية وهبوطها وبالتالي خسفت المدينتان. ويعتبر بعض الباحثين أن المنطقة التي تمتاز بضحالة مياه البحر ربما كانت الموقع الذي خسف الله قوم لوط فيه. (للمزيد من المعلومات راجع :- هارون يحيى – هلاك الأقوام – الطبقة السادسة، اسطنبول، ٢٠٠٢).

المصير المشترك لقوم لوط وسكان بومبي
" سكان مدينة " بومبي" وقوم لوط لاقوا نفس المصير "

كانت مدينة " بومبي" مثال السقوط الأخلاقي والتفسخ والانحلال الاجتماعي في روما. مثلهم مثل قوم لوط في انتشار الشذوذ بينهم وسلوكهم طريقا غير ما يريده الله لعباده في طراز معيشتهم. فكانت نهايتهم مثل نهاية قوم لوط. لأن المجتمعات التي تقف ضد إرادة الله ستلاقي سوء العقاب في دنياهم قبل آخرتهم. وهذه سنة الله في خلقه ﴿ **اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا** ﴾ (فاطر:**٤٣**)، كما أخبرانا بكتابه.

(يؤكد العلم الألماني فيرنر كيللر استنادا إلى الأبحاث الجيولوجية والأثرية أن مدينتي " سدوم وعمورة" التي عاش فيهما قوم لوط تقعان في وادي (سيدوم"). ويقول أيضا في كتابه أن هذه المنطقة في الطرف الجنوبي من البحر الميت والتي كانت تحتوي مناطق مأهولة ومستعمرات سكنية قديمة. وتوجد بعض أجزاء وبقايا من المدينة المنكوبة التي غاصت في البحر، على الساحل. وتظهر الآثار المستوى العالي لنمط العيش والحياة الراقية التي كان عليها قوم لوط (ع)

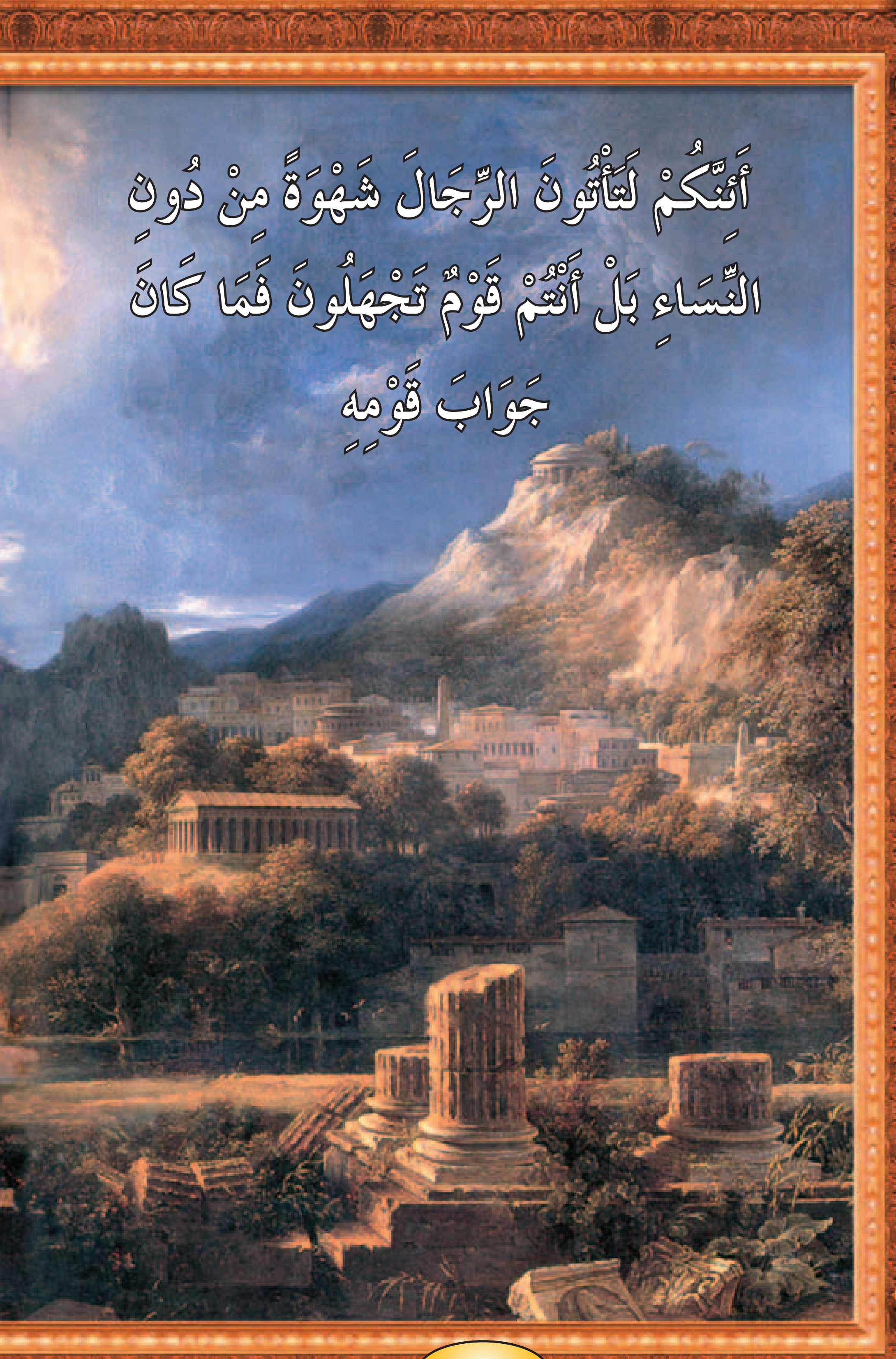


أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

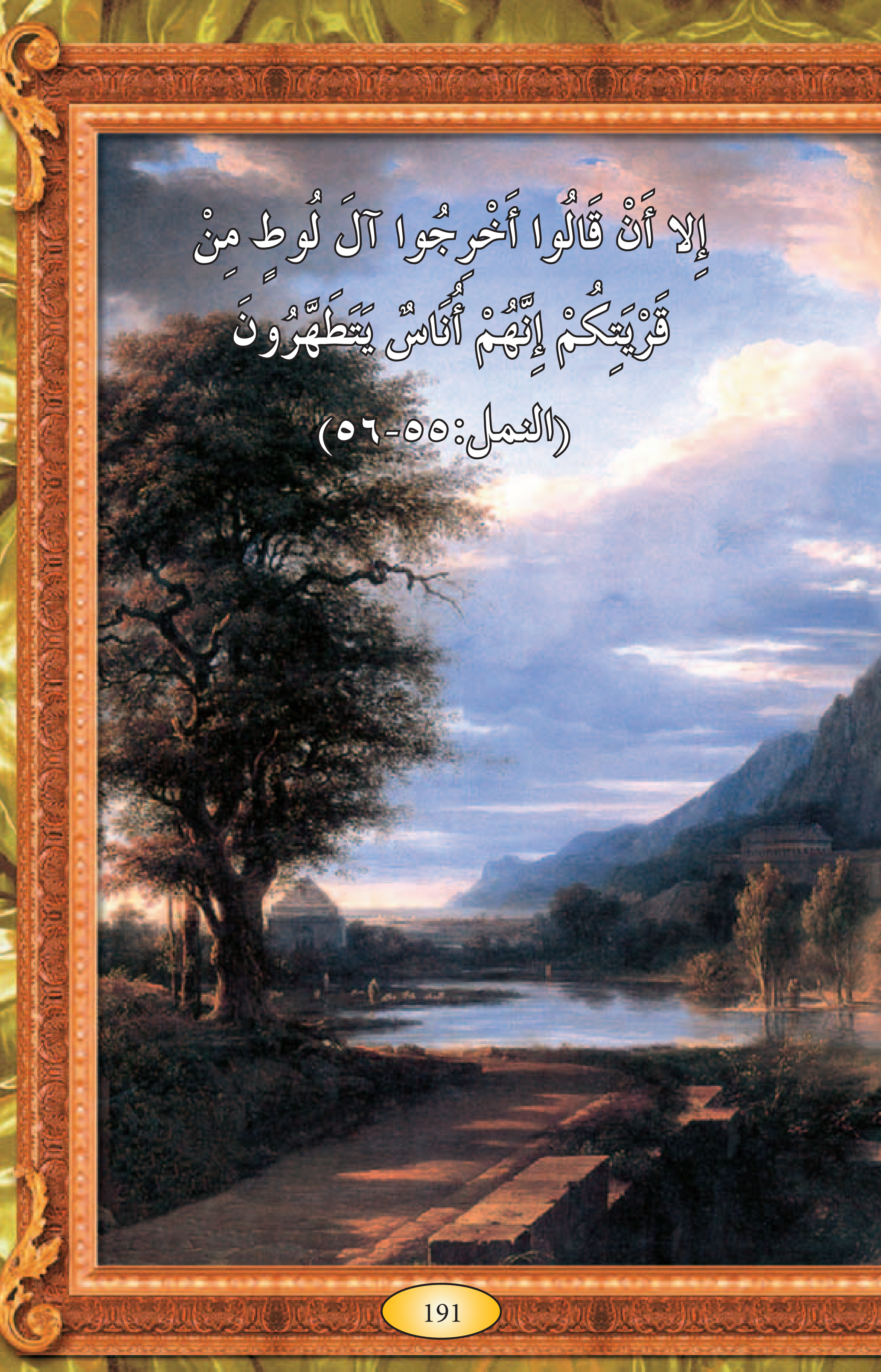
(التوبة: ٧٠)

(من الممكن أن تدل معنى عبارة " عاليها سافلها ..." في الآية إلى حصول زلازل سوت كل شيء بالأرض. والدليل أن البحر الميت يقع على خط منطقة زلازل وبراكين وفعاليات تحت أرضية.

تصف الآية ما حصل " ... وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود ...". يقول في ذلك العالم الآثاري – فيرنر كيللر– " أثناء حصول الانفجار البركاني تشققت قشرة الأرض وسمحت للمواد المنصهرة تحتها بالخروج، ويشاهد اليوم بقايا عدد من البراكين الخامدة شمالي ضفة نهر الأردن. وتظهر للعيان طبقات من المواد المنصهرة المتصلبة وأحجار البازلت فوق طبقة طباشيرية..." ٢٢



أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ
النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ


إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ
قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ
(النمل:٥٥-٥٦)

لقد تحقق خراب (بومبي) عن طريق ثورة بركان " فيزوف" القريب منها. هذا الجبل البركاني يعتبر رمزا لمدينة نابولي الإيطالية وهو بركان نائم وخامد منذ حوالي ٢٠٠٠ عام ويسمى أيضا بجبل " العبرة ...". وما تعرضت له مدينتا (سدوم وعورة) قريب الشبه بما لاقتها مدينة بومبي من سوء العاقبة. تقع مدينة نابولي في الجهة الغربية من الجبل ومدينة فيزوف في جهته الشرقية. وقبل حوالي ٢٠٠٠ عام انطمر الناس من أهالي (بومبي) تحت ركام ودخان وأنقاض وسيول الصخور المنهمرة والمنصهرة بصورة مفاجئة ودون سابق إنذار باغتت المدينة وأخذت أهلها على حين غرة، بحيث بقي كل شيء في المدينة على حاله تماما مثلما كان قبل ٢٠٠٠ عام، وكأن الزمن قد تجمد كل هذه المدة.

هناك الكثير من الدروس والعبر والحكم التي بالإمكان استخراجها من حادث مدينة (بومبي). ويشير التاريخ في صفحاته أن هذه المدينة كانت مركزا للتفسخ والانحلال الأخلاقي وتفشي الرذيلة وبشكل فضيع. ومن خواصها انتشار

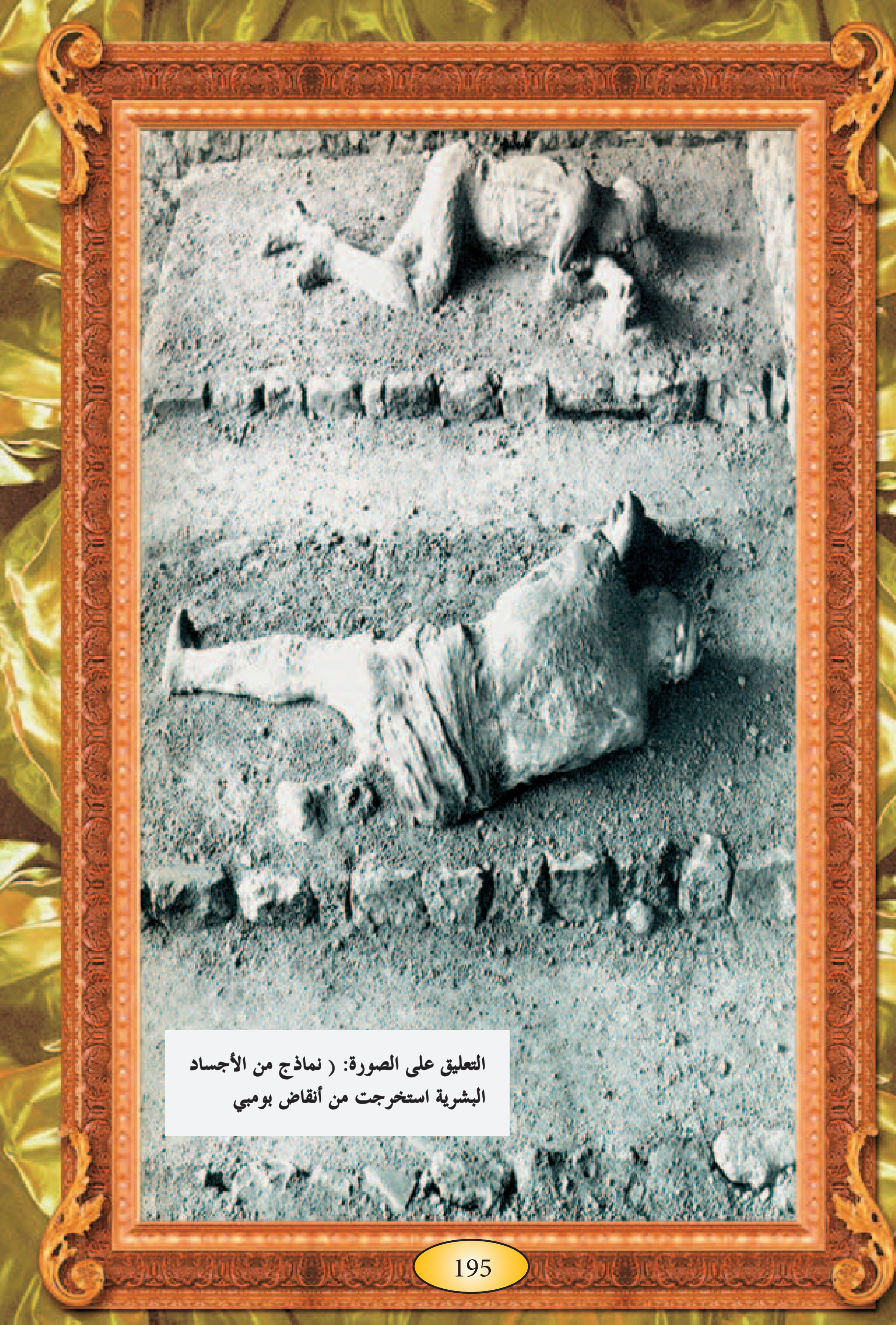


الفحش والفساد في أرجائها. غير إن ركام بركان فيزوف مسح كل شيء من الوجود. والمثير للعجب والدهشة أن انفجار بركان فيزوف الهائل لم يؤثر على سكان المدينة ولم يثر فيهم الهلع وبقوا على ما كانوا عليه دون أية محاولة للفرار وإنقاذ أنفسهم من هذا البلاء الذي تراءى لهم. وكأنهم تجمدوا في أماكنهم دون حراك. فترى عائلة كاملة وهي جالسة على مائدة الطعام وقد تحول الجميع إلى حجارة سوداء محترقة. كما وقد تحجرت عدة أزواج وهم في أوضاع الممارسة الجنسية وأوضاع مشينة أخرى تدل على الشذوذ والانحراف عن الطبيعة الإنسانية. والأعجب وجود الكثير من صغار السن من الفتيان معا أو الفتيات مع بعضهن أيضا. وبقيت وجوه كثيرة من الناس الذين تحجروا بشكل سليم تقريبا. وقد ارتسمت على هذه الوجوه، الحيرة والدهشة. ولعل كل هذا من آيات الله التي أخذتهم " بغتة". ويضرب القرآن مثلا، أهل مدينة من المدن:-

﴿ إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ (ياسين:٢٩)







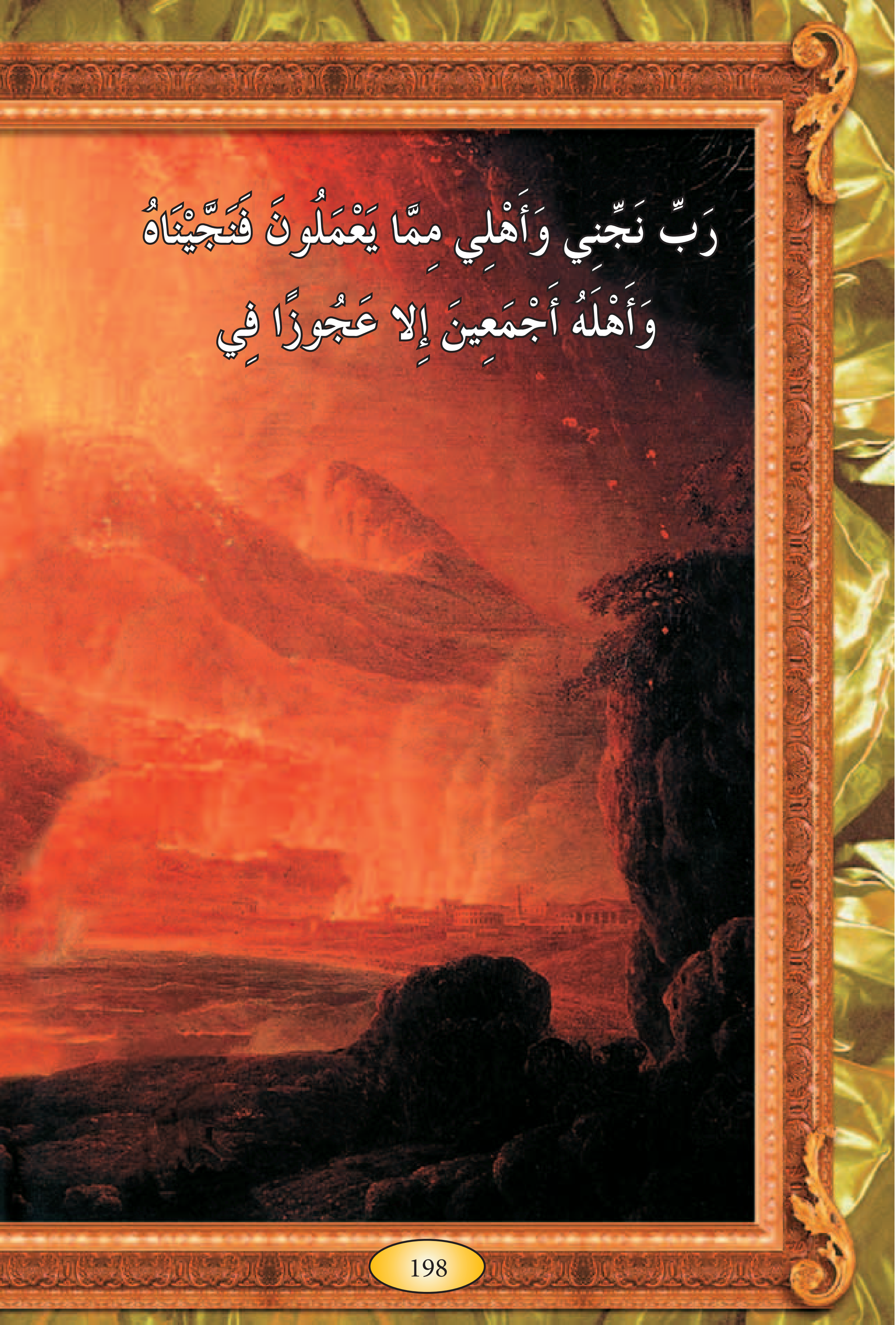
التعليق على الصورة: (نماذج من الأجساد البشرية استخرجت من أنقاض بومبي



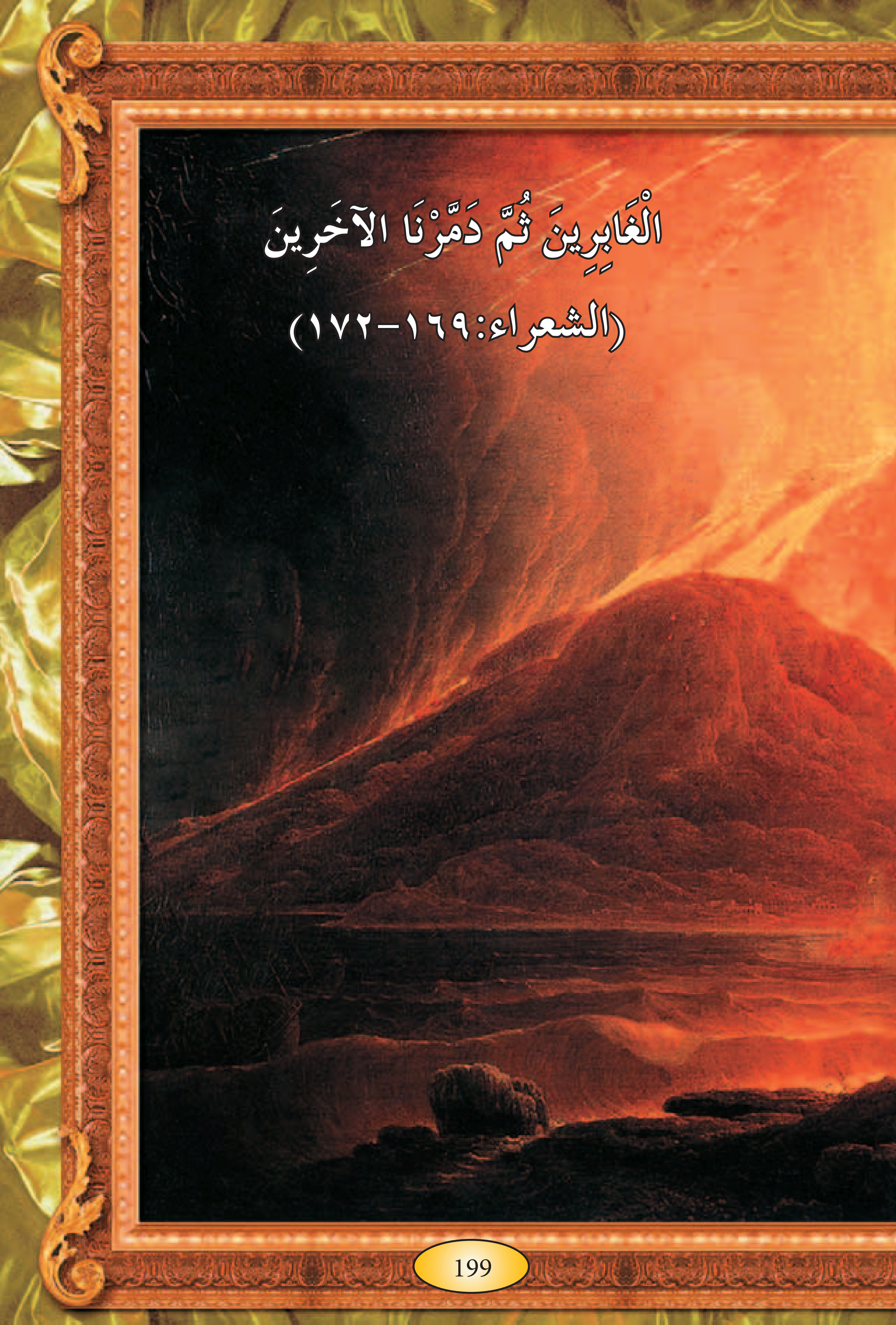





التعليق على الصورة (هذه النقوش الناتئة تمثل حياة أهل بومبي ومنها المجالس



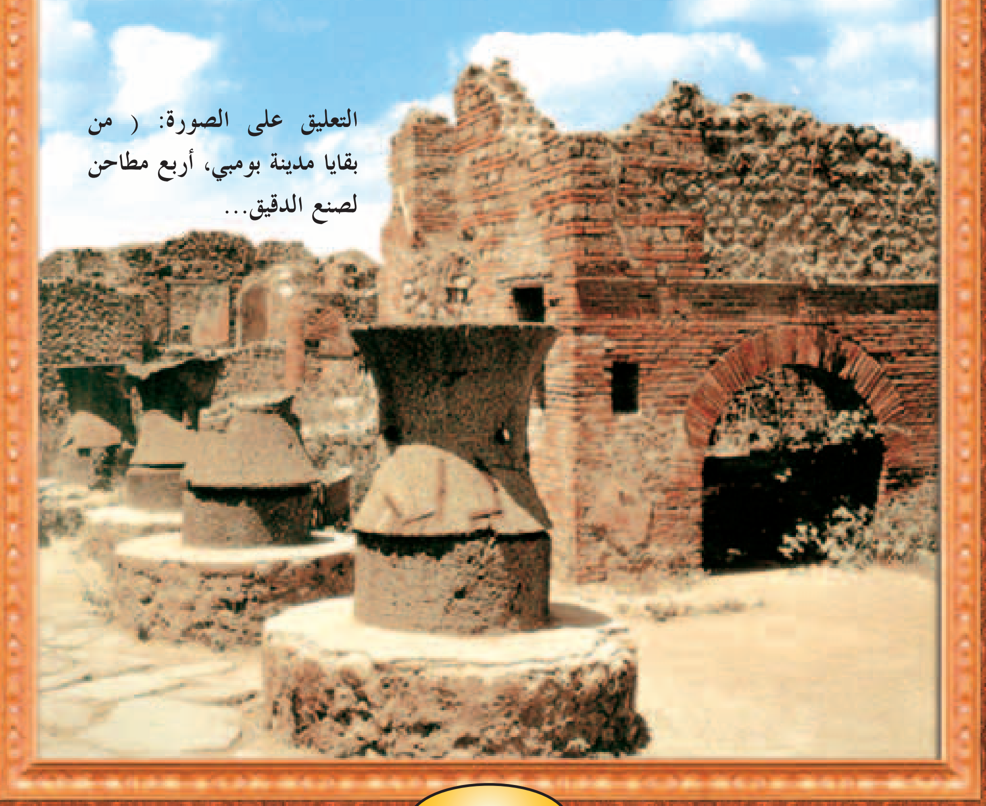
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلا عَجُوزًا فِي


الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ
(الشعراء:١٦٩-١٧٢)

هجرة سيدنا إبراهيم (ع) وسيدنا لوط (ع)

ورد في الآيات خبر هجرة أنبياء الله إبراهيم ولوط (عليهما السلام) بأمر من الله، ثم استقرارهما في أرض طيبة مباركة. ويخبرنا القرآن أيضا النهاية السعيدة لهذين الرسولين الأكرمين وكذلك ذرياتهما من بعدهما:-

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧١-٧٥)



التعليق على الصورة: (من بقايا مدينة بومبي، أربع مطاحن لصنع الدقيق...

هاجر هذا النبيان الكريمان من محل معيشتهما وبأمر من الله، حيث أراد لهما من أرضه. والهجرة عبادة يمارسها الصالحون من عباد الله. فالذين لا يؤمنون ولم يدخل نور الله إلى أنفسهم لا يفكرون في الهجرة وترك أماكنهم إلى مكان مجهول ليس لهم به علم مسبق. أما الإنسان المؤمن فإنه يعلم أن الله يريد له الخير أينما كان وحيثما وجه وجهه، وهاجر إلى أي ركن من أركان الأرض. فلا يجد التردد إلى نفسه سبيلا، ولا يمانع من ترك ما يملكه من حطام الدنيا إذا ما وجد أن في هذا الإجراء رضا الله. وقد ضرب لنا هذان النبيان أروع مثال على هذه الحقيقة الإيمانية. ففي سبيل تنفيذ أمر الله تركا كل شيء في هذه الحياة. وقد جازاهما الله أحسن جزاء في الحياة الدنيا ومنحهما من نعمه وبركاته. وما يعدهما في الآخرة أعظم وأبهى حيث النعيم المقيم في جنات الخلد.

والمؤمنون الذين يثقون بربهم ويطمئنون إليه، يعتقدون بأن كل ما يختاره الله لهم فيه الخير والبركة، ويستسلمون لأمر ربهم مثل الأنبياء الأخيار الذين كان التوكل والتسليم لرب العالمين من شيمهم وخصالهم. ذلك لأن الحرص على الدنيا والتكالب على ملذاتها والارتباط بالمنافع إنما تمثل أخلاق غير المؤمنين ومن صفاتهم المميزة. ويبشر الله عباده المؤمنين الطيبين بشمولهم برعايته وفضله في حياتهم الدنيا وفي آخرتهم.

إلى جانب كل هذه النعم، يتحدث القرآن عن نعمة الملك والحكم الذي جعله من نصيب بعض أنبيائه. فقد أعطى سيدنا داوود (ع) ملكا عظيما ومنح سيدنا سليمان (ع) القوة والسطوة والغنى، بينما يعد رسوله إبراهيم (ع) وذريته من بعده ملكا كبيرا:-

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٥٤)

إن الأموال الطائلة وكراسي الحكم والسلطان تعتبر سببا في دخول الغرور والكبر والإعجاب بالنفس إلى القلوب وسيطرتها على النفوس لدى الذين لا يؤمنون أو هم في غفلة عن ربهم. بينما الأنبياء والمؤمنون الذين يتبعون سبلهم ويسيرون على هداهم يسخرون عطايا ربهم في سبيل نشر دعوة الدين وانتشار الأخلاق الكريمة وأعمال البر والخير العام، ويبتغون رضا الله تعالى عنهم. والمؤمن يمتاز عن غيره باعتقاده الجازم أن الملك لله وحده، فيشكره على عطاياه واحسانه إذا ما أصابه الخير، ويصبر ويحمد ربه من صميم قلبه إذا



ما ذهب عنه المال والملك أو نقص. ذلك لأنه يدرك أن الحياة الدنيا هي دار الاختبار والامتحان وإن العاقبة للمتقين حيث نعيم الجنان يجازى بها عباد الله المؤمنون المخلصين :-

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التوبة: ٢٠-٢٢)

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * (الأعراف)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧-٩٦)



كلمة أخيرة

لقد بحثنا في هذا الكتاب عن بعض الخصائص والمميزات والمواقف في حياة وخصال النبي المختار سيدنا إبراهيم (ع) وسيدنا لوط (ع) وذكرنا ما كانا يتمتعان بها من شيم ومكارم، من الإيمان العميق بالله والثقة والاطمئنان إليه وحكمه بشكل مطلق، والتسليم إليه والتوكل عليه في جميع شؤونهما وأمورهما، وأخلاقهما الحميدة وسعيهما الحثيث وبذلهما الجهود لهداية مجتمعاتهما وأقوامهما، والدعوة إلى معرفة الله وتوحيده وترك عبادة الأوثان والإشراك بالله والكفر والانحراف والسيئات من الأعمال والمكابرة والطغيان، معتمدين على آيات القرآن الكريم ومستشهدين ببعض الأحاديث النبوية والتفاسير. لقد أظهر سيدنا إبراهيم (ع) عند قيامه بتبليغ الرسالة الربانية لقومه المشركين، الإيمان الثابت الراسخ والحكمة البالغة والصبر الجميل أمام قومه وما أظهروه وجابهوه من عنت وإصرار على الكفر ووضع العراقيل والمصاعب أمامه. كما قام سيدنا لوط (ع) بدعوة قومه وبصبر وأناة وباستمرارية وثبات لا يلين، إلى عبادة الواحد الأحد والابتعاد عن عمل المنكرات وترك الرذائل وما كانوا عليه من شذوذ وانحراف وتفسخ خلقي رهيب. هؤلاء الخيرّون من عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم لحمل رسالته إلى البشرية، أظهروا من الصبر والثبات على الإيمان ما جعلهم يكسبون رضا الله عنهم ونالوا جزاء ذلك من ربهم النصر والحماية والمقام الرفيع في حياتهم الدنيا، والخلود في نعيم جنانه في الحياة الآخرة.

إن اتخاذ هؤلاء الأنبياء والرسل المكرمين أمثلة يحتذى بهم

ونماذج يقتدى بهديهم من أولى الأهداف وغايات المؤمنين المخلصين لدينهم ليستحقوا نيل صفة عباد الرحمن الذين وصفهم الله في قرانه، الموحدين له والمتقين الخاشعين. ويبشرهم رب العالمين في سورة النساء :-

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩)

ولأجل أن يبلغ المؤمن مرتبة عالية عند ربه ويحشر في الآخرة مع زمرة الأنبياء والصالحين ويحظى عند الله بالقبول والرضا، عليه أن يسخر حياته لكل ما من شأنه تأمين اقترابه من ربه، وأن يزيد من ثقته واطمئنانه إلى حكمه وما يأتي منه، وأن يجعل كذلك دين الله المبين فوق أي اعتبار آخر. ولعله من البداهة أن نقول، أن كل من أظهر من الخلق الجميل ونفذ مقولة سيدنا إبراهيم (ع) " وسلمت أمري لرب العاملين" ونظم طراز معيشته وأسلوب حياته على هذه الأسس والاعتبارات، فإنه يحق له أن يأمل ويرجو ويطمح من ربه الغفور الرحيم أن يجازيه الجزاء الحسن ويهديه سبيل الخلاص والسعادة الأبدية.

إن كثرة الغافلين عن ربهم والناكرين له والجاحدين لنعمه في هذه الحياة يجب أن لا يثبط من عزائم الرجال أو يقلل من هممهم. فسيدنا إبراهيم (ع) دعا قومه وكان وحيدا فردا بينهم. ولهذا قال فيه سبحانه وتعالى مثنيا عليه في قرآنه: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٠) (النحل). وقام سيدنا لوط (ع) مع نفر قليل من المؤمنين معه بدعوة قومه إلى طريق الهدى والإيمان والرشاد (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(٣٦) (الذاريات). وكان هو مع أهل ذلك البيت المسلم، الأقوىَ والأعلى بفضل عون الله وعنايته ووقوفه إلى جانبهم.

والمهم في الأمر هو إدراك السر الأعظم في كون جميع المخلوقات تحت سيطرة وحكم وسلطان الخالق المبدع وقدرته العظيمة، وتنظيم الحياة والعيش طبقا لما تقتضيه هذه الحقيقة. وقد أدرك سيدنا إبراهيم (ع) وسيدنا لوط (ع) حقيقة وكنه هذا السر العظيم فأصبحوا من عباد الله المخلصين وأخلائه المقربين. إنها دعوة مباركة للمؤمنين كافة إلى التمثل بهؤلاء الأنبياء الكرام والرسل العظام في اكتساب الإيمان العميق والسعي الحثيث لتحقيق ما يؤمن لهم الدخول تحت خيمة زمرة عباد الله المكرمين، وأصفياءه المقرّبين.



انهيار الدّاروينية

لقد ظهرت النظرية الدّاروينية، يعني نظرية التطور بهدف رفض فكرة الخلق، بيد أنها لم تنجح في ذلك، واُعتبرت مجرد سفسطة خارجة عن نطاق العلم. وهذه النظرية تدّعي أن الكائنات الحية تولدت بطريق المصادفة من الكائنات غير الحية، وقد تم ردها ونقضها بعد أنّ أثبت العلم أنّ الكون والكائنات الحية تحتوي على أنظمة غاية في الإعجاز. وعلى هذا النحو أثبت العلم كذلك أن الله تعالى هو خالق الكون وخالق جميع الكائنات الحية.

وهذه النظرية لا تقوم سوى على مناقضة الحقائق العلمية والأكاذيب التي ترتدي لباس العلم وجملة من التزييفات، وقد تم القيام بحملة واسعة على نطاق العالم لكي تبقى هذه النّظرية قائمة على أقدامها، غير أن هذه الحملة لم تتمكن من إخفاء الحقيقة.

لقد تعالت الأصوات خلال الثلاثين سنة الماضية في دنيا العلم تبيّن بأن نظرية التطور تمثل أكبر خديعة في تاريخ العلم. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت بشكل خاص اعتبارًا من عام ١٩٨٠ بأنّ الإدعاءات الدّاروينية عارية تماما من الصّحة، وقد تم التصريح

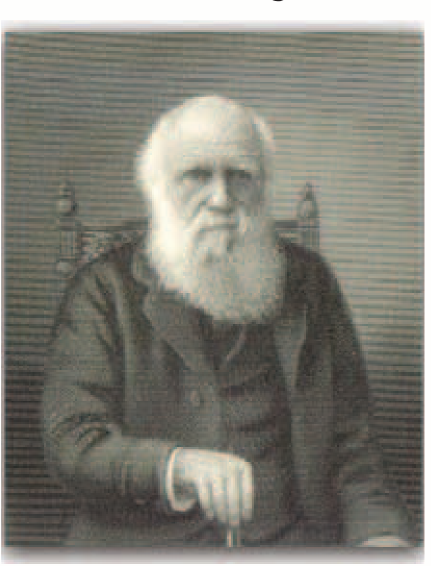
بذلك من قبل العديد من كبار رجال العلم. ففي الولايات المتحدة بشكل خاص، صرح الكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الحفريات وغيرها من العلوم الأخرى بأن الداروينية وصلت إلى طريق مسدود وأنّ أصل الكائنات الحية هو الخلق. واليوم تؤكد التطوّرات العلمية بأن الكون وجميع الكائنات الحية قد خُلقت من قبل الله تعالى.

لقد تناولنا مسألة انهيار نظرية التطور ودلائل الخلق في مواضع كثيرة من أعمالنا، وسوف نُواصل ذلك في أعمال أخرى. ولكن بالنظر إلى الأهمية البالغة التي يكتسيها هذا الموضوع رأينا أنه من الفائدة إيراد ملخص لذلك في هذا الموضع أيضا.

الانهيار العلمي للنظرية الداروينية

بالرغم من أن هذه النظرية تعود في جذورها إلى التاريخ الإغريقي القديم، إلا أنها شهدت أوسع انتشار لها في القرن التاسع عشر . كان أهم تطور شهدته النظرية هو صدور كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" الذي صدر عام ١٨٥٩.

في هذا الكتاب ينكر داروين أن الأنواع المختلفة على الأرض قد خلقها الله. يقول داروين أن جميع الكائنات الحية لها جد مشترك وأنها قد تنوعت واختلفت بسبب اختلافات طارئة متدرجة أتت عليها عبر الأزمان.



شارلز داروين

وكما يقر داروين نفسه، فإن نظريته لا تقوم على أي حقيقة علمية

ثابتة، بل إنها مجرد "إفتراض". علاوة على ذلك، يعترف داروين في فصل مطول من كتاب بعنوان "المصاعب التي تواجهها النظرية" أن النظرية تتهاوى أمام العديد من الأسئلة الحرجة.

عقد داروين آماله على الاكتشافات العلمية التي كان يظن أنها ستزيل العقبات التي تواجهها نظريته، إلا أن ما أثبتته هذه الاكتشافات جاء عكس ما تمناه الرجل.

وتظهر هزيمة داروين أمام العلم الحديث من خلال ثلاث نقاط رئيسية:

١-لم تتمكن هذه النظرية بأي وسيلة من الوسائل أن تفسر كيف نشأت الحياة على وجه الأرض.

٢-لا يوجد أي اكتشاف علمي يدل على قدرة "التقنيات التطورية" التي تفترضها النظرية على التطور في أي حال من الأحوال.

٣-مايثبته السجل الإحاثي هو عكس الادعاءات التي تقوم عليها نظرية التطور.

سنناقش في هذا الفصل هذه النقاط الثلاث الرئيسية:

العقبة الأولى التي لم تذلل: أصل الحياة

تقول نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية قد تطورت عن خلية وحيدة ظهرت على سطح الأرض البدائية منذ ٣,٨ ملايين سنة. ولكن كيف يمكن لخلية وحيدة أن ينشأ عنها الملايين من الأنظمة والأنواع الحية؟ وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلاً فلماذا لم تظهر علائمه في السجلات الإحاثية ، هذا سؤال لم تتمكن النظرية الإجابة عليه. إلا أن السؤال الأول الذي بقي يواجه هذه النظرية، التي لم تجد جوابا عليه حتى الآن، هو كيف نشأت "الخلية الأولى".

تفسر نظرية التطور، التي لا تعترف بالخلق ولا تقبل بوجود خالق، نشوء الخلية الأولى على أنها أتت عن طريق الصدفة التي تتضمنها قوانين الطبيعة. حسب

هذه النظرية تكون المادة الحية قد نشأت من مادة غير حية نتيجة للعديد من المصادفات، ومن المؤكد أن هذا الزعم لا يتوافق مع أبسط قواعد علم الأحياء.

الحياة تنشأ من الحياة

في هذا الكتاب، لم يتطرق داروين إلى أصل الحياة. فقد كان الفهم البدائي لحقيقة الحياة في عصره يعتمد على الإفتراض بأن الكائنات الحية ذات بنيات بسيطة جداً. لقد لاقت نظرية النشوء التلقائي التي انتشرت في القرون الوسطى، والتي تقول أن المواد غير الحية تجمعت من تلقاء نفسها لتشكل كائن حي، رواجاً واسعاً في ذلك الزمن. من الاعتقادات التي نتجت عن هذه النتيجة هي أن الحشرات تنشأ عن بقايا الطعام، وأن الجرذان تأتي من القمح. هنا يجدر بنا أن نتعرض لتجربة مضحكة قام بها البعض، حيث تم وضع بعض القمح على قطعة وسخة من القماش، وكان المنتظر أن يخرج جرذاً بعد برهة من الزمن.

ومن المنطلق ذاته كان يعتقد أن الديدان تخرج من اللحم؛ إلا أنه لم يلبث العلم أن أثبت أن الديدان لا تخرج من اللحم بشكل تلقائي، وإنما يحملها الذباب بشكل يرقانات لا ترى بالعين المجردة.

كان هذا الاعتقاد سائداً في الزمن الذي كتب فيه داروين كتاب "أصل الأنواع" ، فقد كان يعتقد بأن البكتريا جاءت إلى الوجود من مادة غير حية وكان هذا الاعتقاد مقبوا علمياً.

لم يطل الوقت حتى أعلن باستور نتائج دراساته الطويلة وأبحاثه الكثيرة التي تدحض أساس نظرية داروين. قال باستور في محاضرته التي أعلن فيها عن انتصاراته في السوربون عام ١٨٦٤:

"لا يمكن أن تستفيق نظرية النشوء التلقائي من الضربة الصاعقة التي أصابتها بها هذه التجربة البسيطة." ٢٠

قاوم المدافعون عن النظرية الداروينية اكتشافات باستور لوقت طويل. إلا

أن ماجاء به باستور بالإضافة إلى ما كشف عنه التقدم العلمي من البنية المعقدة لخلية المادة الحية، أبقيا فكرة وجود الحياة على سطح الأرض عن طريق الصدفة في مأزق لم تستطع الخروج منه.

المحاولات العاجزة في القرن العشرين

إن أول من تبنى موضوع منشأ الحياة في القرن العشرين كان التطوري المشهور ألكسندر أوبارين. تقدم هذا العالم بالعديد من الآراء العلمية في الثلاثينيات من ذلك القرن، حاول من خلالها إثبات إمكانية تطور خلية الكائن الحي عن طريق الصدفة. إلا أن دراساته لم تنته إلا بالفشل، مما حدا بأوبرين تقديم الاعتراف التالي: " للأسف، بقيت مشكلة منشأ الخلية الأولى أكثر النقاط غموضاً في دراسة تطور الأنظمة الحية".[٢١]

حمل التطوريون بعد أوبرين مسؤولية حل مشكلة منشأ الحياة. وكان أكثر هذه التجارب شهرة تلك التي قام بها الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر عام ١٩٥٣. قام هذا العالم بدمج عدد من الغازات التي يفترض أنها كانت موجودة في المناخ البدائي للأرض، وأضاف إليها مقدار من الطاقة. من خلال هذه التجربة تمكن ميللر من تركيب عدد من الحموض الأمينية (الجزيئات العضوية) التي تتواجد في تركيب البروتينات.

إلا أنه لم تمض عدة سنوات حتى ثبت بطلان هذه النظرية، التي كانت تعتبر خطوة رائدة في تقدم نظرية التطور، فالمناخ الذي استخدم في هذه التجربة كان مختلفاً جداً عن الظروف الأرضية الحقيقية.[٢٢]

وبعد فترة من الصمت اعترف ميللر أن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقياً.[٢٣]

لقد باءت جميع محاولات التطوريين في إثبات نظريتهم في القرن العشرين بالفشل. يعترف العالم الجيولوجي بادا من معهد سكريبس في سانت ياغو بهذه

الحقيقة في مقالة نشرتها مجلة "الأرض" عام ١٩٩٨:

"ها نحن اليوم نغادر القرن العشرين دون أن نتمكن من حل المشكلة التي بدأنا القرن معها وهي : كيف بدأت الحياة على الأرض؟"[٢٤]

البنية المعقدة للحياة

السبب الرئيسي الذي أوقع نظرية التطور في مأزق "كيف بدأت الحياة" هو أن الكائنات الحية، حتى البسيطة منها، تنطوي على بنيات في غاية التعقيد. فالخلية الواحدة من الكائن الحي أكثر تعقيداً من أي منتج تقني صنعته يد البشر. فحتى يومنا هذا لا يمكن لأي مختبر كيميائي مهما بلغت درجة تطوره أن ينجح في تركيب خلية حية من خلال تجميع عدد من المواد العضوية مع بعضها.

إن الظروف المطلوب توفرها لتركيب خلية حية هي أكثر بكثير من أن تُعرض. فإمكانية تركيب أحد البروتينات التي تعتبر حجر الأساس في الخلية بشكل عشوائي هي ١ إلى $١٠^{٩٥٠}$ وهذا بالنسبة لبروتين مكون من ٥٠٠ حمض أميني؛ وفي الرياضيات يعتبر أي احتمال أصغر من ١٥٠ مستحيلاً!

إن جزيء الــ DNA الذي يتواجد في نواة الخلية والذي يخزن المعلومات الوراثية، هو في حد ذاته بنك معلومات معجز. فلو أن المعلومات المشفرة في

إن الطفرات الوراثية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن أن تظيف معلومات جديدة لــ DNA : فالأجزاء التي تكون المعلومات الجينية عندما تنزع من أماكنها إما أن يحدث لها خراب أو تنتقل إلى قسم آخر من الــ DNA، فالطفرات الوراثية لا يمكن أبدا أن تكسب الكائن الحي عضوا جديدا أو ان تمنحه خاصية إضافية. ما يحدث من جراء الطفرات الوراثية أمور غير عادية كأن تخرج الرجل من الظهر أو تخرج الأذن من البطن.

جزيء DNA قد أفرغت كتابة فإنها ستشغل مكتبة عملاقة مكونة من ٩٠٠ مجلداً من الموسوعات كلا منها يتألف من ٥٠٠ صفحة.

وهنا تنشا مشكلة أخرى مثيرة: فجزيء الـــ DNA لا يمكنه أن يتضاعف إلا بمساعدة بعض البروتينات المختصة (الأنزيمات)، وهذه الأنزيمات لا يمكن أن تتشكل بدورها إلا من خلال المعلومات المشفرة في جزيء الـــ DNA. وبما أن كل منهما يعتمد على الآخر ، فمن الضروري أن يتواجدا في الوقت نفسه عند عملية التضاعف.وهذا يأتي بالنظرية القائلة أن الحياة قد نشأت من تلقاء نفسها إلى طريق مسدود. وقد اعترف البروفسور ليسلي أورجيل ، وهو تطوري مشهور من جامعة سانت ياغو كاليفورنيا بهذه الحقيقة من خلال موضوع نشر في مجلة العلوم الأمريكية عام ١٩٩٤:

"من المستحيل أن تكون البروتينات والحموض الآمينية، وكلاهما جزيئات معقدة، قد نشأت من تلقاء نفسها في نفس الوقت وفي نفس المكان. أضف إلى عدم إمكانية تواجد أحدهما دون الآخر . وهكذا ومن النظرة الأولى يجد أحدنا أنه من المستحيل أن تكون الحياة قد نشأت من خلال عمليات كيميائية بحتة"[٢٥]

لا شك أنه إذا كان من المستحيل أن تنشأ الحياة من أسباب طبيعية، فلا بد أنها قد "خلقت" بيد خالق. هذه الحقيقة تلغي نظرية التطور ، والتي تهدف بالدرجة الرئيسية إلى إنكار الخلق، من أساسها.

الأفكار الخيالية لنظرية التطور

النقطة الثانية التي تدحض نظرية داروين هي أن كلا المفهومين اللذين وضعتهما النظرية كـــ "تقنيات تطورية" ثبت أنها في الحقيقة لا تملك أي قوة تطورية.

لقد اعتمد داروين في خدعة التطور التي خرج بها على فكرة "الإصطفاء

الطبيعي". وقد ضمن هذه الفكرة في كتابه: "أصل الأنواع ، عن طريق الاصطفاء الطبيعي..."

يقول قانون الاصطفاء الطبيعي أن الكائنات الحية التي تمتلك خصائص قوية فقط هي التي يمكن أن تبقى في معركة الحياة. على سبيل المثال، عندما تهاجم الحيوانات المتوحشة قطيعاً من الغزلان، فإن الغزلان الأقوى والتي يمكنها أن تركض بسرعة أكبر هي التي ستنجوا وتبقى على قيد الحياة. وهكذا يتشكل قطيع جديد من الأقوياء والسريعين فقط. ولكن، ولنفترض أننا سلمنا بهذا جدلاً، فهل يمكن لهؤلاء الأقوياء من قطيع الغزلان أن يتطوروا بأي شكل من الأشكال ليصبحوا خيولاً مثلاً؟ بالطبع لا.

لذلك نقول أن هذه الفكرة لا قوة تطورية لها. داروين نفسه كان قلقاً بشأن

ليس هناك أي مكسب حصل لنظرية النشوء والإرتقاء من فكرة الانتقاء أو الاختيار الطبيعي. ذلك لأن هذه الآلية لم تعمل في يوم من الأيام على تطوير المعلومات الجينية أو إغنائها لدى أي نوع من الأنواع. إنه لا يمكن لأي نوع أن يتغير إلى نوع آخر مختلف عنه؛ بمعنى أن التطور لا يمكن أن يغير نجم البحر فيصبح سمكة، أو يغير الأسماك فتصبح ضفادع، أو يغير الضفادع فتصبح تماسيح أو يغير التماسيح فتصبح طيورا.









إنّ علماء الأحياء الذين هم من أنصار نظرية التطور قد أخذوا يبحثون عن نموذج مفيد للطفرات الأحيائية حيث عرّضوا الذباب للطفرات الأحيائية منذ بداية القرن، إلا أنه في نهاية تلك المساعي والمجهودات لم يتم الحصول إلا على ذباب مريض، وعليل، وغير تام. ويوجد في الأعلى وعلى اليسار صورة لذبابة فاكهة طبيعية، وفي الأسفل وعلى اليمين توجد ذبابة فاكهة أخرى تعرضت للطفرات الأحيائية وخرجت سيقانها من رأسها، أما في أعلى اليمين فتوجد ذبابة فاكهة قد خرجت أجنحتها بشكل مشوه وذلك بالطبع نتيجة لما تعرضت له من طفرات أحيائية.

هذه الحقيقة التي وضعها في كتابه أصل الأنواع حيث قال:

"لا يمكن لقانون الاصطفاء الطبيعي أن يحقق شيئاً ما لم تحدث تغييرات فردية إيجابية" .[٢٦]

تأثير لامارك

ولكن كيف تحدث هذه "التغيرات الإيجابية"؟ حاول داروين الإجابة على هذا السؤال من خلال الفهم البدائي للعلوم في ذلك الوقت. فحسب نظرية لامارك الذي عاش قبل داروين، فإن الكائنات الحية تورث صفاتها التي اكتسبتها

خلال حياتها إلى الأجيال التالية ، وهذه الصفات تتراكم من جيل إلى آخر لتشكل أنواع جديدة من الكائنات الحية. فحسب لامارك، الزرافات هي كائنات تطورت عن الظباء عندما كانت تجاهد من أجل الوصول إلى الثمار التي تحملها الأشجار العالية، فطالت رقبتها من جيل إلى آخر حتى استقرت على هذا الطول.

وباقتفاء أثره، أورد داروين مثالاً مماثلاً في كتابه فقال أن الدبب غطست في الماء أثناء بحثها عن الطعام فتحولت إلى حيتان على مر الأجيال".[٢٧]

إلا أنه ما لبثت أن ظهرت قوانين الوراثة على يد العالم ماندل في القرن العشرين، مما أحبط أسطورة امتداد الصفات عبر الأجيال. وهكذا سقط الاصطفاء الطبيعي كدعامة من دعامات نظرية التطور.

الداروينية الجديدة والطفرات

ومن أجل الوصول إلى حل، قام الداروينيون بتطوير "نظرية تركيبية جديدة" أو ما يدعى بـــ "الداروينية الجديدة" في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. أضافت الداروينية الجديدة نظرية "الطفرات"وهي تشوهات جينية تطرأ على الكائن الحي وتحدث بفعل تأثيرات خارجية مثل التعرض إلى الإشعاعات وأخطاء في تضاعف الـــ DNA، بالإضافة إلى الطفرات الطبيعية.

و النموذج الذي يقف مدافعاً اليوم عن نظرية التطور هو الداروينية الجديدة.تقول هذه النظرية الجديدة ـــأن الملايين من الأحياء المتواجدة على سطح الأرض قد جاءت نتيجة لطفرات طرأت على الأعضاء المعقدة لهذه الكائنات مثل الآذان والعيون والرئات والأجنحة، أي إضطرابات وراثية. إلا أن الحقيقة العلمية تأتي في عكس الاتجاه المطلوب. فالطفرات لم تكن في يوم من الأيام إيجابية تؤدي إلى تقوية وتعزيز القدرة الحيوية الكائن الحي، وإنما إلى إنهاكها وإضعافها..

والسبب وراء هذا ببساطة هو أن جزيء DNA يحمل بنية معقدة جداً وأي تغيير عشوائي فيها سيؤدي ضرراً كبيراً. يشرح عالم الجينات رانغاناتان



الموضوع كالتالي:

"أولاً، الطفرات الجينية نادرة الحدوث. ثانياً الطفرات في معظمها ضارة ومهلكة في بعض الأحيان لأنها تغيرات عشوائية ، وأي تغير غير منظم، علاوة على المنظم ، في أي كائن حي راقيينتحدر به نحو الأسوء ولا ترتقي به إلى الأفضل. فالهزة الأرضية التي قد تصيب أحد الأبنية على سبيل المثال، ستتسبب في تغيير في الإطار العام لها، وهذا بالطبع ما لن يكون تحسيناً في البناء."[٢٨]

لهذا ليس غريباً غياب أي دليل على وجود طفرة كانت السبب في تغيير الشفرة الوراثية نحو الأفضل. على العكس فجميع الطفرات كانت ناكسة . أصبح واضحاً إذاً أن الطفرة التي اعتبرت من تقنيات التطور لا تجلب على الكائن الحي إلا المزيد من الضعف وتجعله عاجزاً. (من التأثرات الشائعة للطفرة في العصر الحديث مرض السرطان). وطبيعي أن لا تكون تقنية مدمرة من تقنيات "التطور"، كما لا يمكن لـــ "الاصطفاء الطبيعي " أن ينجز شيئاً بنفسه. وهذا يعني أنه لا يوجد تقنيات تطور في الطبيعة. وبانتفاء وجود هذه التقنيات تنتفي عملية التطور.

السجلات الإحاثية: لا دليل على وجود أشكال مرحلية

في الحقيقة لا يوجد أي دليل في سجل المستحاثات على أكثر الادعاءات وضوحاً في سيناريو نظرية التطور.

حسب نظرية التطور، فإن كل كائن حي قد نشأ عن كائن قبله، أي

أن الكائنات السابقة قد تحولت إلى كائنات أخرى، وكل الأنواع نشأت بهذه الطريقة. وحسب النظرية، فإن هذه التحولات استغرقت ملايين السنين.

وإذا كان هذا الافتراض حقيقي ، فمن الضروري وجود عدد كبير من الأنواع المرحلية التي عاشت في فترة التحول الطويلة. على سبيل المثال لابد من وجود كائن نصفه سمكة ونصفه سلحفاة يحمل صفات السلحفاة بالإضافة إلى صفات الأسماك التي يحملها أصلاً. أو كائنات نصفها طير والنصف الآخر زواحف، أي تحمل بعض صفات الطيور بالإضافة إلى صفات الزواحف التي تحملها أصلاً. وبما أنها في الطور المرحلي، فهي كائنات عاجزة غير مؤهلة، ومعاقة؛ ويطلق التطوريون على هذه الأشكال الخيالية إسم "الأشكال التحولية"

لو كان هناك حيوانات كتلك حقاً، فيجب أن يكون هناك الملايين بل البلايين منها وبشكل متنوع. والأهم من ذلك يجب أن تحمل سجلات المستحاثات بقايا هذه الأحياء الغريبة. يقول داروين في كتابه "أصل الأنواع":

"إذا كانت نظريتي صحيحة، فلابد من وجود عدداً كبيراً من الأنواع المختلفة التي تصنف ضمن فئة واحدة، وهذا الوجود ستثبته السجلات الإحاثية". [٢٩]

آمال داروين تتبدد

بالرغم من جميع محاولات التطوريين الجادة في إيجاد مستحاثات تدعم تصوراتهم في وجود مخلوقات تحولية في منتصف القرن العشرين في جميع أنحاء العالم، إلا أنهم لم يجدوا أ ياً منها . لقد أثبتت جميع المستحاث التي اكتشفت أثناء الحفريات الجيولوجية عكس ما قالت به النظرية الداروينية تماماً: لقد نشأت الحياة فجأة وبتشكل تام لا وجود لأي شكل تحولي.

أقر أحد علماء التطور، العالم الإنجليزي ديريك آغر Derek Ager بهذه الحقيقة عندما قال:

النقطة هي أننا عندما قمنا بتقصي السجل الإحاثي بالتفصيل سواء على مستوى الأنواع أو الترتيب الزمني المرة تلو المرة، لم نجد تطور تدريجي أو مرحلة انتقالية، وإنما ظهور مفاجئ لمجموعة من الكائنات على حساب أخرى.[30]

هذا يعني أن السجل الإحاثي يبرهن أن جميع الكائنات الحية قد ظهرت على الأرض بشكل مفاجئ بأشكالها التامة، ودون أي طور تحولي، وهذا عكس الإدعاء الداروييني تماماً وإثبات قوي على حقيقة الخلق. فالتفسير الوحيد لنشوء الكائنات الحية بشكل مفاجئ على سطح الأرض بشكلها الكامل ودون تطور عن أجداد سابقين، إنما يعني أن هذه الأنواع قد خلقت خلقاً. ويقر هذه الحقيقة عالم الأحياء التطوري دوغلائس فيوتويما:

"الخلق والتطور، وبينهما التفسيرات المحتملة عن أصل الكائنات الحية. فإما أن تكون الأنواع قد ظهرت على سطح الأرض بتكوينها الكامل، أو لا تكون. إذا لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أنها قد تطورت عن أنواع وجدت مسبقاً من خلال بعض عمليات التحول. أما إذا كانت قد ظهرت بشكلها الكامل ، فلابد أنها قد خلقت خلقاً."[31]

والمستحاثات تثبت أن الكائنات الحية قد نشأت بشكلها المكتمل على سطح الأرض، وهذا يعني أن "أصل الأنواع" ليس كما يدعي داروين، إنه خلق وليس تطور.

قصة تطور الإنسان

الموضوع الذي يحاول مؤيدوا نظرية التطور الكلام به دائماً هو موضوع أصل الإنسان. يدعي الداروينيون أن الإنسان الحالي قد تطور عن نوع من أشباه القردة. وخلال هذه العملية التطورية المزعومة، التي يفترض أنها استغرقت من ٤-٥ ملايين عاماً، ظهرت "أشكال تحولية" تفصل بين الإنسان الحديث وأجداده، كما

يزعمون. وحسب هذه الصورة الخيالية البحتة، صنفت هذه الأشكال في أربعة فئات:

١-أوسترالوبيثيكوس

٢-هومو هابيليس.

٣-هومو أريكتوس

٤-هومو سابينس

يطلق التطوريون على الجد الأول للإنسان " أوسترالوبيثيكوس" ويعني "قرد جنوب إفريقيا".والحقيقة هو أن هذا المخلوق ليس إلا نوعا من القرود القديمة المنقرضة. أثبتت الأبحاث الواسعة التي أجراها عالما التشريح ، اللورد سولي زوكرمان والبروفسور تشارلز أوكسنارد، من إنكلترا والولايات المتحدة، على مستحاثات أوسترالوبيثيكوس أن هذه المستحاثات تعود إلى أنواع عادية من القردة التي انقرضت والتي لا تحمل أي شبه مع الإنسان.[٣٢]

والفئة الثانية التي يصنفها التطوريون هي "هومو" وتعني "الإنسان" وحسب نظرية التطور، فإن سلالة الهومو أكثر تطوراً من سلالة أوسترالوبيثيكوس. وهنا اخترع التطوريون خطة مثيرة بتركيبهم لهدة مستحاثات من هذه المخلوقات ووضعها بترتيب معين. إلا أن تلك الخطة خيالية لأنه لم يثبت وجود أي علاقة



تطورية بين هذه الفئات المختلفة. يقول أحد أهم المعلقين على نظرية التطور إيرنست ماير في كتابه "من المناظرات الطويلة: " تعتبر الأحجية التاريخية التي تتكلم عن أصل الحياة أو أصل الهومو سابينس أحجية صعبة حتى أنها تتعارض مع الاكتشافات الأخيرة."[٣٣]

ومن خلال السلسلة التي وضعها التطوريون فإن الفئات الأربع: أوسترالوبيثيكوس، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس ناشئة عن بعضها البعض. إلا أن الاكتشافات الأخيرة التي ظهرت على يد علماء المستحاثات البشرية قد أثبتت أن هذه الفئات الأربعأوسترالوبيثيكوس ، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس قد عاشت في بقاع مختلفة من العالم وفي زمن واحد.[٣٤]

علاوة على هذا، فإن الأجزاء البشرية التي صنفت في فئة "هومو أريكتوس" لم تنقرض حتى وقت قريب جداً، أما النياندرتاليين والهوموسابينيس فقد تعايشوا في زمن واحد وفي منطقة واحدة.[٣٥]

هذا الاكتشاف يدحض الادعاء بأن أحد منهم يمكن أن يكون جداً للآخر. يفسر عالم الأحياء القديمة ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould من جامعة هارفارد النهاية المسدودة التي وصلت إليها نظرية التطور، بالرغم من أنه عالم تطوري:

ماذا سيكون مصير فكرتنا إذا كان هناك تزامن معيشي لثلاث من فئات الهومو (الإفريقي والأوسترالوبيثيكوس القوي والهومو هابيليس) وثبت أن أحداً منهم لم ينشأ عن الآخر؟ أضف إلى أن أحدا من هؤلاء لم يثبت عليه أي تحول تطوري خلال فترة حياته على سطح الأرض.[٣٦]

نقول باختصار، أن سيناريو التطور البشري الذي ينص على وجود مخلوق نصفه إنسان ونصفه قرد والذي قام على استخدام العديد من الصور الخيالية التي ظهرت في الكتب الدعائية لنظرية التطور، ليست إلا قصة لا أساس لها من الصحة

العلمية.

وبالرغم من كون العالم سولي زوكرمان، الأكثر شهرة في المملكة المتحدة، عالماً تطورياً، إلا أنه اعترف في نهاية أبحاثه، التي استغرقت عدة سنوات والتي تناولت بشكل خاص مستحاثات أوسترالوبيثيكوس لمدة ١٥ عاماً، أنه لا يوجد شجرة بشرية تتفرع عن مخلوقات شبيهة بالقرود.

صنف زوكرمان العلوم ضمن طيف أسماه "طيف العلوم" يتدرج من العلوم التي يعتبرها علمية لينتهي في العلوم التي يعتبرها غير علمية. وحسب طيف زوكرمان، فإن أكثر العلوم "علمية" — أي التي تقوم على بيانات ومعلومات ملموسة- هي الفيزياء والكيمياء، تليهما العلوم البيولوجية وفي الدرجة الأخيرة العلوم الاجتماعية. وفي نهاية الطيف تأتي العلوم "غير العلمية" والتي يحتل مكانها "الإدراك الحسي المفرط" — وهي مفاهيم الحاسة السادسة والتيليباثي (التخاطر عن بعد) — ويليها "التطور البشري". ويشرح لنا زوكر عمله هذا:

> نحن هنا إذاً نتحول من الحقيقة المسجلة موضوعياً إلى تلك المجالات التي يشغلها علم الأحياء الافتراضي، مثل الإدراك الحسي المفرط، أو التفسير التاريخي للمستحاثات الإنسانية، والتي يبدو فيها كل شيء جائز بالنسبة للتطوري، حيث يكون التطوري مستعداً لتصديق العديد من الأمور المتناقضة في وقت واحد.[٣٧]

لقد انحدرت قصة التطور البشري لتصل إلى مستوى التفسيرات المتحيزة لبعض المستحاثات التي استخرجها بعض الأشخاص الذين تعلقوا بهذه النظرية بشكل أعمى.

المعادلة الداروينية

إلى جانب كل ما تناولناه إلى الآن من أدلة تقنية ، نود أن نوجز ـــ إن شئتم ـــ وبمثال واضح بحيث يمكن حتى للأطفال أن يفهموه ، كيف أن التطوريين أولو

عقيدة خرفاء فاسدة .

تزعم نظرية التطور أن الحياة تشكلت محض صدفة؛ وعليه وطبقاً لهذا الزعم فإن الذرات الجامدة وغير الواعية اجتمعت وشكلت أولاً خلية، ثم جاءت الذرات نفسها بطريقة أو بأخرى بالكائنات الحية والبشر. ولنفكر الآن: إننا حينما نجمع عناصر مثل الكربون والفسفور والأزوت والبوتاسيوم وهي المفردات الأساسية في بنية الكيان الحي، فإنه تتشكل كومة. ومهما مرت كومة الذرات هذه بأي من العمليات، فإنها لا يمكن أن تشكل كائنا حيا واحدًا. ولنجر تجربة في هذا الصدد إذا ما شئتم ، ولنتناول بالبحث والاستقصاء، باسم التطوريين وتحت عنوان "المعادلة الداروينية"، الزعم الذي ينافحون عنه في الأصل، إلا أنهم لا يستطيعون أن يجهروا به:

فليضع التطوريون كميات وفيرة من عناصر مثل الفسفور والأزوت والكربون والأوكسجين والحديد والماغنسيوم وهي العناصر التي تتشكل منها بنية الكائن الحي، داخل أعداد هائلة من البراميل العظيمة. وليضيفوا حتى إلى هذه البراميل ما يرون أنه من الضروري وجوده داخل هذا المزيج من مواد لا توجد حتى في الظروف الطبيعية. وليفعموا هذا المزيج بقدر ما يشاؤون من الأحماض الأمينية، والبروتين (احتمال تشكل الوحدة الواحدة منه تصادفياً بنسبة ١٠ قوة ٩٥٠). وليمدّوا هذا المزيج بالحرارة والرطوبة بالنسبة التي يروها مناسبة، وليخفقوه ما شاؤوا من الأجهزة المتطورة، وليقيّضوا على رأس هذه البراميل صفوة علماء العالم، ولينتظر هؤلاء الخبراء في مكانهم هذا وبشكل مستمر مليارات، بل تريليونات السنين بالتناوب من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، ولتكن لهم مطلق الحرية في أن يستخدموا كافة ما يعتقدون في ضرورة وجوده من الظروف من أجل تشكل الكائن الحي. إنّهم مهما فعلوا، ليس بمقدورهم بالطبع أن يُخرجوا كائنا حيّا من تلك البراميل. ولا يتأتى لهم أن يأتوا بواحدة من الزّرافات أو الأسود أو النحل أو عصافير الكناريا أو البلابل أو الببغاوات أو

الخيل أو حيتان يونس أو الورود أو زهور الأوركيد أو الزنابق أو زهور القرنفل أو الموز أو البرتقال أو التمر أو الطماطم أو الشمام أو البطيخ أو التين أو الزيتون أو العنب أو الخوخ أو الطواويس أو طيور الدُّراج أو الفراشات مختلفة الألوان وملايين من الأنواع الحية من مثل هؤلاء. بل ليس بوسعهم أن يأتوا ولو بخلية من هذه الكائنات الحية التي أحصينا عدداً منها، لا بواحدة منها كاملة الخلق.

جملة ما نبغي قوله هو أن الذرات غير الواعية ليس بوسعها أن تجتمع فتشكل خلية حية، ولا تستطيع أن تتخذ قرارًا جديدًا من بعد فتقسم الخلية نصفين، ثم تتخذ قرارات أخرى تباعًا فتأتي بكيان العلماء الذين اخترعوا المجهر الإليكتروني، ممن يراقبون بنية الخلية ذاتها فيما بعد تحت المجهر. إنّ الخلية تدب فيها الحياة فقط بالخلق المعجز لله عز وجل. أما نظرية التطور التي تزعم عكس هذا، فهي سفسطة تتنافى تماما مع العقل والمنطق. وإن إعمال الفكر ولو قليلا في المزاعم التي طرحها التطوريون، ليظهر بجلاء هذه الحقيقة مثلما في النموذج الوارد أعلاه.

التقنية الموجودة في العين والأذن

أما الموضوع الآخر الذي لم تستطع نظرية التطور أن تأتي له بتفسير جازم، فهو جودة الإدراك الفائقة الموجودة في العين والأذن.

وقبل الولوج إلى الموضوع المتعلق بالعين، نود أن نجيب بإيجاز عن سؤال هو: كيف تبصر العين ؟

إن الأشعة المنبعثة من جسم ما، تسقط بشكل عكسي على شبكية العين، وتقوم الخلايا الموجودة هنالك بتحويل هذه الأشعة إلى إشارات كهربية، تصل إلى نقطة تسمى مركز الإبصار موجودة بالجزء الخلفي للمخ. وهذه الإشارات الكهربية، بعد مجموعة من العمليات يتم التقاطها كصورة في هذا المركز الكائن في المخ. وبعد هذه المعلومة فلنفكر:

إن المخ محجوب عن الضوء، بمعنى أن داخل المخ ظلامًا دامسًا، ولا يتأتى

للضوء أن ينفذ إلى حيث يوجد المخ. والموضع الذي يسمى مركز الإبصار موضع حالك الظلمة ليس الضوء ببالغه أصلا، ولعله مظلم بدرجة لم نصادفها قط. إلا أنكم في هذه الظلمة الحالكة تشاهدون عالما مضيئا متوهجا.

فضلا عن كونه منظرًا على درجة من النقاء والجودة تعجز حتى تقنية القرن الحادي والعشرين ــ رغم كل الإمكانيات ــ أن تأتي بمثلها. انظروا مثلا إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن، وانظروا إلى أيديكم التي تمسك الكتاب، ثم ارفعوا رأسكم وانظروا حولكم. أرأيتم منظرًا بهذا النقاء والجودة في أي موضع آخر؟ إن شاشة أكثر أجهزة التلفاز تطورًا والتي تنتجها شركة أجهزة التلفاز الأولى على مستوى العالم، لا يمكن أن تمنحكم صورة بهذا القدر من النقاء. ومنذ مائة عام وآلاف المهندسين يسعون للوصول إلى هذا النقاء، ومن ثم تُشيَّد المصانع والمؤسسات العملاقة، وتُجرى الأبحاث، ويتم تطوير الخطط والتصميمات. ولتنظروا ثانية إلى شاشة التلفاز، وفي اللحظة ذاتها إلى الكتاب الذي بين أيديكم، فسوف ترون أن هناك فرقاً شاسعاً في النقاء والجودة. فضلا أن شاشة التلفاز تبدي لكم صورة ثنائية الأبعاد، في حين أنكم تتابعون مناظر ثلاثية الأبعاد ذات عمق.

ومنذ سنوات طوال يسعى عشرات الآلاف من المهندسين لتصنيع شاشات جهاز تلفاز تعطي صورة ثلاثية الأبعاد، والوصول إلى جودة رؤية العين. نعم لقد أمكنهم تصميم نظام تلفاز ثلاثي الأبعاد، غير أنه ليس في الإمكان رؤيته ثلاثي الأبعاد دون ارتداء النظارة. ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة اصطناعية. فالجهة الخلفية تظل عكرة، أما الجهة الأمامية فتبدو وكأنها صورة من ورق. ولا يتشكل أبدا منظر في جودة ونقاء المنظر الذي تراه العين. ويحدث بالطبع أن تضيع الصورة في الكاميرا والتلفاز.

وها هم التطوريون يزعمون أن آلية الإبصار في العين والتي تظهر هذا المنظر الذي يتسم بالجودة والنقاء، إنما تشكلت بمحض المصادفة . والآن إذا ما

قال أحد لكم إن التلفاز الموجود في حجرتكم، إنما قد تشكل نتيجة مصادفات، وأن الذرات تجمعت وجاءت بالجهاز الذي يشكل هذه الصورة، ماذا تعتقدون فيه؟! كيف لذرات غير واعية أن تصنع ما لم يتأت لآلاف الأشخاص مجتمعين أن يصنعوه ؟!

إنّ الآلة التي تشكل منظرًا هو أكثر بدائية مما تراه العين، لو أنها لا تتشكل مصادفة، فإنه من الواضح للغاية أن العين والمنظر الذي تراه بدورهما لن يتشكلا محض مصادفة، والحال كذلك بالنسبة للأذن. فالأذن الخارجية تجمع الأصوات المحيطة بواسطة صوان الأذن، وتقوم بتوصيلها إلى الأذن الوسطى، لتقوم هي الأخرى بتقوية الذبذبات الصوتية ونقلها إلى الأذن الداخلية، لتقوم بدورها بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات كهربية، وإرسالها إلى المخ. وعملية السمع أيضا كما هو الشأن في عملية الإبصار تتم في مركز السمع الموجود في المخ.

والوضع الذي في العين يسري كذلك على الأذن. بمعنى أن المخ محجوب كذلك عن الصوت مثلما هو محجوب عن الضوء، فالصوت لا ينفذ، وعليه فإنه مهما بلغت شدة الضجيج خارج المخ، فإن داخله ساكن تمام السكون. ورغم هذا فإن أنقى الأصوات تُلتقط في المخ. ولو أنكم تسمعون سيمفونيات أوركسترا في مخكم الذي لا ينفِذ إليه الصوت، فإنكم تشعرون بكل صخب أحد الأوساط المزدحمة. وإذا ما قيس مستوى الصوت الذي بداخل المخ باستخدام جهاز حساس في تلك اللحظة، فسيتضح أنه يُطبق عليه السكون التام.

وعلى نحو ما استخدمت التقنية أملا في الحصول على صورة نقية، فإن المساعي نفسها تتواصل منذ عشرات السنين بالنسبة كذلك للصوت. وتُعد أجهزة تسجيل الصوت وأشرطة الكاسيت وكثير من الأجهزة الإليكترونية، والأنظمة الموسيقية التي تلتقط الصوت، بعض ثمار هذه المساعي. ولكن على الرغم من كل التقنيات، وآلاف المهندسين والخبراء العاملين بحقلها، لم يتأت الوصول إلى صوت بنقاء وجودة الصوت الذي تلتقطه الأذن. وتأملوا أجود أشرطة الكاسيت التي

تنتجها كبرى شركات الأنظمة الموسيقية، فحينما يسجل الصوت، حتما يضيع شطر منه، أو يحدث تشوش بالطبع ولو قليلا، أو أنه حينما تقومون بتشغيل شريط الكاسيت فإنكم لا بد أن تسمعوا له صريرًا قبل أن تبدأ الموسيقى. في حين أن الأصوات التي من نتاج التقنية الموجودة بالجسم الإنساني تتسم بأقصى درجات النقاء، ولا تشوبها شائبة. ولا تلتقط أذن إنسان أبدًا الصوت بشكل به صرير أو تشويش. وأيا ما كانت طبيعة الصوت فإنها تلتقطه بشكل كامل ونقي. وهذا الوضع لا يزال على ذات الكيفية منذ أن خُلق الإنسان وإلى يومنا هذا. وإلى الآن ليس ثمة جهاز بصري أو صوتي من صنع بني الإنسان يلتقط الصورة والصوت بشكل حساس وناجح مثل العين والأذن.

وفيما عدا هذا كله، فإنه ثمة حقيقة عظيمة للغاية في عملية الإبصار والسمع.

لمن تعود حاسة الإبصار والسمع داخل المخ ؟

من ذا الذي بداخل المخ يشاهد عالما مضيئا ملونا، ويسمع السيمفونيات وزقزقة العصافير، ويتنسم عبير الورود؟ إن التنبيهات الآتية من عيني الإنسان وأذنيه وأنفه تمضي إلى المخ في صورة إشارة كهربية. وإنكم لتطالعون تفصيلات كثيرة في كتب علم الأحياء والطبيعة والكيمياء الحيوية، بيد أنكم لا يمكن أن تصادفوا في أي موضع قط أهم حقيقة ينطوي عليها هذا الموضوع ألا وهي: من ذا الذي بالمخ يتلقى هذه الأشارات الكهربية ويدركها على أنها صورة وصوت ورائحة وإحساس. إن ثمة حاسة توجد بداخل المخ تلتقط هذا كله دون حاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن تعود هذه الحاسة. بالطبع لا تعود على ما يشكل المخ من أعصاب وطبقات دهنية وخلايا عصبية. وهكذا ولهذا السبب ليس بمقدور الماديين الداروينيين ممن يظنون أن كل شيء ليس سوى مادة، أن يجيبوا على هذه

التساؤلات، لأن هذه الحاسة إنما هي الروح التي خلقها المولى عز وجل. فهي لا تحتاج إلى عين حتى ترى الصورة، ولا أذن حتى تسمع الصوت. وعلاوة على هذا كله، فهي ليست بحاجة إلى مخ كيما تفكر. إن كل امرئ يطالع هذه الحقيقة العلمية الجلية، عليه أن يفكر في الله عز وجل الذي جمع بمكان حالك الظلمة داخل المخ يقدَّر بعدة سنتيمترات مكعّبة، الكائنات كافة بصورة ثلاثية الأبعاد ذات ألوان وظلال وضياء، ويخشاه ويلوذ به.

عقيدة مادية

إن ما تناولناه إلى الآن بالبحث والتدقيق ليظهر أن نظرية التطور ما هي إلا زعم يتعارض بوضوح مع الاكتشافات العلمية، ويجافي زعم النظرية ــ فيما يتعلق بأصل الحياة ــ المنطق العلمي. فليس لأية آلية تطور قط طرحتها النظرية أي تأثير تطوري. وتكشف الحفريات أن الكائنات الحية لم تمر بمراحل بينية تلك التي تستوجبها النظرية. وفي هذه الحالة يتعين تنحية نظرية التطور جانبا باعتبارها فكرة مجافية للعلم. لا سيما وأن كثيرًا من الأفكار التي ظهرت على مدار التاريخ، مثل فكرة أن الأرض هي مركز الكون، قد حُذفت من أجندة العلم. في حين أن نظرية التطور يُتشبث بها وبإصرار في هذه الأجندة، حتى إنه من الناس من يسعى لإظهار أي انتقاد موجه إلى النظرية وكأنه هجوم على العلم ! لِمَ هذا إذن؟!

إن السبب في هذا الوضع إنما هو تكون عقيدة جازمة لنظرية التطور لا يمكن النكوص عنها بالنسبة إلى بعض الأوساط. وتخلص هذه الأوساط إخلاصاً أعمى للفلسفة المادية، وتتبنى الداروينية كذلك لأنها التفسير المادي الوحيد للطبيعة الذي يمكن الإتيان به.

وأحيانا يعترفون صراحة بهذا، ويعترف ريتشارد لونتين (Richard Lewontin) ــ عالم الوراثة الشهير بجامعة هارفرد وفي الوقت ذاته تطوري بارز، ــ بأنه "مادي في المقام الأول، ثم عالم في المقام الذي يليه"، إذ يقول:

"إن لنا إيمانا بالمادية، وهو إيمان استباقي (اعتُنق سلفا، وافترضت صحته). والشيء الذي يدفعنا إلى الإتيان بتفسير مادي للعالم، ليس هو أصول العلم وقواعده، بل على العكس من ذلك فإننا ــ بسبب من إخلاصنا سلفا للمادية ــ نختلق أصول ومفاهيم بحثية تأتي بتفسير مادي للعالم. ونظرا إلى كون المادية صحيحة صحة مطلقة، فإننا لا يمكن أن نسمح بدخول تفسير إلهي إلى الساحة".[٣٨]

وتُعد هذه الكلمات اعترافات صريحة بأن الداروينية مولود يحيا في سبيل الإخلاص للفلسفة المادية. وهذا المولود يفترض أنه ما من وجود قط سوى المادة. ولهذا السبب يعتقدون أن المادة الجامدة عديمة الوعي إنما خلقت الحياة. ويذهبون إلى أن ملايين الأنواع الحية المختلفة مثل الطيور والأسماك والزرافات والنمور والحشرات والأشجار والأزهار وحيتان البال والبشر إنما تشكلت من داخل المادة الجامدة وبالتفاعلات الحادثة داخل المادة ذاتها؛ أي بالمطر الساقط، والبرق الخاطف. أما في حقيقة الأمر فإن هذا يتنافى مع العقل والمنطق على السواء. بيد أن الداروينيين يستمرئون المنافحة عن هذا الرأي بُغية "عدم دخول تفسير إلهي إلى الساحة" على حد تعبيرهم.

أما من لا ينظرون إلى أصل الكائنات الحية وفي أذهانهم حكم مادي مسبق، فسوف يدركون هذه الحقيقة الجلية. والكائنات الحية كافة إنما هي من صنع خالق ذي قوة وعلم وعقل معجز. إنه الله الذي خلق الكون كله من العدم، ونظّمه بشكل لا تشوبه شائبة أو قصور، وخلق الكائنات الحية كافة وصوّرها.

إن نظرية التطورِ هي أشد السحر تأثيراً في تاريخ العالم

يتعين هنا أن نوضح أن أيما إنسان يُعمِل عقله ومنطقه دون أحكام مسبقة ودون الوقوع تحت تأثير أي أيديولوجية، سيدرك بسهولة ويسر أن نظرية التطور

التي تذكرنا بخرافات المجتمعات التي عاشت بمنأى عن العلم والحضارة، ليست سوى زعم يستحيل تصديقه.

وعلى النحو المتقدم تبيانه، فإن من يؤمنون بنظرية التطور يعتقدون أن الأساتذة الذين يفكرون ويعقلون ويخترعون، والطلاب الجامعيين والعلماء مثل إينستين هوبل (Einstein Hubble)، والفنانين مثل فرانك سيناترا (Frank Sinatra) وتشارلتون هيستون (Charlton Heston)، يضاف إليهم كائنات مثل الغزلان وأشجار الليمون وزهور القرنفل، سوف يخرجون مع مرور الزمان من مزيج من كثير من الذرات والجزئيات والمواد غير الحية التي تملأ برميلا عظيما. لا سيما وأن من يؤمنون بهذا الخَرَف هم علماء وأساتذة وأناس على قدر من الثقافة والتعليم. ولهذا السبب فإن استخدام تعبير "أشد السحر تأثيرًا في تاريخ العالم" بالنسبة إلى نظرية التطور سيكون استخدامًا في محله. إذ إنه ليس في تاريخ العالم اعتقاد أو زعم آخر سلب عقول البشر بمثل هذه الدرجة وحرمهم من فرصة التفكير بالعقل والمنطق، وكأنه أسدل ستارًا أمام أعينهم، حال دون أن يروا الحقيقة التي كانت واضحة بجلاء. وإنّ هذا لغفلة وعدم بصيرة لا يستسيغها عقل مثلها كمثل عبادة بعض القبائل الإفريقية للطوطم وعبادة أهل سبأ للشمس وعبادة قوم إبراهيم عليه السلام للأوثان، التي كانوا يصنعونها بأيديهم، وعبادة قوم موسى عليه السلام للعجل الذي صنعوه من ذهب. وهذا الوضع في حقيقته إنما هو حماقة أشار إليها الله تعالى في القرآن الكريم. وينبئنا المولى عز وجل في كثير من آياته بأن من الناس من سيستغلق عليه الفهم ويترددون إلى حال يعجزون فيه عن رؤية الحقائق. ومن بين هذه الآيات قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ (البقرة: ٦-٧).

وقوله أيضا :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

أما في سورة الحِجْر فيخبرنا الله عز وجل بأن أولئك الناس قد سُحروا بحيث أنهم لن يؤمنوا حتى ولو رأوا المعجزات، إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (الحجر: ١٤-١٥)

وإن امتداد هذا السحر بشكل مؤثر على قطاعات عريضة من الناس بهذا القدر، وابتعاد الناس عن الحقائق بهذه الدرجة، وبقاء هذا السحر منذ ١٥٠ عاما، لهو وضع مثير للحيرة والدهشة بدرجة لا يمكن شرحها بكلمات، لأنه من الممكن أن يستسيغ العقل اعتقاد شخص أو عدة أشخاص لسيناريوهات مستحيلة ومزاعم حافلة بالخَرَف والهراء والأمور غير المنطقية، إلا أن اعتقاد الكثيرين من البشر في كافة أنحاء العالم بأن الذرات اللاوعية والجامدة قد اجتمعت بقرار فجائي، فأتت بالكون الذي نراه يعمل بنظام لا تشوبه شائبة، ويكشف عن تنظيم غير عادي ونظام متقن غاية الاتقان، وبكوكب الأرض الذي يختص بكافة السمات المناسبة للحياة، وبكائنات حية مزودة بأنظمة معقدة تفوق الحصر، ليس له من تفسير سوى أنه سحر.

كما أن الله عز وجل ينبئنا من خلال تلك الحادثة التي وقعت بين موسى عليه السلام وفرعون، بأن بعض الأشخاص ممن ينافحون عن الفلسفة الإلحادية، يؤثّرون على الناس بما يصنعونه من السحر. فحينما قص موسى عليه السلام نبأ الدين الحق على فرعون، طلب فرعون إلى موسى أن يلتقي بسحرته في موضع يحتشد فيه الناس. وحينما التقى موسى السحرة أمرهم أن يبادروا هم باستعراض

مهاراتهم. والآية التي تسرد هذه الحادثة تقول: ﴿ **قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴾ (**الأعراف:١١٦**). وعلى نحو ما تبدى تمكن سحرة فرعون بما صنعوه من خدع أن يسحروا الناس جميعا باستثناء موسى والذين آمنوا به. إلا أن البرهان الذي ألقاه موسى في مواجهة ما ألقاه هؤلاء على حد التعبير الوارد بالقرآن الكريم "تَلَقَّفَ مَا يَأفِكُونَ"، أي أنّه أبطل تأثيره، يقول تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ**﴾ (**الأعراف: ١١٧-١١٩**)

وعلى نحو ما ورد في الآيات، و مع إدراك أن ما فعله هؤلاء الأشخاص الذين سحروا الناس من قبل وأثروا عليهم إنما هو إفك، باؤوا بالذل والضعَّة. وأولئك الذين يؤمنون بمزاعم خرقاء إلى أقصى درجة تحت غلاف من العلم وبتأثير السحر في عصرنا الراهن، وينذرون حياتهم للدفاع عنها، فسوف يسقط شأنهم ويُذلوا ما لم يتخلوا عن هذه المزاعم، وذلك حينما تظهر الحقيقة بجلاء بكامل معانيها، و"يبطل تأثير السحر".

ويشرح مالكوم موجريدج (Malcolm Muggeridge) الذي ظل ينافح عن نظرية التطور حتى ناهز الستين من عمره، وكان فيلسوفاً ملحداً، ولكنه أدرك الحقائق من بعد الوضع الذي ستتردى إليه نظرية التطور في المستقبل القريب قائلا:

"إنني أنا نفسي صرت مقتنعا بأن نظرية التطور ستكون إحدى مواد المزاح الموجودة بكتب تاريخ المستقبل لا سيما في المجالات التي طُبقت فيها. وسيتلقى جيل المستقبل بالدهشة والحيرة اعتناق فرضية متهرئة يكتنفها الغموض بسذاجة لا يصدقها عقل" .[٣٩]

وهذا المستقبل ليس ببعيد، بل على العكس من ذلك، فإن البشر في المستقبل القريب للغاية، سيدركون أن المصادفات ليست إلهاً وسوف يتم الاعتراف بأن نظرية التطور إنما هي أكبر خدعة وأشد أنواع السحر في تاريخ العالم. وسرعان ما بدأ هذا السحر الشديد ينحسر عن الناس في شتى أنحاء الأرض، وبات الكثيرون ممن وقفوا على سر خدعة التطور، يتساءلون بدهشة وحيرة كيف انطلت هذه الخدعة عليهم.

1- Al-Hafiz ibn al-Dayba ` al-Shaybani, Taysir al-'usul ila Jami` al-'usul, 860.
2- Hadith at-Tirmidhi.
3- Phillip Johnson, The Wedge of Truth: Splitting the Foundations of Naturalism, InterVarsity Press, Downers Grove, (Illinois: 2000), 154.
4-Elmalili Muhammed Hamdi Yazir, Tafsir of Holy Qur'an, http://www.kuranikerim.com/telmalili/saffat.htm
5- Omer Nasuhi Bilmen, Kuran-i Kerim'in Turkce Meali Alisi ve Tefsiri (Tafsir of Holy Qur'an), vol. 9, 2994.
6- Al- Hafiz ibn al-Dayba` al-Shaybani, Taysir al-'usul ila Jami` al-'usul, 6883.
7- Sunan Ibn Majah.
8- Narrated by Abu Sufyan; Sahih Bukhari and Sahih Muslim.
9- Ahmad Diya' al-Din al-Kamushkhanawi al-Naqshbandi, Ramuz al-Ahadith, vol. 2, 397.
10- Sahih Bukhari and Sahih Muslim.
11- Narrated by Abdullah bin Mas`ud; Sahih Bukhari and Sahih Muslim.
12- Sunan Abu Dawud.
13- Sahih Bukhari.
14- Sahih Muslim.
15- Sahih Muslim.
16- Hadith al-Tabarani.
17- Sahih Bukhari.
18- Sahih Muslim.
19- Sahih Bukhari.
20. Sidney Fox, Klaus Dose, Molecular Evolution and The Origin of Life, W.H. Freeman and Company, San Francisco, 1972, 4.
21. Alexander I. Oparin, Origin of Life, Dover Publications, NewYork, 1936, 1953 (reprint), 196.
22. "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol 63, November 1982, 1328-1330.
23. Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, 1986, 7.
24. Jeffrey Bada, Earth, February 1998, 40.
25. Leslie E. Orgel, "The Origin of Life on Earth", Scientific American, vol. 271, October 1994, 78.
26. Charles Darwin, The Origin of Species by Means of Natural Selection, The Modern Library, New York, 127.
27. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, 184.
28. B. G. Ranganathan, Origins?, Pennsylvania: The Banner Of Truth Trust, 1988, 7.
29. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, 179.

30. Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol 87, 1976, 133.
31. Douglas J. Futuyma, Science on Trial, Pantheon Books, New York, 1983. 197.
32. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, Toplinger Publications, New York, 1970, 75-14; Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol 258, 389.
33. "Could science be brought to an end by scientists' belief that they have final answers or by society's reluctance to pay the bills?" Scientific American, December 1992, 20.
34. Alan Walker, Science, vol. 207, 7 March 1980, p. 1103; A. J. Kelso, Physical Antropology, 1st ed., J. B. Lipincott Co., New York, 1970, 221; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. 3, Cambridge University Press, Cambridge, 1971, 272.
35. Jeffrey Kluger, "Not So Extinct After All: The Primitive Homo Erectus May Have Survived Long Enough To Coexist With Modern Humans", Time, 23 December 1996.
36. S. J. Gould, Natural History, vol. 85, 1976, 30.
37. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, 19.
38. Richard Lewontin, "The Demon-Haunted World," The New York Review of Books, January 9, 1997, 28.
39. Malcolm Muggeridge, The End of Christendom, Grand Rapids:Eerdmans, 1980, 43. 236

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا
إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾
(البقرة: ٣٢)